

الدكتور عادل العوّا

الإنسان ذلك المعلوم

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth-Paris



الإنسان ذلك المعلوم



الدكتور عادل العوّا

استاذ الفلسفة في جامعة دمشق

الانسان ذلك المعلوم

منشورات عويدات

بيروت باريس

الطبعة الثانية ١٩٨٢

تصدير

« ان يعرف الانسان نفسه » ، او « تعرف البشرية ذاتها » ، مطلب ثقافي قديم حديث ، مطلب سرمدي انجب عبر التاريخ معرفة الاسطورة ، ومعرفة الدين ، ومعرفة الآداب او « الانسانيات » ، وهذه الانواع من المعرفة ترعرعت في أحضان النشاط الفلسفي الذي انجب نظرات شتى الى حقيقة الانسان ، باعتبار الانسان موضوع معرفة ، وكان من نتاجه تفاوت وجهات النظر انطلاقاً ، وتباين النتائج المذهبية حصيلةً ، وازدياد مطّرد في محاولات تعريف الانسان تعريفات حادة من طراز قولهم : انه حيوان ناطق ، او حيوان مدني ، او حيوان اجتماعي ، او حيوان صانع ، او حيوان متدين ، او حيوان فلسفي ، او حيوان ضاحك ، او حيوان مريض ... الخ .

ولكن المعرفة العلمية شاءت الانفصال عن المعرفة الفلسفية فنشأت طائفة العلوم الوضعية او الدقيقة او التجريبية او الطبيعية او المادية اولاً ، ثم تلتها العلوم التقنية فالعلوم الانسانية او الاجتماعية . ويؤكد (لالاند) ، في « معجمه »(١) ، ان تعبير العلوم الانسانية تعبير حديث ولكنه ما زال آخذاً بالذيوع والانتشار يوماً بعد يوم . وهذا التعبير يدل على ما كان

(١) اندره لالاند : معجم الفلسفة التقني والانتقادي – مادة العلوم الانسانية .

من الشائع تسميته بالعلوم المعنوية . فهو يلحظ على السمة الخارجية التي تمكن ملاحظتها في سلوك الانسان فردياً او جمعياً . ومن البيّن ان موضوع هذه العلوم هو البحث في الانسان . بيد ان العلوم الانسانية لا تشتمل على كل علم يتناول موضوع الانسان ، ومثلاً لا يزعم التشريح ، ولا الفيزيولوجيا ، انهما علمان من العلوم الانسانية عندما يتناولان الانسان . غير ان العلوم الانسانية ، من ناحية اخرى ، تبحث كل ما يميز الانسان عن سائر الطبيعة . وبذا تقابل علوم الانسان علوم الطبيعة بوجه عام .

وثمة غموض كبير ما يزال يكتنف تعبيرين هما : العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية . وقد يذهب بعض الباحثين الى ان هذين التعبيرين مترادفان ، أو شبه مترادفين ، وان العلوم الاجتماعية تضم عندئذٍ علوماً مختلفة مثل علم النفس والجغرافية ، ولا سيما الجغرافية البشرية والاقتصادية . ولكن من الثابت ان علم النفس ما زال يُعنى ، اكثر ما يعنى ، بالانسان الفرد ، وان كان الانسان كائناً — اجتماعياً ، وما زالت الجغرافية تتصل ، في كثير من فروعها ، بسلوك الانسان باعتبار علاقته بالطبيعة . ولذا نرجح ذيوع تعبير العلوم الانسانية ، ونرى ان هذه العلوم تجتاز الآن مرحلة رئيسية حاسمة من مراحل نموها وتطورها . ومن الجائز ان نميز خلال ذلك الدراسات الانسانية ، أو « الانسانيات » ، عن العلوم الانسانية بالمعنى الدقيق . ذلك ان هذه الدراسات الانسانية ظلت الى ما قبل نشوء العلوم الانسانية تمثل هي وحدها العلم الحقيقي ، والمعرفة الشاملة ، لنقل المعرفة السامية بأشرف الكائنات واسماها ، خليفة الله على الارض ، الانسان .

ولكن المنزع الوضعي والموضوعي الذي يسود العلوم الطبيعية والتجريبية المتقدمة يثير اليوم اهتمام « العلوم التي تستهدف معرفة الأنسان وحياته الاجتماعية ووجوده الفردي من مجموعة من المنظومات التي تتطلع الى استخلاص قوانين تطلب لنفسها معرفة مثلى موضوعية ومؤكدة ومستقلة عن الافكار والمواقف والاوضاع البشرية ، كتلك التي في علوم الطبيعة »(١).

ولا يحسبن أحد أن انبثاق العلوم الانسانية او الاجتماعية على صعيد المعرفة الوضعية الدقيقة ، أي العلمية ، يقطع أواصر الفكر الانساني التي تربطه بجذوره الفلسفية ، ولا سيما القيمية أو « الانسانية » . بل ان هذا المطلب الوضعي الجاد الذي تنشده العلوم الانسانية ، او العلوم الاجتماعية والانسانية ، ويرنو اليه الباحثون المعاصرون على الصعيد العالمي ، انما يستلزم ، هو ذاته ، وبالضرورة العلمية والمنطقية ، وجود « قطاعات اخرى من النشاط العارف يسودها الرجوع الى نظام القيم والمعايير والغايات وضرورة التفكير والاهتمام بالتعريف الحر للانسان بواسطة الانسان نفسه على مستوى الجماعات والافراد ، دون ان تنفصل لذلك عن الجهد المبذول في اتجاه معرفة صارمة وقائمة على اساس موضوعي ، ومرد ذلك ان ما يقدم فيها لنشاط الفكر ليس تحديد هوية الافكار في انتمائها الى مجموعة حقائق تراكمية وقيمة بصورة شاملة ، بقدر ما هو الفهم المتبادل والتداخل

---

(١) اليونسكو : الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والانسانية — القسم الاول : العلوم الاجتماعية — الترجمة العربية بقلم جماعة من الاساتذة الاخصائيين — دمشق ١٩٧٦ ج ١ ص ١٠ .

بينها ، بغض النظر عن الاختلافات وتعدد وجهات النظر . وان وجهات النظر والاختيارات لتتلاقى في ظل القاعدة المشتركة للخضوع للحق » . وهذه القطاعات من العلوم هي التي تتميز من بين جميع علوم الانسان بأن مثال المعرفة والحقيقة فيها اقل ما يكون قابلية للصياغة بيسر ، والتي تظل مرتبطة ، بعمق ، بالوجود الفريد للكائنات: البشرية والجماعات ، وبتعبيراتها المبدعة ، وبالاختيارات الاساسية التي تلتزم بها .

اجل ، ان الجهود الموصولة التي بذلها الباحثون من مفكرين وفلاسفة وعلماء وأدباء وباحثين مناطقة وناقدين قد اثمرت في توسيع ، وفي تنويع وفي تعميق فهم الانسان الانسان ، سعياً لمعرفة الانسان نفسه ، وتطلعاً لوعي البشرية ذاتها ، وهذه الجهود ما زالت تحث الخطى على درب المعرفة العلمية الوضعية بوجه خاص . ولكن المطلب العلمي لا ينفي ، كما رأينا ، المطلب القيمي . وان العلوم الانسانية التي تجاوزت مرحلة « الانسانيات » متحررة من الاعتبار الجمالي تحررها من الاعتبارات الفكرية السابقة للعلم ، لا يمكن لها اليوم ان تغض الطرف عن الجانب التقيمي الذي يتوج ، وهو نشاط فلسفي أصيل ، بأعمق ما يكون تتويج ، بحوث العلماء الاخصائيين .

ان هذا الكتاب يهدف ، بادىء ذي بدء ، الى رسم صورة وجيزة عن هذا المسعى الفكري في دراسة الانسان والعلوم الانسانية . ولكن الصعاب المادية للطباعة حملتنا على تجزئة بحثنا ونشر القسم الاول منه بعنوان « الانسان ، ذلك المعلوم » ؛ ونقصد بهذا العنوان « المفارق » الالماع الى ضروب المحاولات التي سبقت نشأة العلوم الانسانية بالمعنى الدقيق ، وقد

اخترنا الثقافة العربية ، بل العربية الاسلامية منهلاً نمتح من معينه أمثلتنا على دور « الانسانيات » في سائر الثقافات باعتبارها مرحلة مخاض سبقت بزوغ الفكر العلمي الوضعي في ميدان الانسان .

وقد وجدنا من المفيد ان نبدأ بمقدمة وجيزة عن الاسس القرآنيـــة لمفهوم الانسان في الثقافة العربية ـــ الاسلامية ، وتناولنا في الفصل الاول النظرة التقليدية الى الانسان اسماً ومضموناً ، واوجزنا التصورات « الوثوقية » التي ترسم « علمنا » بخَلْق الانسان وبنيته وصيرورته ومصيره مجتازاً الموت الى ما ورائه من حياة آجلة يفترق فيها المعاد الى وجـــود في الجنة او في النار . وفي الفصل الثاني اوجزنا النظرة العقلية في الثقافة العربية الاسلامية ، فتحدثنا عن المنزع الكلامي والفلسفي مقتصرين على مثلين ينهض بهما (الراغب الاصفهاني) و (اخوان الصفاء) وعن المنزع الصوفي ولا سيما في نظرية الحقيقة المحمدية كما قال بها (ابن عربي) و (الجيلي) . وتحدثنا كذلك عن المنزع التأويلي واخترنا للتمثيل على بعض خصائصه الرئيسية في مفهوم الانسان الكلام على النظرة الشيعية والنظرة الاسماعيلية . وفي الفصل الثالث تمهلنا لالقاء نظرة على « الانسانيات العربية » وانطلقنا من الاشارة الى وقائع هذه النظرة من حيث المطلب الجمالي وما تعلق عليه من أهمية تتجلى في قيم الفصاحة والادب والعقل والحلم ؛ ثم انتقلنا بالالماع الى اشارات تتناول التنهيج في هذه الانسانيات ، فأوضحنا بعض تعريفات الادب وعلومه ، وأهمية العلم ومفهومه في النظرتين الدينية والعقلية ، واستشهدنا على تصنيف العلوم في الثقافة العربية ـــ الاسلامية بآراء (الغزالي) و (الفارابي) و (اخوان الصفاء) و (ابن خلدون) و (التهانوي) ، وضربنا مثلين على شمول المواضيع التي تعالجها العلوم الادبية او الانسانيات

العربية ، وعلى غنى هذه المواضيع وتنوعها وثروتها العظمى ، واخترنا هذين المثلين من كتاب « العقد الفريد » (لابن عبد ربه) وكتاب « نهاية الارب في فنون الادب » (للنويري) .

وفي أثر هذه الجولة السريعة في رحاب الثقافة العربية — الاسلامية التي زودتنا بمعرفة « انسانية » عن الانسان ، قفزنا الى الثقافة الغربية او العالمية الراهنة ، فتحدثنا في الفصل الرابع — والاخير — عن النظرة العلمية المعاصرة ، وبدأنا بالاشارة الى رأي الدكتور (الكسيس كاريل) في كتابه الشهير « الانسان ذلك المجهول » ، وقد احببنا معارضة هذا العنوان بما هو الى دعابة المفارقة اقرب ؛ واتبعنا بتأكيد الدكتور (صبحي ابو غنيمة) على ان النفس هي ذاك المجهول الخالد ، ولكن هذين العالمين انما يودان « اعلامنا » عن ان « علمنا » ، بالرغم من تقدمه ، وتطوره ما يزال يحبو امام ظاهرة الانسان ، والوجود الانساني الفذ . ثم رأينا من النافع الاشارة الى ذاك التيار من البحث العلمي « التطوري » في الانسان ، واخترنا للتمثيل عليه الالماع الى آراء (جوليان هكسلي) و (جان روستان) و (لوكونت دي‌نوى) . ووقفنا ، من ثم ، امام دراسة الاب العالم (تيار دي شاردان) وسعيه لابراز « الظاهرة الانسانية » في نطاق التطور الكوني الماضي والحاضر ، وما يرتقب لنموه في الغد القريب والبعيد . وكان آخر ما اخترنا في صدد الاعراب عن النظرة العلمية الى الانسان بحوث الدكتور (بيير فندريس) الذي سلخ سنوات طوالاً ينقّب عن الحقيقة العلمية التي وجد أنها تؤدي دائماً الى المستوى النظري ، وعن حقيقة الانسان بمفهومه هذا عن

العلم ، ولذا جاءنا بآرائه عن الاستقلال الذاتي للانسان فزيولوجياً وفكرياً في كتاب جعل عنوانه « نظرية عن الانسان ».

اما القسم الآخر من بحثنا عن الانسان والعلوم الانسانية ، فقد أفردناه في كتاب خاص بعنوان : العلوم الانسانية ، وقد عرضنا فيه لمشكلة تعارض الآداب والعلوم اولاً ، ثم درسنا تطور مفهوم العلم ، واوضحنا في فصل ثالث ورابع نشأة العلوم الانسانية وتقدمها قبل (ديلتي) وبعده ، وخصصنا الفصل الخامس بالكلام على آفاق العلوم الانسانية واتبعناه بفصول تتناول على الترتيب صعاب هذه العلوم وطرائقها ووظيفتها .

مقدمة

الاسس القرآنية

متحت الثقافة العربية ، ولا سيما في عصورها المدرسية ، من التعاليم الدينية عامة ، ومن التعاليم الاسلامية بوجه خاص ، متحت أسس فكرها الخصيب الذي ما برح ينمو ويزدهر ويزداد ثروة وغنى برفد تفاعله المبدع مع نتاج الفكر الانساني الموصول في حقول الادب والعلم وسائر وجوه المعرفة والفنون . ومن النافع ان نقدم لبحثنا عن مفهوم الانسان في الثقافة العربية بلمحة موجزة جداً تبين ان التعاليم الاسلامية تنهل ، أول ما تنهل . من معين القرآن الكريم ، وهي تنهل ، من ثم ، من ينبوع الاحاديث النبوية التي يقرها أهل السنة ، وهم يقتصرون عليها ؛ ويضيف اليها الشيعة احاديث مروية عن الأئمة الفضلاء آل البيت ، وبعض هؤلاء الشيعة لا يأخذ بغير هذه الاحاديث الامامية ، أو يستعيض بروايات شيعية لبعض الاحاديث التي يقرها السنيون .

وليس من شأننا هنا أن نعالج موضوع اسس الثقافة العربية ومناهلها الاسلامية وغير الاسلامية ، ولكننا نكتفي بالتذكير ببعض الآيات القرآنية المتصلة بالانسان ، نشأته وحياته ، وخاصته ، ومغزى وجوده في الارض وموته ، ومصيره .

فقد أشار القرآن الكريم الى نشأة الانسان من سلالة من طين . « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » . « وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه » . وهذا الانسان الاول الذي خلقه الله « بيده » ، ونفخ فيه من روحه ، هو آدم أو أب الانسانية ، وقد كرّمه الله وأبان منزلته حين اعتبره خليفة الله في الارض وطلب الى الملائكة ان يسجدوا له فسجدوا كلهم إلا ابليس : « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فاذا سوّيته ونفخت فيه من روحي خضعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم اجمعون إلاّ ابليس أبى أن يكون من الساجدين » . « وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال : اني اعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا ، انك انت العزيز الحكيم . قال : يا آدم انبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والارض ، واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين . فتلقى

آدم من ربه كلمات ، فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحـــزنون » .

وعلى هذا النحو كان آدم ، الانسان الاول . وابناؤه من بعده ، يرفلون بخلافة الله في الارض . وقد أفاض الله على الانسان علماً وبياناً . « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علّمه البيان » . « وعلّم آدم الاسماء كلها » . وبهذا التفضيل رقي آدم فوق مرتبة الملائكة ، وطلب الله الى هؤلاء ان يسجدوا لآدم سجود اظهار فضله ، واعترافهم به ، فسجدوا الا ابليس ، ابى واستكبر . وقد اكد القرآن الكريم على مزية العلم وما يتبعها من اتسام الانسان بالعقل وبالحكمة . « علّم الانسان ما لم يعلم » . « وعلّمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً » . « وقل رب زدني علماً » . « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . « يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات » . « انما يخشى الله من عباده العلماء » . « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا اولو الالباب » . وقد تكررت مادة العقل في القرآن ما يقرب من خمسين مرة مثل « أفلا تعقلون » ، « لعلكم تعقلون » ، « ان كنتم تعقلون » ؛ « أفلم تكونوا تعقلون » ؟ « وما يعقلها إلا العالمون » . « ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ... « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ...

الانسان أكرم الخلائق ، وأحسنها تقويماً . وقد سخر الله له ما في السموات وما في الارض ، ونظّم شروط وجوده في الدنيا جماعات

وشعوباً وقبائل وأمماً ، وخلق البشر من ذكر وانثى ، وجعل بين الزوجين مودة ورحمة ، وطلب اليه من جراء هذا كله ان يعبد الله ربه ، وان يؤمن ويعمل صالحاً . « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » . « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ». « سخر لكم ما في السموات » . « سخر لكم ما في الارض » . « وما كان الناس إلا أمة واحدة ، فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون » . « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات » . « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . « ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . « ان هذه امتكم امة واحدة ، وانا ربكم فاعبدون » . « قل انما يوحى إليّ انما الهكم اله واحد فهل انتم مسلمون » ؛ « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي انما الهكم اله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه احداً ». « وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ،ويهدي من يشاء ، وهو العزيز الحكيم » .

هذه المنزلة الفريدة التي خص الله بها الانسان ، فرداً وجماعات ، وهذه الخصائص العقلية والعلمية توجب وعي الانسان بحقيقته ، وتستتبع ان يتبصر الانسان فيعبد ربه ، ويطيع الرسل ، ويعمل صالحاً ، ليحسن

ايمانه ، ويزداد كرامة بمزيد من التقوى ، واذ ذاك يبرهن المرء على جدارته حين تصدى لحمل الامانة ، ورضي بأن يكون خليفة الله في الارض . « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها ، وحملها الانسان ، انه كان ظلوماً جهولاً » . وقد تكررت كلمات الايمان والعمل الصالح عشرات المرات في القرآن . « وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى » . « ومن احسن قولاً مما دعا الى الله وعمل صالحاً » . « من عمل صالحاً فلنفسه » . « وقل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل » . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » . « ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً اذ تفيضون فيـــه » .

وهذا العمل الصالح يفترض التكليف ، في حدود الطاقة الانسانية ، ويستوجب الطاعة ، وهي ام الفضائل ، ومجانبة المعصية ، وهي اس الرذائل ، كما ينطوي على مفهوم الحرية والمسؤولية ، ويستتبع بعدئذ الثواب والعقاب ، وبهذا تكون الحياة في الدنيا جسراً يتصل طرفه الآخر بالحياة بعد الموت ، وبما ينتظر المرء بعد الحساب من مكافأة النعيم ، أو عذاب الجحيم . « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم. ولا تسألون عما كانوا يعملون » . « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . « وان ليس للانسان إلا ما سعى » . « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » . « وبشرّ المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم

اجراً كبيراً . وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليما » . « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » . « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » . « والعصر ان الانسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . أما اعظم صفات الشر لدى الانسان فهي اتصافه بأنه ظلوم كفار عجول هلوع جهول ... « ان الانسان لظلوم كفار » . « وكان الانسان عجولا » . « وكان الانسان قتوراً » . « وكان الانسان اكثر شيء جدلاً » . « انه كان ظلوماً جهولاً » . « ان الانسان خلق هلوعاً » . « ان الانسان لربه لكنود » .. « وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم اجراً كبراً . وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليماً ، ويَدْعُ الانسان بالشر دعاءه بالخير . وكان الانسان عجولا » . « أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون » . « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » . « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا اشدكم ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يردّ الى ارذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق . وانه يحيي ويميت وانه على كل شيء قدير . وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من في القبور » . « يومئذ يصدر الناس اشتاتاً ليروا أعمالهم . فمن

يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم » . « ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » . « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزاً حكيماً » .

الفصل الاول

النظرة التقليدية

الانسان ، في الفكر العربي ، اسم ومضمون .

فمن الناحية الاولى ، ناحية الانسان الاسم ، عنيت اللغة العربية بهذه التسمية وبما يتصل بها عناية دقيقة ، شأنها بالمفاهيم الاساسية التي تمنحها القيمة الكبرى .

ذكر صاحب « تاج العروس من جواهر القاموس » ان الانسان معروف ،والجمع الناس ، مذكر ، وقد يؤنث على معنى القبيلة والطائفة. وله خمسة معان احدها الانملة كما في قول (ابن سيده) :

أشارت لانسان بانسان كفها　　لتقتل انساناً بانسان عينها

وثانيها ظل الانسان . وثالثها رأس الجبل ورابعها الارض التي لم تزرع وخامسها المثال الذي يرى في سواد العين ويقال له انسان العين .

والانس (بالكسر) البشر ، كالانسان ، الواحد انسي . وانما سمي الانسيون لانهم يؤنسون ، اي يرون ، وسمي الجن جناً لانهم مجنونون عن رؤية الناس ، أي متوارون . والجمع اناسي . وقيل هو جمع انسان . ويجوز قول : اناسيه بجعل الهاء عوضاً عن احدى ياءي اناسي . وقد يجمع الانس على آناس مثل أجل وآجال .

اما المرأة فهي انسان . وقولهم انسانة بالهاء لغة عامية ، أو انها لغة صحيحة ولكنها قليلة . قال بعض المولدين :

لقد كستني في الهوى ملابس الصب الغزل
انســانة فتانة بدر الدجى منها خجل
اذا زنت عيني بهــا فبالدمــوع تغتسل

وروى (ابن المستكفي) عن (المتنبي) قوله :

لاعبتُ بالخاتم انسانة كمثل بدر الدجى الناجم
وكلما حاولتُ اخذي له من البنان المترف الناعم
ألقته في فيها فقلتُ انظروا قد أخفت الخاتم في الخاتم

والأناس (بالضم) لغة في الناس . قال (سيبويه) : الاصل في الناس الاناس مخفف فجعلوا الالف واللام عوضاً عن الهمزة وقد قالوا : الاناس ذكر شاعر :

ان المنــايا يطلعن على الاناس الآنسينا
فيدعنهم شتى وقد كانوا جميعاً وافرينا

والانسي (بالكسر) الايسر من كل شيء ؛ يقول (الاصمعي) : كل اثنين من الانسان مثل الساعدين والزندين والقدمين فما اقبل منهما على الانسان فهو انسي ، وما ادبر عنه فهو وحشي . والانسي من القوس ما اقبل عليك منها .

ومن المجاز قول العرب : « هو انسك وابن انسك » (بالكسر فيهما) أي (صفيك وخاصتك) . وقولهم : « هذا حدثي وانسي وجلسي »

(كله بالكسر) وتقول العرب : كيف ترى ابن انسك اذا خاطبت الرجل عن نفسك . والانوس من الكلاب (كصبور) ضد العقور . وجمعه أنس بضمتين ومئناس ، كمحراب ، اسم امرأة . ومأنوس : اسم رجل . أما كلمة انيس ، كأمير ، فانها تدل على الديك . والانيس هو المؤانس . وهو كل مأنوس به . ومن المجاز ايضاً قولهم : « باتت الانيسة انيسته » ، والانيسة بالهاء النار كالمأنوسة ويقال لها السكن لان الانسان اذا آنسها ليلاً انس بها وسكن اليها وزالت عنه الوحشة وان كان بالارض القفر . امــا الجارية الآنسة فانها تتميز بأنها طيبة النفس تحب قربك وحديثك والجمع آنسات وأوانس.

الانس (بالضم) والانس (بالتحريك) والانسة (محركة) ضد الوحشة ، وهو الطمأنينة . والانس حديث النساء ومؤانستهن . قال (الفرّاء) الانس بالضم الغزل . والانس (محركة) الجماعة الكثيرة من الناس ، تقول : رأيت بمكان كذا وكذا انساً كثيراً أي أناساً كثيراً . والانس الحي المقيمون ، وجمعه آناس .

واذا اطلق فعل آنسه ايناساً أفاد معنى ضد أوحشه . وانس به وانس به بمعنى واحد . وآنس الشيء ايناساً أبصره ونظر اليه وبه فسر قوله تعالى : « آنس من جانب الطور ناراً » . وآنس الشيء علمه ، يقال آنست منه رشداً أي علمته . وفي الحديث : حتى تؤنس منه الرشد أي تعلم منه كمال العقل وسداد الفعل وحسن التصرف . وآنس فزعاً احس به ووجده في نفسه ، وآنس الصوت سمعه . ويقال : اذا جاء الليل استأنس كل وحشي

واستوحش كل انسي أي ذهب توحشه . ويقال استأنس الوحشي احس انسياً . يقول (الفرّاء) : الاستئناس في كلام العرب النظر . يقال : اذهب فاستأنس هل ترى احداً فيكون معناه : هل ترى أحداً في الدارّ . واستأنس الرجل استأذن وتبصر . وبه فسر قوله تعالى « لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتّى تستأنسوا وتسلموا » . قال (الزجاج) معنى تستأنسوا في اللغة تستأذنوا ولذلك جاء في التفسير : تستأنسوا فتعلموا أيريد أهلها ان تدخلوا أم لا . وقال (العزّاء) هذا مقدّم ومؤخر انما هو : حتّى تسلموا وتستأنسوا السلام عليكم أأدخل أم لا . وكان (ابن عباس) يقرأ هذه الآية : حتّى تستأذنوا .

المتأنس والمستأنس الاسد . أو المتأنس الذي يحس الفريسة من بعد ويتبصر لها ويتلفت . قيل وبه سمي الاسد . ويقال : ما بالدار من أنيس أي أحد . وانس اسم مثل اسم انس بن مالك . وكذلك يونس مثل اسم احد الانبياء . والمؤنسة والمؤنسية اسما قريتين الأولى قرب نصيبين والاخرى بالصعيد شرقي النيل نسبت الى مؤنس الخادم مملوك المعتصم ايام المقتدر عند قدومه مصر لقتال المغاربة . وانيس كزبير اسم علم . وكان العرب يسمون يوم الخميس مؤنساً لأنهم كانوا يميلون فيه الى الملاذ . وورد في الآثار عن (علي) ان الله تبارك وتعالى خلق الفردوس يوم الخميس وسماها مؤنس . وابن الانس هو المقيم . ومكان مأنوس فيه انس كمأهول فيه أهل . وقال (ابن الاعرابي) أنست بفلان فرحت به ، واستأنس استعلم . والاستئناس التنحنح .

ومن المجاز قولهم لبس المؤنسات ، أي السلاح كله . وانسان (بالكسر) قبيلة من قيس ثم من بني نصر . والناس اسم قيس عيلان .

ومما يستدرك في لفظ الناس انه يدل على ما يتعلق ويتدلى من السقف من الدخان وغيره . ويقال ناس الابل ينوسها نوساً : ساقها . واناسه حركه ودلاه . ومنه حديث ام زرع : واناس من حلى اذني ارادت انه حلى اذنيها قرطة وشنوفاً تنوس باذنيها . ونوّس بالمكان تنويساً اقام . وتنوس الغصن وتنوع اذا هب به الريح فهزته فكثر نوسانه . والخيوط نائسة على كعبيه أي متدلية متحركة . والنوسات محركة الذوائب لأنها تتحرك كثيراً .

والنوس (بالفتح) والنوسان (بالتحريك) التذبذب . وسمي احد اذواء اليمن بـ « ذو نواس » لذؤابة كانت تنوس ، أو لذؤابتين كانتا تنوسان على ظهره ، أو على عاتقيه . ومنه اسم نوّاس ، وابو نواس الحسن بن هانىء الشاعر ..

فاذا نظرنا ، لغوياً ايضاً ، الى اشتقاق اسم الانسان طالعتنا آراء كثيرة يضمن كل منها في الحق نظرية خفية تنم عن مذهب صاحبها في حقيقة الانسان . وقد جمع (النويري) أشهر هذه الآراء في سؤاله التالي : هل هذا الاشتقاق من الانس ، الذي هو نقيض الوحشة ، أو النوّس ، الذي هو نقيض السكون ، أو الايناس ، الذي هو بمعنى الابصار ، او النسيان ، وهو نقيض الذكر .

---

(١) شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري : نهاية الارب في فنون الأدب (القاهرة ج ٢ ص ٥ وما بعد) .

فالشريف السيد ضياء الدين ، ابو السعادات ، هبة الله ، المعروف (ابن الشجري) يرى ان اصل الانسان ، او اناس ، او الناس ، مـــن الانس ، نقيض الوحشة ، لان الناس بعضهم يأنس الى بعض .

وما سمي الانسان الا لانسه ولا القلب إلا انه يتقلب

أما (الكسائي) فيرى أنه مأخوذ من النوّس ، مصدر ناس ينوس اذا تحـــرك .

وقال (ابو علي الفارسي) : اصل الناس الاناس ، فحذفت الهمزة التي هي فاء ، ويدلك على ذلك : الانس والأناسي . ويقال في تحقيره نُوَيس .

وقال (سَلَمَة بن عاصم) ، وكان من أصحاب (الفرّاء) : الاشبه في القياس ان يكون اناس من الانس ، وناس من النوس ، لقولهم في تحقيره : نويس ، كبويب في تحقير باب . وبذا يكون كل واحد منهما اصلاً بنفسه .

وذهب (ابو عمرو الشيباني) الى انه مشتق من الايناس الذي هو بمعنى الابصار ، وحجته قوله تعالى : « اني آنست ناراً » ، أي ابصرت نـــاراً .

وذهب (الكوفيون) الى انه مشتق من النسيان ، وحجتهم ان اصله إنسِيَان ، فحذفت الياء تخفيفاً ، وفتحت السين لان الالف تطلب فتح ما قبلها ، ولان العرب حين صغرته قالت فيه أُنَيْسِيان ، فزادت الياء . والتصغير يردّ الاشياء الى أصولها ولو لم تكن في المكبّر لما رُدّت في

المصغّر ، وبه أخذ (ابو تمام) في قوله :

لا تنسَيَنْ تلك العهود فانما ‏ ‏ ‏ ‏ سميت انساناً لانك ناسي

وانكر (البصريون) ذلك ، وقالوا : لا حجة فيه ، لان العرب قد صغّرت اشياء على غير قياس ، كما قالوا في تصغير رجل بمعنى راجل رُوَيْجل ، وفي تصغير ليلة : لُيَيْلَة ، وفي تصغير عَشية عُشَيْشة .

ويقول (ابن عباس) : انما سمي الانسان انساناً لانه عُهد اليه فنَسي . ويعلن (النويري) ، في اثر هذا العرض ، ان هذا عنده هو الارجح ، والله اعلم ، ولعلنا نأخذ نحن برأي (ابن الشجري) وهو يماثل مذهب (مسكويه) اذ قال : « الانسان آنس بالطبع ، وليس بوحشي ولا نفور ، ومنه اشتق اسم الانسان في اللغة العربية »(١) .

والحق ان هذا الاختلاف في تبيان اشتقاق لفظ الانسان يرجع الى اختلاف قيمي حول النظرة الى الانسان باعتباره حيواناً مدنياً بالطبع ، وهذا هو جانب الانس ، او الجانب الجميل من الحياة الاجتماعية ، او باعتباره حيواناً ناشطاً ، ولعلنا نقول بلغة العصر حيواناً فاعلاً أو تقنياً ، وهذا هو نقيض السكون ، او باعتبار الانسان مبصراً ، والبصر اداة معرفة اساسية ، فتكون القيمة الاولى المرموقة آنذاك هي قيمة الانسان العارف ، لا الانسان الصانع ، او باعتبار اشتقاق الانسان من النسيان ، وهو نقيض

---

(١) احمد بن مسكويه : تهذيب الاخلاق ، وتطهير الاعراق — بيروت ١٩٦١ ص ١٣٠ .

الذكر ، وبذا يكون الانسان هو الكائن المسؤول ، بالدرجة الاولى ، ومنه بالارجح ما ذهب اليه (ابن عباس) وتبعه في ذلك (النويري) ، من ان الانسان سمي انساناً لانه عُهِدَ اليه فنسي ، ولعل في هذا الالماع اشارة بعيدة الى النظرة الدينية المتصلة بحياة الانسان الاول في الجنة ، ومن قبل ان ينزل كما تتحدث بذلك الكتب السماوية .. وربما جاز لنا أن نكفَّ عن النظرة الاحادية في فهم اشتقاق تسمية الانسان لننظر نظرة تركيبية ترجع هذه التسمية الى تضافر وجهات نظر شتى ، وامكانات قيمية كثيرة ، تدخل جميعها في المفهوم العربي اللغوي عن الانسان .

●

ومن الناحية الثانية ، ناحية الانسان المضمون ، أو المسمى ، او الفحوى ، فان البحث فيها قد يشتمل على وجهَي نظر : سكونية تتصل بما نسميه بنية الانسان ، والانسان في الفكر العربي جسد وروح ، وحركية تتصل بما نسميه حياة الانسان او صيرورته من الولادة فالنمو فالموت .

بيد أن حصيلة الفكر العربي في موضوع الانسان بنيةً وصيرورةً حصيلة غنية الغنى كله . ولا مندوحة من تمييز مستويات أو آفاق مختلفة اذا شئنا تلخيص هذه الحصيلة بذكر الماعات عنها . فمن الجائز اولاً ان نقف عندما نسميه النظرة التقليدية او الجماهيرية التي تعم صفوف سواد الناس في الشعوب العربية بله الاسلامية . وهذه النظرة تعتمد بالدرجة الاولى تصوراً متخيلاً ينطلق من معطيات ثقافية متوارثة هي بصورة رئيسية المبادىء الفكرية الدينية المستقاة من الكتاب والسنّة ، في الاوساط الاسلامية

ولكنها توسّع بالتخيل تلك المبادىء حتّى تكسوها ألواناً منمّقة المنطق وكأنها تود كتابة الثقافة بلغة العاطفة المؤمنة التي لا ترى جواز جهل أي نقطة من نقاط الماضي السحيق ، ولا المستقبل البعيد أو القريب ، وبعبارة اخرى ، ان الفكر العربي على المستوى الشعبي يرفض عدم المعرفة ، ويرى ان في وسعه الالمام بكل ما يطرحه الفكر على ذاته بل يذهب الى ان معرفته « أكيدة » ، و « ثابتة » ، و « بديهية » لا تحتاج الى برهان اللهم سوى فهم خاص أو جديد لما تستمده من آيات الكتب السماوية وبخاصة من القرآن الكريم . وهي تفيد من استشهادها بآي الذكر الحكيم كما تفيد من الاحاديث النبوية واحياناً من الاقوال المنسوبة الى الانبياء السابقين ولكنها تضيف الى هذا كله رفداً قد يكون صادراً عن اساطير سابقة عربية وغير عربية ، أو يكون صادراً عن آراء حكيمة أو غير حكيمة ، وربما اعتبر بعضها مغرضاً غرض السوء كما هي حال رفد ما يسمى اصطلاحاً بالاسرائيليات . وينشأ عن هذا النشاط الفكري « التلفيقي » صورة ممجّدة عن مفهوم نمطي يتصل بأصل الانسان ، وبمصيره ، منذ خلق الله الانسان في الجنة ، حتّى ما بعد سكرات الموت التي لا بد من ان يعانيها كل انسان ، وما يرقبه بعد الموت الى ابد الآبدين .

ان هذا الفكر « الشعبي » نسيج حقيقة وتصور ، وما من سبيل لاستخلاص ما لكل منهما إلاّ باللجوء الى تحليل انتقادي ليس من شأننا ان نعالجه هنا . ويبقى من الثابت ان لهذا الفكر تأثيراً موصولاً الى اليوم ، وكأنه يرقد في أعماق النفس العربية المثقفة ، ويطفو على السطح لدى الجماهير .

ان الانسان ، في نظر هذا الفكر ، موجود ، أي مخلوق . وقد خلقه الله تعالى خالق كل شيء . فلماذا خلقه ، وكيف ؟

يقول (ابو الحسن القفال) : « خلق الله تعالى الملائكة للقدرة ، وخلق الاشياء للعبرة ، وخلق الناس للمحنة »(١) .

ولكن ثمة نظرية اخرى يفسر بها (العلماء) الآية الكريمة الآتية : « الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم » بقولهم : خلقكم لاظهار القدرة ، ثم رزقكم لاظهار الكرم ، ثم يميتكم لاظهار القهر والجبروت ، ثم يحييكم لاظهار العدل والفضل ، والثواب والعقاب . وهذه النظرية تدخل في اطار اوسع اذ يرى (الحكماء) ان الله خلق الخلق ليظهر وجوده ، ولو لم يخلق لما عرف انه موجود ؛ وليظهر كمال علمه وقدرته بظهور افعاله المتقنة المحكمة لانها لا تتأتى إلا من قادر حكيم ، وليعبد فإنه يحب عبادة العابدين ويثيبهم عليها على قدر فضله ، لا على قدر أفعالهم ، وان كان غنياً عن عبادة خلقه ، لا تزيد في ملكه طاعة المطيعين . ولا ينقص من ملكه معصية العاصين . قال تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » ، وليظهر احسانه لانه محسن . فأوجدهم ليحسن إليهم . وليتفضل عليهم فيعامل بعضاً بالعدل ، وبعضاً بالفضل ، وخلق المؤمنين خاصة للرحمة كما قال تعالى : « وكان بالمؤمنين رحيماً » ... وليحمدوه لأنه يحب الحمد .

---

(١) ابن اسحق احمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي : قصص الانبياء المسمى بالعرائس – القاهرة بلا تاريخ ص ١٦ .

لم يخلق الله الناس على وضع واحد ، ومواهب واحدة ، وحظ واحد، وقد رفض تساويهم لانه يحب ان يُشكر . « يروى ان آدم عليه السلام لما خلقه الله تعالى وعرض عليه ذريته وجد فيهم الصحيح والسقيم ، والحسن والقبيح ، والاسود والابيض ، فقال : يا رب هلاّ سوّيت بينهم فقال الله تعالى : اني احب ان اشكر » .

والى جانب هذه النظرية التي تحدّد غاية خلق الله البشر بما يتصل برغبته الذاتية في ان يتيح للخلق ان يعرفوه ويعرفوا كمال علمه وقدرته واتقـان افعاله المحكمة وليمنحهم فرصة عبادته وحمده وشكره ، توجد نظرية شهيرة الشهرة كلها في صفوف الايمان الشعبي ، شهرتّها المذهبية لدى المتصوفة القائلين بمفهوم الانسان الكامل من جهة ، ولدى الفلاسفة الباطنيين الذين يجاوزون دور الرسول العربي (محمد بن عبد الله) ليبلغوا رتبة الامام الاخير ، وهو لدى الاسماعيلية سابع الاشهاد . وخلاصة هذه النظرية الشهيرة على المستوى الجماهيري بوجه خاص ان ثمة من يقول بأن الله تعالى « خلق الخلق جميعهم لأجل (محمد) صلى الله عليه وسلم : عن (قتادة) عن (سعيد بن المسيب) عن (ابن عباس) قال : أوصى الله الى عيسى عليه السلام : يا عيسى آمن بمحمد ، وأمر امتك ان يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار . لقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتب عليه لا اله إلاّ الله ، محمد رسول الله ، فسكن »(١) .

أما كيفية خلق الله تعالى (آدم) فقد تحدث عنه المفسرون « بألفاظ

---

(١) المصدر السابق ص ١٦ .

مختلفة ، ومعان متفقة » خلاصتها ان الله تعالى لما اراد خلق (آدم) عليه السلام أوحى الى الارض : اني خالق منك خلقاً ، منهم من يطيعني ومنهم من يعصيني ، فمن أطاعني منهم أدخلته الجنة ، ومن عصاني أدخلته النار . ثم بعث (جبريل) عليه السلام ، ليأتيه بقبضة من ترابها ، فلما أتاها (جبريل) ليقبض منها القبضة قالت له الارض : اني اعوذ بعزة الله الذي ارسلك أن لا تأخذ مني شيئاً يكون فيه غداً للنار نصيب . فرجع (جبريل) ع س الى ربه ولم يأخذ منها شيئاً وقال : يا رب استعاذت بك فكرهت ان اقدم عليها . فأمر الله عز وجل (ميكائيل) ع س فأتى الارض فاستعاذت بالله ان يأخذ منها شيئاً ، فرجع الى ربه ولم يأخذ منها شيئاً ، فبعث الله تعالى (عزرائيل) (١) ، ملك الموت ، فأتى الارض ، فاستعاذت بالله ان يأخذ منها شيئاً ، فقال ملك الموت : واني أعوذ بالله أن اعصي له امراً ، فقبض قبضة من زواياها الاربع : من أديمها الاعلى ، ومن سبختها وطينها ، واحمرها واسودها وابيضها ، وسهلها وحزنها ، فكذلك كان في ذرية آدم الطيب والخبيث ، والصالح والطالح ، والجميل والقبيح ، ولذلك اختلفت صورهم وألوانهم . قال الله تعالى « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » . ثم صعد بها ملك الموت الى الله تعالى ، فأمره ان يجعلها طيناً ويخمرها ، فعجنها بالماء المرّ

---

(١) محمد بن احمد بن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ص ٣٠ . وهو يضيف ان عزرائيل لما هبط الى الارض ركزها بحربة كانت معه فاضطربت فمد يده اليها فأقسمت عليه وقالت مثل ما قالت لاخويه فقال لها أمر الله خير من قسمك ...

والعذب والملح ، حتى جعلهاطيناً ، وخمّرها ، فلذلك اختلفت اخلاقهم.
ثم أمر (جبريل) ع س أن يأتيه بالقبضة البيضاء التي هي قلب الارض وبهاؤها ونورها ليخلق منها (محمد) (ص) فهبط (جبريل) في ملائكة الفردوس المقربين الكروبيين وملائكة الصفح الاعلى ، فقبض قبضة من موضع قبر النبي (ص) ، وهي يومئذٍ بيضاء نقية ، فعجنت بماء التسنيم ورعرعت حتى صارت كالدرّة البيضاء ، ثم غمست في أنهار الجنة كلها ، فلما اخرجت من الأنهار نظر الحق سبحانه وتعالى الى تلك الدرّة الطاهرة فانتفضت من خشية الله تعالى فقطر منها مائة ألف قطرة وأربعة وعشرون ألف قطرة ، فخلق الله سبحانه وتعالى من كل قطرة نبياً ، فكل الانبيـــاء (ص) من نور نبينا خلقوا ، ثم طيف بها في السموات والارض فعرفت الملائكة حينئذٍ محمداً (ص) قبل ان تعرف (آدم) ، ثم عجنها بطينة (آدم) ع س ، ثم تركها اربعين سنة حتى صارت طيناً لازباً ليناً ، ثم تركها أربعين سنة حتى صارت صلصالاً كالفخار ، وهو الطين اليابس الذي اذا ضربته يدك صلصل ، أي صوّت ، ليعلم ان امره بالصنع والقدرة ، لا بالطبع والحيلة ، فان الطين اليابس لا ينقاد ولا يتأتى تصويره ؛ ثم جعله جسداً وألقاه على طريق الملائكة التي تهبط الى السماء ، وتصعد منه ، اربعين سنة ، فذلك قوله تعالى : « هل أتى على الانسان حين مـــن الدهر » قال (ابن عباس) : الانسان آدم ، والحين اربعين سنة كان آدم جسداً ملقى على باب الجنة .

وثمة رواية جاءت في صحيح (الترمذي) وهي تنسب الى الرسول

(ص) بأن الله خلق آدم بيده من قبضة قبضها من جميع الأرض من السهل الاسود والابيض والاحمر ،فجاء الاولاد على ألوان الارض . ورواية اخرى تتضمن أن الرسول أجاب (عبد الله بن سلام) بقوله : خلق الله رأس آدم وجبهته من تراب الكعبة ، وصدره وظهره من بيت المقدس ، وفخذيه من أرض اليمن ، وساقيه من ارض مصر ، وقدميه من ارض الحجاز ، ويده اليمنى من ارض المشرق ويده اليسرى من ارض المغرب . ثم ألقاه على باب الجنة ، فكلما مرّ عليه ملأ من الملائكة عجبوا من حسن صورته ، وطول قامته ، ولم يكونوا قبل رأوا شيئاً يشبهه من الصور . فمرّ به ابليس فرآه فقال : لامر ما خلقت ، ثم ضربه بيده فاذا هو أجوف ، فدخل في فيه ، وخرج من دبره ، وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة هذا خلق أجوف لا يثبت ولا يتماسك ، ثم قال لهم أرأيتم ان فضّل هذا عليكم فما انتم فاعلون ؟ قالوا : نطيع ربنا . فقال ابليس في نفسه والله لئن فضّل هذا عليّ لأعصينه : ولئن فضلت عليه لأهلكته . فذلك قول الله تعالى : « واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » ...

وفي الخبر أن جسد (آدم) كان ملقى اربعين سنة يمطر عليه مطر الحزن ، ثم أمطر عليه مطر السرور سنة واحدة . فلذلك كثرت الهموم في اولاده ، وتصير عاقبتها الى الفرح والراحة .

ويمضي (العلماء) في تبيان خلق آدم بذكر صفة نفخ الروح فيه . ذلك ان الله لما أراد ان ينفخ في (آدم) ع س الروح أمرها أن تدخل في فيه ، فقالت الروح : مدخل بعيد القعر ، مظلم المدخل . فقال للروح ثانية

فقالت : مثل ذلك ، وكذلك ثالثة الى ان قال في الرابعة : ادخلي كرهاً .
واخرجي كرهاً . فلما أمرها الله تعالى بذلك دخلت في فيه . فأول ما نفخ
فيه الروح دخلت من دماغه فاستدارت فيه مقدار مائتي عام . ثم نزلت في
عينيه . والحكمة في ذلك ان الله تعالى اراد ان يرى (آدم) بدء خلقه واصله
حتى اذا تتابعت عليه الكرامات لا يدخله الزهو ولا العجب نفسه . ثم
نزلت في خياشيمه ، فعطس ، فحين فراغه من عطاسه نزلت الروح الى
فيه ولسانه . فلقّنه الله تعالى الى ان قال : الحمد لله رب العالمين ، فكان
ذلك أول ما جرى على لسانه ، فأجابه ربه عز وجل فقال : يرحمك ربك
يا (آدم) ، للرحمة خلقتك . قال الله تعالى : « سبقت رحمتي غضبي »
ثم نزلت الروح الى صدره وشراسيفه فأخذ يعالج القيام فلم يمكنه ذلك .
وذلك قوله : « وكان الانسان عجولا » فلما وصلت الروح الى جوفه
اشتهى الطعام . فهو أول حرص دخل جوف (آدم) ع س .. ثم انتشرت
الروح في جسده كله فصار لحماً ودماً وعظماً وعروقاً وعصباً ، ثم كساه
الله لباساً من ظفر وجعل يزداد كل يوم حسناً . فلما قارف الذنب بدّل
بهذا الجلد وبقيت منه بقية في أنامله ليتذكر بها أول حاله .. فلما أتم الله
خلق (آدم) ونفخ فيه الروح وصوّره وختمه ومنطقه وألبسه من لباس
الجنة وزيّنه بأنواع الزينة يخرج من ثناياه نور كشعاع الشمس ، ونور
نبينا (محمد) (ص) في جبينه كالقمر ليلة البدر وحمله على اكتاف الملائكة
وقال لهم : طوفوا به في سمواتي ليرى عجائبي وما فيها فيزداد يقيناً .
فقالت الملائكة : لبيك ربنا سمعنا وأطعنا فحملته الملائكة على اعناقها

وطافت به السموات مقدار مائة عام حتى وقف على كل شيء من آياتها وعجائبها . ثم خلق الله فرساً من المسك الاذفر يقال له الميمون ، له جناحان من الدرّ والجوهر . فركبه (آدم) ع س و (جبريل) أخذ بلجامه ، و (ميكائيل) عن يمينه ، و (اسرافيل) عن شماله ، فطافوا به السموات كلها وهو يقول : السلام عليكم يا ملائكة الله . فيقولون : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقال الله تعالى : يا (آدم) ، هذه تحيتك وتحية المؤمنين من ذريتك فيما بينهم الى يوم القيامة .

كيف خلق الله الانسانة الاولى ، (حواء) ؟ ولمَ ؟

قال (المفسرون) لما اسكن الله تعالى (آدم) الجنة كان يمشي فيها وحشياً ، لم يكن له من يجالسه ويؤانسه ؛ فألقى الله تعالى عليه النوم ، فنام ، فأخذ ضلعاً من اضلاعه من شقه الأيسر ، يقال له القصيرى ، فخلق منه (حواء) . من غير أن أحس (آدم) بذلك ؛ ولا وجد له ألماً ، ولو أولمُ (آدم) من ذلك لما عطف رجل على امرأة . ثم ألبسها (الله) من لباس الجنة ، وزيّنها بأنواع الزينة ، وأجلسها عند رأسه ، فلما هبّ (آدم) من نومه رآها قاعدة عند رأسه . فقالت الملائكة (لآدم) يمتحنون علمه : ما هذه يا (آدم) ؟ قال : امرأة . قالوا : وما اسمها ؟ قال : (حواء) . قالوا : صدقت ، ولمَ سميت (حواء) بذلك ؟ قال لأنها خلقت من شيء حي . قالوا : ولماذا خلقها الله ؟ قال : لتسكن إلي ، واسكن اليها ، وذلك قوله تعالى : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها » ليسكن اليها . قال (النبي) (ص) : خلقت المرأة من ضلع اعوج فان تقمها

تكسر . وان تتركها تستمتع بها على عوجها . وقيل : الحكمة في ان الرجال يزدادون على مرور الايام والاعوام حسناً وجمالاً لانهم خلقوا من التراب ، والطين يزداد كل يوم حسناً وجمالاً . والنساء يزددن على مرور الايام قبحاً لانهن خلقن من اللحم ، واللحم يزداد على مرور الايام فساداً .

وفي بعض الاخبار ان (آدم) ع س لما رأى (حواء) مد يده اليها . فقالت الملائكة ايه يا (آدم) . فقال: ولمَ ، وقد خلقها الله تعالى لي . فقالت الملائكة حتى تؤدي مهرها. قال : وما مهرها ؟ فقالت الملائكة أن تصلي على (محمد) (ص) ثلاث مرات. قال : ومن (محمد) ؟ قالوا : آخر الانبياء من ولدك ، ولولا (محمد) ما خلقت. — وفي رواية ان (آدم) صلى على رسول الله عشر صلوات وجعل ثوابها لزوجته مهراً(١) .

قال (ابو موسى الاشعري) (!) : ولما خلق الله فرج (آدم) قال : هذا أمانتي عندك فلا تضعها إلا في حقها(١) .وقد زوج الله (آدم) بـ (حواء) يوم الجمعة بعد الزوال ولهذا سنّ عقد الزواج في يوم الجمعة. وقيل : قد كان (آدم) أحسن من (حواء) ولكن كانت (حواء) ألطف وألين . ولما وصل (آدم) و (حواء) الى جنة الفردوس نظرا سريراً من الجواهر وله سبعمائة قاعدة من الياقوت الاحمر ، وعليه فراش من السندس الاخضر

---

(١) علاء الدين علي دده السكتواري: محاضرة الاوائل ومسايرة الاواخر — (القاهرة ١٣١١ هـ ، ص ١٣٣) .

(٢) بدائع الزهور ص ٣١ .

فقالت الملائكة : يا (آدم) انزل ههنا انت و(حواء) . فنزلا وجلسا على ذلك السرير . ثم أتوهما بقطفين من عنب الجنة ؛ فكان كل قطف مسيرة يوم وليلة . فأكلا وشبعا في رياض الجنة . فكان (آدم) اذا اراد المجامعة مع (حواء) دخل قبة من اللؤلؤ والزبرجد واسبلت عليها ستور من السندس والاستبرق . فكانت (حواء) اذا مشت في القصور كان خلفها من الحور ما لا يحصى ...

زلّ (آدم) و (حواء) ، فأوحى الله تعالى الى (جبريل) بأن يقبض على ناصية (آدم) و (حواء) ويخرجهما من الجنة ، فأخرجهما (جبريل) من الجنة و (آدم) عريان مكشوف الرأس فهبط الى الارض عند غروب الشمس من يوم الجمعة فأهبط على جبل من جبال الهند يقال له الرهوان . وأما (حواء) فقد ذهب عنها جمالها وابتليت بالحيض . وانقطع عنها ذكر النسب . فيقال : اولاد (آدم) ، ولا يقال : أولاد (حواء) لأنها أغرت (آدم) حيث ابتدأت بأكل الشجرة... واهبط (حواء) عند ساحل البحر بجدة ... وذكر الحكماء ان في الرجل شهوة واحدة ، وفي النساء تسعة ، ولكن غلب الحياء عليهن فلم يظهرن شيئاً من ذلك وفي الحديث : يتمنعن وهن الراغبات(١)...

●

ما هي بنية الانسان ؟

يروى عن (وهب بن منبه) انه قال : قرأت في « التوراة » ان الله

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧ .

عز وجل حين خلق (آدم) ركّب جسده من اربعة اشياء ، ثم جعلها وراثة في ولده ، تنمو في أجسادهم وينمون عليها الى يوم القيامة . رطب ، ويابس ، وسخن ، وبارد . قال : وذلك ان الله سبحانه وتعالى خلقه من تراب وماء ، وجعل فيه يُبْساً ورطوبة ، فيبوسة كل جسد من قِبَل التراب ، ورطوبته من قِبَل الماء ، وحرارته من قِبَل النفس ، وبرودته من قِبَل الروح . ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الاول اربعة انواع أُخر ، وهي ملاك الجسد وقوامه ، لا يقوم الجسد إلا بهنّ ، ولا تقوم واحدة منهن إلاّ بالاخرى: المِرّة السوداء، والمِرّة الصفراء ، والدم الرطب الحار ، والبلغم البارد. ثم اسكن بعض هذا الخلق في بعض ، فجعل مسكن اليبوسة في المِرّة السوداء، ومسكن الرطوبة في الدم ، ومسكن البرودة في البلغم ، ومسكن الحرارة في المِرة الصفراء ، فأيّما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الاربع وكانت كل واحدة فيه وفقاً لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدل بناؤه، فان زادت واحدة منهن عليهن وقهرتهن ومالت بهن ، دخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر ما زادت ؛ وان كانت ناقصة عنهن، مِلْن بها وعلونها وادخلن عليها السقم من نواحيهن لغلبتهن عليها حتى تضعف عن طاقتهن وتعجز عن مقاومتهن . قال (وهب) : جعل عقله في دماغه ، وشرهه في كليتيه، وغضبه في كبده ، وصرامته في قلبه ، ورغبته في رئتيه ، وضحكه في طحاله، وحزنه وفرحه في وجهه ، وجعل فيه ثلثمائة وستين مفصلاً .

ويمضي المنطق التمثيلي في مضمار تشبيه الانسان بالطبيعة، أو نظرية

الانسان العالم الصغير ، شوطاً بعيداً جداً .

يقال : انما لُقّب الانسان بالعالم الصغير لانهم مثّلوا رأسه بالفلك ، ووجهه بالشمس ، اذ لا قوام للعالم إلا بها ، كما لا قوام للجسد إلا بالروح ، وعقله بالقمر لانه يزيد وينقص ، ويذهب ويعود . ومثّلوا حواسه الخمس ببقية الكواكب السيّارة ، وآراءه بالنجوم الثابتة ، ودمعه بالمطر ، وصوته بالرعد ، وضحكه بالبرق ، وظهره بالبّر ، وبطنه بالبحر ، ولحمه بالارض ، وعظامه بالجبال ، وشعره بالنبات ، واعضاءه بالاقاليم ، وعروقه بالانهار ، ومغار عروقه بالعيون .

فاذا كانت بنية الانسان الجسدية تعكس عناصر الطبيعة ونظامها ، وكانت المعطيات التشريحية تطابق عناصر الجغرافية « الفلكية والطبيعية » ، فان مما يتمّ هذا التصور ان نجد في الانسان الجسد ما يشاكل ايام الاسبوع والشهور وايام السنة وفصولها .

أما ايام الجمعة ، أو الاسبوع ، فان بدن الناس سبعة اجزاء وهي اللحم والعظام ، والعروق ، والاعصاب ، والدم ، والجلد ، والشعر .

وأما الشهور فان لبدنه اثني عشر جزءاً مدبّرة : ستة منها باطنة ، وهي الدماغ ، والقلب ، والكبد ، والطحال ، والمعدة ، والكليتان ؛ وستة ظاهرة ، وهي العقل ، والحواس الخمس ، فهذه الاثنا عشر مقابلة لشهور السنة .

وأما الايام فان فيه ثلثمائة وستين عظماً ، منها ما هو لبنية الجسد مائتان وثمانية واربعون عظماً ، والانسان ينقسم الى اربعة أنواع : الرأس ،

واليدان ، والبدن، والرجلان . ففي الرأس اثنان واربعون عظماً ، وفي اليدين اثنان وثمانون عظماً ، وفي البدن اربعون عظماً، وفي الرجلين اربعة وثمانون عظماً ، والباقي سُمسمانية لسد الفروج التي تكون بين العظام ، وفيه ثلثمائة وستون عِرقاً .

وأما فصول السنة فان فيه اربعة اخلاط طبعُها طبع الفصول الاربعة ، فالدم كالربيع في حرارته ورطوبته، والمِرّة الصفراء كالصيف في حرّه ويبسه ، والمِرّة السوداء كالخريف في برده ويبسه، والبلغم كالشتاء في برده ورطوبته . وهذه الاخلاط من اول مزاج الاركان التي هي العناصر الاربعة وهي : النار والهواء والماء والارض(١).

والى جانب هذه النظرة التشريحية لجسد الانسان البنية نلقى نظرة جمالية تشبه بعض الاعضاء بالحروف العربية : كالحاجب بالنون ، والعين بالعين ، والصدغ بالواو ، والفم بالصاد والميم والثنايا بالسين، والطرة بالشين ، والقامة بالالف، وربما شبهوا العين بالصاد ايضاً . ومن ذلك تشبيه بعض الاعضاء بالفواكه : كالخدود بالتفاح ، والشفة بالعناب ، والثدي بالرمان ، أو تشبيهها بالمشمومات : كالوجنة بالورد، والعين بالنرجس ، والعذار بالآس ، أو تشبيهها بالمعادن : كالشفة بالعقيق ، والاسنان باللؤلو. وقد وقع تشبيه الشفة بالمرجان ايضاً . ومن التشابيه الجمالية المتفرقة : تشبيه الوجه بالبدر ، والفرق بالصبح ،والشعر بالليل ، ومرسله بالحيّة ، والصدغ بالعقرب، والوجنة بالماء والنار ، والريـق

---

(١) النويري : نهاية الارب ص ٧ – ٩ .

بالخمر ، والثدي والسرة بحق العاج . وقد خصّوا كل عضو بصفة : فقالوا : الحلاوة في العين ، والملاحة في الفم ، والجمال في الانف ، والظرف في اللسان . وقالوا : احسن ما تكون المرأة اذا طال منها الاطراف والعنق والشعر والقامة ؛ وقصر منها العين واللسان واليد والرجل ، والمراد بالقصر القصر المعنوي كعدم الطموح بالعين واخذ شيء فوق الحاجة والخروج من بيتها ؛ وابيضّ منها اللون والفرق والثغر وبياض العين ، والمراد بالثغر الاسنان نفسها . واما اللثة فقد مدحت العرب سوادها به واسوّد منهـا الهدب والعين والحاجب والشعر ، واحمرّ منها اللسان والشفة مع اللعس ، يعني يسير السواد ، والخد وتشريب البياض بيسيرها ؛ ودقّ منها الحاجب والانف والسنان والخصر ، وغلظ منها المعصم ... والساق واتسع منهـا الجبين والجبهة والعين والصدر ، وضاق منها المنخر والاذن والفم ....

ان الجلد شفّاف يحكي ما تحته ، ولذا يتلون جلد العاشق بالحمرة لخفقان قلبه استبشاراً بالاجتماع الموجب للفرح والمنتج لحركة الحرارة الى خارج لتوثر الحمرة وصفاء اللون بعارضه لشدة الشفقة والخوف من نحو واشٍ وسرعة تفريق واليأس الموجب لاخماد الحرارة أو جذبها الى داخل المنتج لصفرة اللون أو الموت فجأة .. أما حمرة المعشوق فهي إما حياء وإما خجل وكل منهما باعث للحرارة الى خارج ونتيجته احمرار الالوان وصفاؤها ، فأفضل الالوان الاحمر الصافي المشرق مطلقاً حتى في الثياب كالحلل ،والمشروب ، والمشموم كالورد والشقيق ، والحيوان كالخيل ، والمعادن كالذهب والياقوت الى غير ذلك. وأما وصفهم الموت بالاحمر

والدمع الناشيء عن شدة الحرقة بالحمرة فليس طعناً فيهما ، بل مدح ، لانهم ارادوا انهما من المطالب التي لا تنال إلا بالمشاق والصعوبة . ومـا معركة الصراع بين السمراوات والبيضاوات الا ظاهرة تخفي جدل الامزجة والاقاليم والثقافات : ذلك ان الناس ، بعضهم ، توسّعوا في هذا المبحث فخرجوا منه الى التفضيل بين السمر والبيض ، وخاضوا بسبب ذلك في كلام عريض . فمن قائل بتفضيل السمر مطلقاً ، وقوم البيض ، وآخرون فصّلوا فقالوا : ان كلاً يميل الى عكس لونه وهذا تحكم وحكم على الطبائع والامزجة بلا دليل . والصحيح : ان الميل إما بداعية الشهوة أو النفع ، ولا ضبط للاول لاختلافه باختلاف الاشخاص . وأما الثاني فالقول فيه إما بحسب معتدل المزاج : فالروميات حينئذ في نحو الحجاز أنفع ، كما ان الحبشيات في نحو الروم أجود ، لان حرارة الأبدان تختبيء في الاغوار زمن البرد ، وبالعكس ، وإما بحسب المرضى : فالسواد للمبرودين اجود. والبيض للمحرورين كذلك .

قال (الانطاكي) :

ارى السمر اشهى منظراً عند عارف	واشرف مطلوباً سما في المطالب
فقل للذي قد فضّل البيض جاهلاً	رويدك لا ترغب لغير مناسب
فكم بين قيراط من المسك قيمة	وقنطار ثلج بارد من مراتب

وقال في عكس ذلك :

بيضاء تجلو الهم عن ناظري	بعين حق لا بعين انتقاص
فقل لمن يرغب في اسمر	ما الفضة البيضاء مثل الرصاص(١)

(١) داود الانطاكي المعروف بالاكمه : تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق (القاهرة – الطبعة الثالثة ١٣٢٨ هـ ص ١٨٨ – ١٩١) .

ثم ان الانسان البنية ـ على النحو الملمع اليه ـ يحيا من نشأته الى وفاته باضطرابه بين احوال شتى ينتقل به العمر والسن الى ان يتناهى . قال تعالى : « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا اشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يُتوفى من قبل ولتبلغوا اجلاً مسمى ولعلكم تعقلون » . وفي الحديث الصحيح عن رسول الله (ص) انه قال : « ان احدكم يجمع في بطن امه اربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعثُ الله تعالى ملكاً فيؤمر بأربع : برزقه واجله وشقي أو سعيد » . وعنه (صلى الله عليه وسلم) انه قال : « وكّل الله بالرحم ملكاً ، فيقول : أيْ ربّ نطفة ! أيْ ربّ علقة ! أي ربّ مضغة ! فاذا اراد الله ان يقضي خلْقَها قال : أي ربّ ذكر أم أنثى ، أشقي ام سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الاجل ؟ فيُكتب كذلك في بطن أمه » . (خرّج ذلك البخاري في صحيحه في باب القدر) .

وقال (الثعلبي) في تفسير قوله تعالى : « لتَركَبُنّ طبقاً عن طبق » قالت (الحكماء) : يشتمل الانسان من كونه نطفة الى ان يهرم ويموت على سبعة وثلاثين حالاً ، وسبعة وثلاثين اسماً : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظماً ، ثم خلقاً آخر ، ثم جنيناً ، ثم وليداً ، ثم رضيعاً ، ثم فطيماً ، ثم يافعاً ، ثم ناشئاً ، ثم مترعرعاً ، ثم حزَوّرا ، ثم مراهقاً ، ثم محتلماً ، ثم بالغاً ، ثم أمرد ، ثم طارّاً ، ثم باقلاً ، ثم مسيطراً ، ثم مُضْرخاً ، ثم مُختَطّاً ، ثم صُمُلاً ، ثم مُلحيا ، ثم مستريماً ، ثم مصعداً ، ثم مجتمعاً(١) . ـ وهذه الاحوال ، وان لم تجاوز في الواقع السبعة

---

(١) النويري : نهاية الارب ص ١٠ – ١١ .

والعشرين تنم كلها عن مراتب في العمر ، عمر الذكور بخاصة ، وآخرها انقضاء الاجل المحتوم .

بين تكوّن النطفة والموت فترة تقصر أو تطول هي الحياة الدنيا ، وقد شغف الفكر التقليدي ، والادب الصوفي ، بالكلام عنها ذماً وقدحاً بالرغم من تعلق الانسان الحي بالحياة .

ان ابن آدم مشدود بين قطبين ، الدنيا والآخرة ، وهو في حياته يعاني صراعاً بين مخافتين ، مخافة ما مضى من عمره ، ومخافة ما بقي من هذا العمر : ومردّ هذا الخوف المزدوج ، أو الخوف الدائب الموصول ، ارتباط الحياة بما بعد الحياة ، أي بالموت وبالآخرة ، ولذا فان حب الدنيا والآخرة لا يستقيم في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في اناء واحد .

ويحفل « احياء علوم الدين » بتبيان هذا الجدل الاليم ، جدل الخوف في الحياة من الحياة . قال (صلى الله عليه وسلم) في بعض خطبه : « المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه . فليتزوّد العبد من نفسه لنفسه. ومن دنياه لآخرته ، ومن حياته لموته ، ومن شبابه لهرمه ، فان الدنيا خُلقت لكم ، وانتم خلقتم للآخرة ؛ والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتَب ، ولا بَعْد الدنيا من دار ، إلاّ الجنة أو النار » .

الدنيا سريعة الفناء ، قريبة الانقضاء ، تعد بالبقاء ، ثم تخلف في الوفاء . تنظر اليها فتراها ساكنة مستقرة ، وهي سائرة سيراً عنيفاً ، ومرتحلة ارتحالاً سريعاً . ولكن الناظر اليها قد لا يحس بحركتها ، فيطمئن

اليها ، وانما يحس عند انقضائها . ومثالها الظل فانه متحرك ساكن : متحرك في الحقيقة ، ساكن في الظاهر ، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة . انها حلم من حيث التغرير بخيالاتها ، ثم الافلاس منها بعد افلاتها . تشبه خيالات المنام ، واضغاث الاحلام .

الدنيا امرأة تتزين للخطاب ، حتى اذا نكحتهم ذبحتهم . روي أن (عيسى) ع س كوشف بالدنيا ، فرآها في صورة عجوز هتماء ، عليها من كل زينة . فقال لها : كم تزوجت ؟ قالت : لا احصيهم . قال : فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلتُ . فقال (عيسى) ع س : بؤساً لازواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ! كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ، ولا يكونون منك على حذر .

الدنيا مزينة الظواهر ، قبيحة السرائر ، وهي شبه عجوز متزينة ، تخدع الناس بظاهرها ، فاذا وقفوا على باطنها ، وكشفوا القناع عن وجهها ، تمثل لهم قبائحها ، فندموا على اتباعها ، وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها . مثلها مثل الحية ، لين ملمسها ، ويقتل سمها . انها ، كما قال (عيسى) ع س قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . والمهد هو الميل الاول على رأس القنطرة ، واللحد هو الميل الآخر ، وبينهما مسافة محدودة ... انها كالماء لا يستطيع الذي يمشي فيه ان لا تبتل قدماه . وهذا يبين جهالة قوم ظنوا انهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم ، وقلوبهم منها مطهّرة ، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة ، وذلك مكيدة من الشيطان ، بل لو اخرجوا مما هم فيه لكانوا من اعظم المتفجعين بفراقها . وان

طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله

شهوات الدنيا في القلب لذيذة ، كشهوات الاطعمة في المعدة . وكما ان الطعام كلما كان ألذ طعماً ، واكثر دسماً ، واظهر حلاوة ، كان رجيعه أقذر وأشدّ نتناً ، فكذلك كل شهوة في القلب هي اشهى وألذ واقوى ، فنتنها وكراهتها والتأذي بها عند الموت أشد . بل هي في الدنيا مشاهدة . فان من نهبت داره ، وأخذ اهله وماله وولده ، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقد ، بقدر لذته به ، وحبه له ، وحرصه عليه . فكل ماكان عند الوجود اشهى عنده وألذ ، فهو عند الفقد أدهى وأمرّ ، ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا .

ولعل في تمثيل الدنيا بالسفينة واختلاف احوال ركابها ما يذكرنا بالادب الرواقي الشعبي . يقول (الغزالي) :

اعلم ان اهل الدنيا مثلهم في غفلتهم ، مثل قوم ركبوا سفينة ، فانتهت بهم الى جزيرة ، فأمرهم الملاّح بالخروج الى قضاء الحاجة ، وحذّرهم المقام ، وخوّفهم مرور السفينة واستعجالها ، فتفرّقوا في نواحي الجزيرة ، فقضى بعضهم حاجته ، وبادر الى السفينة ، فصادف المكان خالياً فأخذ أوسع الاماكن ، وألينها ، وأوفقها لمراده . وبعضهم توقف في الجزيرة ، ينظر الى أنوارها ، وازهارها العجيبة ، وغياضها الملتفّة ، ونغمات طيورها الطيبة ، وألحانها الموزونة الغريبة ، وصار يلحظ من بريتها احجارها ، وجواهرها ، ومعادنها المختلفة الالوان والاشكال ، الحسنة المنظر ، العجيبة النقوش ، السالبة اعين الناظرين بحسن زبرجدها ،

وعجائب صورهـــا ، ثم تنبه لخطر فوات السفينة ، فرجع اليها ، فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً حرجاً ، فاستقر فيه . وبعضهم أكب على تلك الاصداف والاحجار ، وأعجـــبه حسنها ، ولم تسمح نفسه باهمالها ، فاستصحب منها جملة ، فلم يجد في السفينة إلاّ مكاناً ضيقاً ،وزاده ما حمله من الحجارة ضيقاً ، وصار ثقيلاً عليه ، ووبالاً ، فندم على أخذه ، ولم يقدر على رميه ، ولم يجد مكاناً لوضعه ، فحمله في السفينة على عنقه ، وهو متأسف على أخذه ، وليس ينفعه التأسف . وبعضهم تولج الغياض ، ونسي المركب ، وبعد في متخرجه ومتنزهه منه ، حتى لم يبلغه نـــداء الملاّح ، لاشتغاله بأكل تلك الثمار ، واستشمام تلك الانوار ، والتفرج بين تلك الاشجار ، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع ، وغير خال من السقطات والنكبات ، ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه ، وغصن يجرح بدنه ، وشوكة تدخل في رجله ، وصوت هائل يفزعه منه ، وعوسج يخرق ثيابه ، ويهتك عورته ، ويمنعه من الانصراف لو أراده . فلما بلغه نداء أهل السفينة ، انصرف مثقلاً بما معه ولم يجد في المركب موضعاً ، فبقي في الشط حتى مات جوعاً . وبعضهم لم يبلغه النداء ، وسارت السفينة. فمنهم من افترسته السباع ، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك ، ومنهم من مات في الاوحال ، ومنهم من نهشته الحيات ، فتفرقوا كالجيف المنتنة . وأما من وصل الى المركب بثقل ما أخذه من الازهار الاحجار ، فقد استرقته ، وشغله الحزن بحفظها ، والخوف من فوتها ، وقد ضيقت عليه مكانه ، فلم يلبث ان ذبلت تلك الازهار ، وكمدت تلك الالوان

والاحجار ، فظهر نتن رائحتها ، فصارت مع كونها مضيقة عليه موذية له بنتنها ووحشتها ، فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها في البحر هرباً منها ، وقد أثر فيه ما أكل منها ، فلم ينته الى الوطن إلاّ بعد أن ظهرت عليه الاسقام بتلك الروائح فبلغ سقيماً مدبراً . ومن رجع قريباً ، ما فاته إلا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة ، ولكن لما وصل الى الوطن استراح . ومن رجع أولاً وجد المكان الاوسع ، ووصل الى الوطن سالماً . فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ، ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم . وما أقبح من يزعم انه يصير عاقل ان تغره احجار الارض ، وهي الذهب والفضة ، وهشيم النبت ، وهي زينة الدنيا ، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت ، بل يصير كَلاً ووبالاً عليه ، وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه ، وهذه حال الخلق كلهم ، إلاّ من عصمهم الله عز وجل(١) .

قال (صلى الله عليه وسلم) : « حبّب إليّ من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وقرة عيني في الصلاة » . فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا ، ولكن (الغزالي) يميز الدنيا الممدوحة عن الدنيا المذمومة .

فبهذا الاعتبار يفيد الانسان في الدنيا الممدوحة أولاً ما يصحبه الى الآخرة وتبقى معه ثمرته بعد الموت وهو شيئان : العلم والعمل ، العلم الالهي ، والعبادة الخالصة لوجه الله . وقد يأنس العالم بالعلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت ارضه وسمائه والعلم بشريعة

---

(١) الغزالي : احياء علوم الدين – ج ٩ ص ١٨٢ وما بعد .

تبيه ، فيصير ذلك ألذ الاشياء عنده ، فيهجر النوم والمطعم والمنكح في لذته ، لانه اشهى عنده من جميع ذلك . وكذلك العابد فقد يأنس بعبادته فيستلذها ، بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه ، حتى قال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل .

ويقابل هذا السلوك الممدوح في الدنيا سلوك مذموم لا ثمرة له في الآخرة أصلاً : كالتلذذ بالمعاصي كلها ، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات ، والضروريات الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات : كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والانعام والحرث ، والغلمان ، والجواري ، والخيول ، والمواشي ، والقصور ، والدور ، ورفيع الثياب ، ولذائذ الاطعمة .

وبين السلوكين : الممدوح والمذموم ، سلوك ثالث متوسط بين الطرفين ، وهو يشمل كل حظ في العاجل معين على اعمال الآخرة : كقدر القوت من الطعام ، والقميص الواحد الخشن ، وكل ما لا بد منه ليتأتى للانسان البقاء والصحة التي بها يتوصل الى العلم والعمل .

ولا يبقى مع العبد عند الموت إلاّ ثلاث صفات : صفاء القلب . اعني طهارته عن الادناس ، وأنسه بذكر الله تعالى ، وحبه لله تعالى . وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكفّ عن شهوات الدنيا . والانس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى ، والمواظبة عليه . والحب لا يحصل إلاّ بالمعرفة ، ولا تحصل معرفة الله إلاّ بدوام الفكر . وهذه الصفات الثلاث المنجيات المسعدات بعد الموت . ذلك ان الموت ليس عدماً ، انما هو فراق

لمحابّ الدنيا ، وقدوم على الله تعالى . وان الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم الى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة ، ويسمى ذلك حراماً ، والى مـــا يحول بينه وبين الدرجات العلا ، ويعرضه لطول الحساب ، ويسمى ذلك حلالاً . والبصير يعلم ان طول الموقف في عرصات القيامة لاجل المحاسبة ايضاً عذاب . فمن نوقش الحساب عذب . وكل من تنعم في الدنيا ولو بسماع صوت من طائر ، أو بالنظر الى حفزة ، أو شربة ماء بارد ، فانه ينقص من حظه في الآخرة أضعافه .

يتضح من ذلك ان الدنيا ، قليلها وكثيرها ، حرامها وحلالهـــا ، ملعونة إلا ما أعان على تقوى الله ، فان ذلك القدر ليس من الدنيا ، وكل من كانت معرفته اقوى واتقن ، كان حذره من نعيم الدنيا أشد . على ان ذلك لا يمنع أن حقيقة الدنيا هي اعيان موجودة ، وان للانسان فيها حظاً ، وفي اصلاحها شغلاً . فالاعيان الموجودة في الدنيا هي الارض وما عليها فالأرض فراش للآدميين ومهاد ، ومسكن ومستقر ، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح . ويجمع ما على الارض ثلاثة اقسام : المعادن والنبات والحيوان . أما النبات فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي . وأما المعادن فيطلبها للآلات والاواني ، كالنحاس والرصاص ، وللنقد كالذهب والفضة ، ولغير ذلك من المقاصد . وأما الحيوان فينقسم الى الانسان ، والبهائم . أما البهائم فيطلب منها لحومها للمآكل ، وظهورها للمراكب والزينة ؛ واما الانسان فقد يطلب الآدمي ان يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان ، أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان ، ويطلب

قلوب الناس ليملكها ، بأن يغرس فيها التعظيم والاكرام ، وهو الذي يعبر عنه بالجاه ، اذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين .

ولهذه الاعيان التي يعبر عنها بالدنيا علاقتان مع الانسان : علاقة مع القلب ، وهو حبه لها ، وحظه منها ، وانصراف همه اليها حتى يصير قلبه كالعبد ، أو المحب المستهتر بالدنيا ، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا ، كالكبر ، والغل ، والحسد ، والرياء ، والسمعة ، وسوء الظن ، والمداهنة ، وحب الثناء ، وحب التكاثر والتفاخر ، وهذه هي الدنيا الباطنة . وأما الظاهرة الاخرى فهي الاعيان التي ذكرناها ، باعتبار العلاقة الثانية مع البدن ، وهو اشتغاله باصلاح هذه الاعيان ، لتصلح حظوظه وحظوظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها . والخلق انما نسوا أنفسهم ، ومآبهم ، ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين ، علاقة القلب بالحب ، وعلاقة البدن بالشغل . ولو عرف الانسان نفسه ، وعرف ربه ، وعرف حكمة الدنيا بأسرها ، علم ان هذه الاعيان التي سميناها دنيا ، لم تخلق إلاّ لعلف الدابة التي يسير بها الى الله تعالى ، واعني بالدابة البدن ، فانه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن ، كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال(١) .

أما أولياء الله فان الله قد عرّفهم غوائل الدنيا ، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها ، حتى نظروا في شواهدها وآياتها ، ووزنوا بحسناتها سيآتها . فعلموا انه يزيد منكرها على معروفها ، ولا يفي مرجوها بمخوفها ، ولا

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ١٩٥ .

يسلم طلوعها من كسوفها ، ولكنها في صورة امرأة مليحة ، تستميل الناس بجمالها،ولها اسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها . ثم هي فرّارة عن طلابها ، شحيحة بإقبالها ، واذا اقبلت لم يؤمن شرها ووبالها . إن احسنت ساعة اساءت سنة . وان اساءت مرة جعلتها سنة . فدوائر اقبالها على التقارب دائرة ، وتجارة بنيها خاسرة بائرة ، وآفاتها على التوالي لصدور طلاّبها راشقة ، ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة .. تمنّي اصحابها سروراً ، وتعدهم غروراً ، حتّى يأملون كثيراً ، ويبنون قصوراً، فتصبح قصورهم قبوراً ، وجمعهم بوراً ، وسعيهم هباء منثوراً ، ودعاؤهم ثبوراً ، هذه صفتها ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

الدنيا عدوة لله ، وعدوة لأولياء الله ، وعدوة لاعداء الله . أمّـــا عداوتها لله فانها قطعت الطريق على عباد الله ، ولذلك لم ينظر الله اليها منذ خلقها . وأما عداوتها لاولياء الله فانها تزينت لهم بزينتها ، وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتّى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها . وأما عداوتها لاعداء الله فانها استدرجتهم بمكرها وكيدها ، فاقتنصتهم بشبكتها حتّى وثقوا بها ، وعوّلوا عليها ، فخزلتهم احوج ما كانوا اليها، فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الاكباد ، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد ، فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكايدها يستغيثون ولا يغاثون(١) .

وليس بمستغرب ، وهذه هي النظرة « التقليدية » الى الدنيا ، أن يحفل الادب الصوفي بمداد البحر في نقد الدنيا وذمها والدعوة الى الزهد

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ١٥٤ .

فيها . من ذلك اعتبار ان رسول الله (ص) رأس الزاهدين ، وانه كان يأتي عليه اربعون ليلة ما يُوقَد في بيته نار ولا مصباح ، فقيل (لعائشة) كيف كنتم تعيشون قالت : بأسودين : التمر والماء . وكانت تقول : قبض رسول الله (ص) في كساء ملبّد ، أي مرقّع ، وازار عرني غليظ . وكان (سفيان بن عيينة) يقول : الزهد ثلاثة احرف . فمعنى الزاي ان تترك زينة الدنيا ؛ ومعنى الهاء ان تترك هوى نفسك . ومعنى الدال ان تترك الدنيا بأسرها . فان فعلت ذلك فأنت زاهد . وكان (يوسف بن اسباط) يقول : طلبت من الله تعالى ثلاث خصال : أن اموت ليس في ملكي درهم ، ولا علي درهم ، ولا على عظمي لحم . وكان (الحسن البصري) اذا لبس القميص لا ينزعه حتى يخلق . وقيل له مرة : ألا تغسل قميصك ؟ فقال : الامر أعجل من ذلك . وكان (يحيى بن معاذ) يقول : الدنيا عروس ، ومحبها ماشطتها ، والزاهد فيها يمزق شعرها ويسوّد وجهها ويقطع ثيابها ويكسر حليها(١) .

ومن اخلاق الاولياء قلة الضحك وعدم الفرح بشيء من الدنيا ، بل كانوا ينقبضون بكل شيء حصل لهم من ملابسها ومراكبها ومناكحها ومناصبها ، عكس ما عليه أبناء الدنيا ، كل ذلك خوفاً ان يكون من جملة ما عجل لهم من نعيم الآخرة ، وكيف يفرح بشيء من هو في السجن محبوس عن لقاء الله عز وجل ، فكما يحزن المحبوس عن داره وعياله ويتكدر ، كذلك يحزن اولياء الله تعالى على طول عمرهم وسجنهم في هذه

---

(١) عبد الوهاب الشعراوي : تنبيه المغترين ص ١٢٥ .

الدار عن لقاء ربهم . كان (الحسن البصري) يقول : ما رأيت يقيناً اشبه بالكذب من يقين الناس بالموت ، مع غفلتهم عنه . وقد قيل مرة (لسهل التستري) : أتحب يا (سهل) ان تموت غداً ؟ فقال : لا ولكن الساعة . وقد درج جمهور السلف الصالح على النظر الى الدنيا بعين الاعتبار ، لا بعين المحبة . وكان (يحيى بن معاذ) يقول : ليكن نظرك الى الدنيا اعتباراً ، وسعيك لها اضطراراً ، ورفضك لها اختياراً . وكان (حاتم الاصم) يقول : من خرجت من داره جنازة ولم يعتبر لها لم ينفعه علم ولا حكمة ولا موعظة(١) . ومما يتصف به أولياء الله زيادة الخوف من الله تعالى كلما أحسن إليهم وقربهم الى حضرته ، كما عليه أهل مجالسة الملوك ، ولله المثل الاعلى . وقد كان (عمر بن عبد العزيز) اذا جلس مجلس الرجال من امرأته ارتعد من الهيبة ، وانتفض كالطير المذبوح . ثم لما ولي الخلافة جمع ابنته وجواريه وقال : جاءني أمر شغلني عنكن فما اتفرغ ، لكن حتى افرغ من الحساب يوم القيامة ، فمن شاء ان يقيم عندي ولا يطالبني فليفعل ، ومن شاء الفراق فليفارق . ثم ترك القرب من عياله حتى مات(٢) .

وقد ذكر في كتاب « مكاشفة القلوب ، المقرب الى حضرة علام الغيوب » المنسوب (للغزالي) ان اكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ، ودعوتهم الى الآخرة ، بل هو مقصود الانبياء ، ولم يبعثوا إلا لذلك . وفي الحديث : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . و « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها » . و « حب الدنيا رأس

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٤ .

كل خطيئة » و « من اصبح والدنيا اكبر همه فليس من الله في شيء » و « احذروا الدنيا فانها اسحر من هاروت وماروت » . ومن أقـــوال (الحكماء) : الايام سهام ، والناس اغراض ، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ، ويخترمك بلياليه وايامه ، حتى يستغرق جميع اجزائك ، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الايام بك »(١) ... وقال بعض العارفين : اذا بدهك أمران لا تدري في أيهما الصواب فانظر ايهما اقرب الى هـــواك فخالفه . وقال (ابراهيم بن ادهم) الزهد ثلاث مقامات : فزهد فرض وهو الكف عن المحارم ، وزهد سلامة وهو ترك الشبهات . وزهد فضل وهو الزهد في الحلال(٢) .

قال (احمد بن حنبل) : الزهد على ثلاثة اوجه : الاول ترك الحرام وهو زهد العوام . والثاني : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص . والثالث ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى ، وهو زهد العارفين . وقال (ابو علي الدقاق) : الزهد أن تترك الدنيا كما هي ، لا تقول ابني رباطاً أو اعمّر مسجداً . وقال : قيل لبعضهم لم زهدت في الدنيا ؟ قال لما زهدت في اكثرها أنفت من الرغبة في أقلّها . وقال (حاتم الاصم) الزاهد يذيب كيسه قبل نفسه . والمتزهد يذيب نفسه قبل كيسه . وقال (سفيان الثوري) : الزهد في الدنيا قصر الامل ، ليس بأكل الغليظ ، ولا بلبس العباء ... وقال (يحيى بن معاذ) : الزهد يورث السخاء بالملك ،

---

(١) الغزالي : مكاشفة القلوب ص ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٢ .

والحب يورث السخاء بالروح . وقال (ابن الجلاء) : الزهد هو النظر الى الدنيا بعين الزوال لتصغر في عينك فيسهل عليك الاعراض عنها .

هذه النظرة بعين الزوال ، وهذا السخاء بالروح الناجم عن الحب . يلتقيان في النظرة الغنية جداً بالتفاصيل ، نظرة الفكر التقليدي الى مشكلة الموت وما يليه . وقد وقف (جلال الدين السيوطي) كتابين لمعالجة هذه النظرة السخية بالحب . حب الآخرة ، تنطلق من عين الزوال ، زوال الدنيا ، وهما كتاب « بشرى الكئيب بلقاء الحبيب » وكتاب : « شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور » . وقد أبان في الكتاب الاول البشرى بما يلقاه المؤمن عند موته وفي قبره من التكريم والترحيب . وعنده أن الموت خير من الحياة . وذلك بالاستناد الى حديث يقول : « الموت تحفة المؤمن » أو « ريحانة المؤمن » أو « غنيمة المؤمن » وحديث آخر يقول : « يكره ابن آدم الموت والموت خير له من الفتنة » وحديث : « الدنيا سجن المؤمن وسنته فاذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة » . واخرج (ابن المبارك) عن (عبد الله بن عمر) قال : الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن . وانما مثل المؤمن حين تخرج نفسه كمثل رجل كان في سجن فأخرج منه فجعل يتقلب في الارض ويتفسح فيها . واخرج (ابن المبارك) عن (مالك بن مغول) قال : بلغني ان اول سرور يدخل على المؤمن الموت

---

(١) عبد الكريم بن هوازن القشيري : الرسالة القشيرية في علم التصوف ص ٥٦ — ٥٧ .

لما يرى من كرامة الله تعالى وثوابه . وقال (ابن مسعود) : ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله . وقال (ابو الدرداء) : ما اهدى الي اخ هدية احب إليّ من السلام ؛ ولا بلغني عنه خبر أحب من موته . وقال (ابن الصامت) : اتمنى لحبيبي ان يعجل موته . وقال (ابن الاسود) : الموت خير يوصل الحبيب الى الحبيب . وقال (مسروق) : ما من شيء خير للمؤمن من لحد . فمن لحد فقد استراح من هموم الدنيا ، وامين من عذاب الله .

ان الموت انتقال من دار ضيقة الى دار واسعة . قال (ابن القاسم) : للنفس اربعة أدوار كل دار اعظم من التي قبلها . الاولى بطن الام وذلك محل الضيق والحصر والغم والظلمات . والثانية هي الدار التي انشأتها وألفتها واكتسبت فيها الشر والخير . والثالثة هي دار البرزخ وهي اوسع من هذه الدار وأعظم ونسبة هذه الدار اليها كنسبة البطن الى هذه . والرابعة هي دار القرار الجنة أو النار . وفي الحديث « ان العبد المؤمن اذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة نزل اليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم أكفان من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر . ثم يجيء ملك الموت يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس المطمئنة اخرجي الى مغفرة من الله ورضوان. فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء . وان كنتم ترون غير ذلك . فيخرجونها . فاذا اخرجوها لم يدعوها في يده طرفة عين. فيجعلونها في تلك الاكفان والحنوط . ويخرج منها كأطيب نفحة مسك على وجه الارض فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلاّ قالوا : ما هذه الروح

الطيّبة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا . حتى ينتهوا به الى السماء التي تليها حتى ينتهى به الى السماء السابعة . فيقول الله تعالى : اكتبوا كتابه في عليين ، وأعيدوه الى الارض . فيعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : الله ربي ، والاسلام ديني . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث اليكم وفيكم ؟ فيقول : هو رسول الله . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله وآمنت به وصدّقته . فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي فافرشوا له من الجنة وألبسوه من الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له في قبره مدّ بصره ويأتيه رجل حسن الثياب ، طيب الرائحة فيقول له : ابشر بالذي يسرك . هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول له من انت ، فوجهك يجيء بالخير ؟ فيقول : انا عملك الصالح . فيقول : يا رب أقم الساعة ، رب اقم الساعة ، حتى ارجع الى أهلي ومالي .

ثم تجتمع روح الميت بالارواح التي تهبّ لملاقاتها . قال (ثابت البناني) : بلغنا ان الميت اذا مات احتوشته اهله واقاربه الذين تقدموه من الموتى فانهم أفرح به ، وهو أفرح بهم ، من المسافر اذا قدم الى أهله . ومن شأن الموتى انهم يتزاورون في قبورهم . وقد روي عن (جابر) ان رسول الله (ص) قال : احسنوا أكفان موتاكم فانهم يتباهون ويتزاورون في قبورهم . واخرج (ابن ابي الدنيا) عن (سعيد) قال : ان الميت اذا وضع في لحده أتاه أهله وولده فسألوه عمن خلف بعده كيف فلان ، وما فعل فلان ؟ وعن (ابن عمر) ان رسول الله (ص) قال : كل مولود يولد في الاسلام فهو

في الجنة شبعان ريان يقول : يا رب أورد عليّ أبوي .

اذا كان الموت بشرى الكئيب بلقاء الحبيب ، فهل يصح ان يتمنى المؤمن الموت ؟ ان الامام (السيوطي) يفصّل الاجابة تفصيلاً ويرى ان من المنهي عنه تمني الموت والدعاء به لضر ينزل بالمرء في المال والجسد . ويستند في ذلك الى حديث نبوي يقول : « لا يتمنين احدكم الموت لضر نزل به فان كان لا بد متمنياً فليقل اللهم احيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني اذا كانت الوفاة خيراً لي » . وقد بدأ الموت لما أهبط (آدم) الى الارض فقال له ربه : ابن للخراب ، ولد للفناء .

ويبين (السيوطي) في كتابه : « شرح الصدور » فضل الحياة في طاعة الله وقد قال (الرسول) : خياركم اطولكم اعماراً واحسنكم اعمالاً . ومن هنا جاز تمني الحياة الطويلة ، بل تمني المؤمن الرجعة الى الحياة الدنيا « ليكبّر تكبيرة أو يهلّل تهليلة أو يسبّح تسبيحة » . ولا يجوز تمني الموت والدعاء به إلا لخوف الفتنة في الدين . قال (الرسول) (ص) : لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني كنت مكانه . ولذا وجب ذكر الموت دوماً ، والاستعداد له . وقد جاء عن (شدّاد ابن أوس) ان (الرسول) قال : الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله . ولما شكت امرأة الى (عائشة) القسوة قالت لها : اكثري ذكر الموت يرقّ قلبك !

ان الميت يعرف من يغسله ويجهزه ويسمع ما يقال فيه وما يقال له والجنازة مارّة ، والسماء والارض تبكيان على المؤمن اذا مات . ولذا

يجب عند بلوغ الجنازة القبر أن لا يجلس المرء بل يقوم على شفير القبر ويقول : بسم الله ، وعلى ملّة رسول الله (ص) . اللهم عبدك نزل بك وأنت خير منزول به ، خلف الدنيا خلف ظهره فاجعل له ما قدم عليه خيراً مما خلف ، فانك قلت « وما عند الله خير للابرار » . ثم ان القبر ذاته يتكلم كل يوم قائلاً : انا بيت الغربة ، وانا بيت الوحدة ، وانا بيت التراب ، وانا بيت الدود . فاذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحباً وأهلاً . أما ان كنت لأحب من يمشي على ظهري الي فاذ وليتك اليوم وصرت إليّ فسترى صنعي بك فيتّسع له مدّ بصره ويفتح له باب الجنة ، واذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر : لا مرحباً ولا أهلاً . أما ان كنت لأبغض من يمشي على ظهري إلي فاذ وليتك اليوم وصرتَ إلي فسترى صنعي بك . قال فيلتئم عليه حتى يلتقي وتختلف اضلاعه . ويروى عن (ابي سعيد) ان (الرسول) أومأ الى اصابعه وادخل بعضها في جوف بعض ، تمثيلاً لتضييق القبر جنبيه على الكافر أو الفاجر وان (الرسول) (ص) قال : ويقيض الله له سبعين تنيناً لو أن واحداً منها نفخ في الارض ما انبتت شيئاً ما بقيت الدنيا فتنهشه وتخدشه حتى يفضى به الى الحساب . قال (رسول الله) : « انما القبر روضة من رياض الجنة : أو حفرة من حفر النار »(١ ...

وقد أطنب الكاتبون والمفكرون في ذكر الموت عظة وتنبيهاً من رقاد الغفلة . روى (انس بن مالك) ان (رسول الله) قال : « ما من بيت إلا

(١) السيوطي : شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور ص ٤٦ .

مَولَكُ الموت يقف على بابه كل يوم خمس مرات : فاذا وجد الانسان قد نفد أكله . وانقطع أجله ، ألقى عليه غم الموت ، فغشيته كرباته ، وغمرته سكراته . فمن أهل بيته الناشرة شعرها ، والضاربة وجهها ، والباكية لشجوها ، والصارخة بويلها . فيقول مَلَكُ الموت : ويلكم ممّ الفزع ، وفيم الجزع ؟ فما أذهبت لواحد منكم رزقاً ، ولا قرّبت له اجلا ، ولا اتيته حتى أُمرت ، ولا قبضت روحه حتى استأمرت . وان لي فيكم عودة ثم عودة حتى لا ابقي منكم احداً . قال النبي (ص) فوالذي نفس (محمد) بيده ، لو يرون مكانه أو يسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم(١) ...

ومما قيل : ان للموت ألماً لا يعلمه إلاّ الذي يعالجه ويذوقه ، وهو أشد من الضرب بالسيوف ، واعظم ألماً من النشر بالمناشير ، والقرض بالمقاريض ، لان قطع البدن بالسيف انما يؤلم مع بقاء قوة في البدن ، فلذلك يستغيث المضروب ويصيح ، بخلاف الموت ، فان الميت ينقطع صوته ، وتضعف قوته عن الصياح لشدة الألم والكرب على القلب ، فان الموت قد هدّ كل جزء من اجزاء البدن ، وأضعف كل جارحة ، فلم يترك له قوة للاستغاثة . أما العقل فقد غشيته وسوسة ، واما اللسان فقد أبكمه ، واما الاطراف فقد أضعفها ، ويودّ لو قدر على الاستراحة بالانين والصياح ، ولكنه ما يقدر على ذلك . فان بقيت له قوة سمع له عند نزع الروح وجذبها خوار وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه وأربدّ حتى ترتفع

---

(١) شعيب الحريفيش : الروض الفائق في المواعظ والرقائق ص ٢٦١ .

الحدقتان الى أعلى جفونه ، وترتفع الانثيان الى اعالي موضعهما ، وتصفر أنامله ، ويموت كل عضو منه على حدته . فأول ما يموت قدماه ، ثم ساقاه ، ثم فخذاه ، ولكل عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى تبلغ روحه الى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، وتحيط به الحسرة والندامة . وروي أن (النبي) (ص) دخل على مريض فقال : اني لاعلم ما يلقى ، ليس فيه عرق إلا وهو يتألم بالموت على حدته . وروي أنه (ص) لما احتضر كان عنده قدح من ماء يدخل يده فيه ويمسح وجهه ويقول : لا اله إلاّ الله ، ان للموت لسكرات ... وروي ان (موسى) ع س حين مات وصارت روحه الى الله عز وجل قال الله عز وجل : يا (موسى) كيف وجدت الموت؟ قال وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى وهو حي ، فلا هو يموت فيستريح ، ولا ينجو فيطير . وفي رواية : وجدت نفسي كشاة تسلخ وهي حية(١) ...

قال (اشعث بن اسلم) : سأل (ابراهيم) ع س ملك الموت ، واسمه عزرائيل ، وله عينان ، عين في وجهه ، وعين في قفاه ، فقال : يا مَلَك الموت ، ما تصنع اذا كان نفس بالمشرق ، ونفس بالمغرب ، ووقع الوباء بأرض ، والتقى الزحفان ، كيف تصنع ؟ قال : أدعو الارواح باذن الله فتكون بين اصبعي هاتين . وقال (سليمان بن داوود) ع س لملَك الموت : مالي لا أراك تعدل بين الناس ، تأخذ هذا وتدع هذا ؟ قال : ما أنا بذلك بأعلم منك ، انما هي صحف او كتب تلقى إليّ فيها أسماء .

(١) المصدر السابق ص ٢٦٢ .

قال (عطاء بن يسار) : اذا كان ليلة النصف من شعبان دفع الى مَلَك الموت صحيفة ، فيقال : اقبض في هذه السنة مَنْ في هذه الصحيفة . قال : فان العبد ليغرس الغراس ، وينكح الازواج ، ويبني البنيان ، وإن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري(١) .

بالموت قصم الله رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الاكاسرة ، وقصّر به آمال القياصرة ، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتّى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة ، فنقلوا من القصور الى القبور ، ومن ضياء المهود الى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجواري والغلمان ، الى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التنعم بالطعام والشراب الى التمرغ في التّراب ، ومن أنس العشرة الى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير الى المصرع الوبيل ... وان للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبة قد اخطأوا فيها. فظن بعضهم ان الموت هو العدم ، وانه لا حشر ولا نشر ، ولا عاقبة للخير وللشر ، وان موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات ، وهذا رأي الملحدين ، وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر . وظن قوم انه ينعدم بالموت ، ولا يتألم بعقاب ، ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر ، الى ان يعاد في وقت الحشر . وقال آخرون : ان الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وانما المثاب والمعاقب هي الارواح دون الاجساد ، وان الاجساد لا تبعث ولا تحشر اصلاً . وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق . بل الذي تشهد له طرق الاعتبار ، وتنطق به الآيات والاخبار ، ان الموت معناه تغير حال

---

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ج ١٥ ص ١٣٧ .

فقط ، وان الروح باقية بعد مفارقة الجسد ، إما معذبة وإما منعمة . وانما تعطل بالموت أعضاء الجسد الى ان تعاد اليه الروح ، ولا يبعد ان تعاد اليه في القبر ، ولا يبعد أن تؤخر الى يوم البعث(١) . على انه بالموت ينكشف ما لم يكن مكشوفاً للانسان في الحياة ، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً في النوم . والناس نيام ، فاذا ماتوا انتبهوا . ولما سئل (عبد الله بن عمرو بن العاص) عن أرواح المؤمنين اذا ما ماتوا أين هي قال : في حواصل طير بيض في ظل العرش ،وأرواح الكافرين في الارض السابعة (٢) .

في القبر عذاب وسؤال منكر ونكير . ويلي ذلك نفخ الصور والبعث يوم النشور ، والعرض على الجبّار ، والسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة المقادير . ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالاسعاد وإما بالاشقاء . وقبيل ذلك توجد الشفاعة والحوض . وميزات يوم القيامة وأهواله وطوله حيث يقف الخلائق شاخصة ابصارهم ، منفطرة قلوبهم ؛ لا يكلمون ولا ينظر في امورهم ، يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ، ولا يشربون فيه شربة ، ولا يجدون فيه روح نسيم ، لا يخفف فيه إلا للمطيع لله ، وهذا المطيع آيل الى الجنة ، وللجنة أبواب كثيرة بحسب اصول الطاعات ، كما أن ابواب النار بحسب اصول المعاصي (٣) . وفي الجنة غرف وقصور ، وخيام من

---

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ج ١٥ ص ١٨١ .
(٢) المصدر السابق ج ١٥ ص ١٨٨ .
(٣) المصدر السابق ج ١٦ ص ٧٦ .

اللؤلؤ الرطب الابيض فيها بسط من العبقري الاخضر . وأرائك منصوبة على اطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان ، كأنهن الياقوت والمرجان . لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، يمشين في درجات الجنان . اذا اختالت احداهن في مشيها حمل اعطافها سبعون ألفاً من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الابيض ما تتحير فيه الابصار ، مكللات بالتيجان المرصّعة باللؤلؤ والمرجان ، شكلات . غنجات . عطرات . آمنات من الهرم والبؤس . مقصورات في الخيام . في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين (١) ... انهن « ازواج مطهرة » من الحيض ، والغائط ، والبول . والبصاق ، والنخامة . والمني ، والولد . وقال (أبو امامة الباهلي) قال (رسول الله) (ص) : « ما من عبد يدخل الجنة إلاّ وتجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن ، وليس بمزمار الشيطان ، ولكن بتحميد الله وتقديسه »(٢) . سأل (لقيط بن عامر) الرسول قائلاً : يا رسول الله ، ولنا في الجنة ازواج أو منهن صالحات ؟ قال : « الصالحات للصالحين ، تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ، ويلذذنكم غير ان لا توالد فيها »(٣) . وتبقى اللذة الكبرى التي ينعم بها أهل الجنة . لذة النظر الى وجه الله تعالى

---

(١) المصدر السابق ج ١٦ ص ٧٤ .

(٢) المصدر السابق ج ١٦ ص ٨٥ — ٨٧ .

(٣) النويري : نهاية الارب ج ١٤ ص ٢٩٧ .

إذ يُرفع الحجاب » وينظرون الى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئاً أحب اليهم من النظر اليه » ، وكل نعيم عند هذه النعمة ينسى ، وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة الى لذة اللقاء . فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى واما سائر نعيم الجنة فانه يشارك في البهيمة المسرحة في المرعى(١) .

على هذا النحو تغلق دارة الانسان : خلقه الله في أحسن تقويم ، ورعاه في الجنة ، ومن الجنة خرج للحياة الدنيا يلد للموت ، ويبني للخراب ، فاذا عمل صالحاً اجتاز درب العودة الى الجنة وفاز بنعمها ، وبلغ النعمة الكبرى ، نعمة لقاء المولى ، وما سوى ذلك من نعيم الجنة لا ينفرد به المؤمن المطيع ، لانه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى ، كما يقول (الغزالي) ، وأما من عصى فمرده إلى جهنم ، وجهنم تحيط بالمجرمين ، ظلمات ذات شعب ، وتظل عليهم ناراً ذات لهب ، لها زفير وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، وقد خرج المنادي من الزبانية قائلاً : أين فلان بن فلان ، المسوّف نفسه في الدنيا بطول الامل ، المضيع عمره في سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع من حديد ، ويستقبلونه بعظائم التهديد ، ويسوقونه الى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجحيم ، ويقولون له « ذق انك انت العزيز الكريم » . واذ ذاك يخلد في جهنم الاسير ويوقد فيها السعير ، ينادي أهلها يا (مالك) قد أثقلنا الحديد ، يا (مالك) قد نضجت منا الجلود ، يا (مالك) اخرجنا منها فانا لا نعود . فتقول

---

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ج ١٦ ص ٩١ .

الزبانية : هيهات لات حين أمان ، ولا خروج لكم من دار الهوان ، فاخسأوا فيها ولا تكلمون ، ولو اخرجتم منها لكنتم الى ما نهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون ، وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ، ولا ينجيهم الندم ، ولا يغنيهم الاسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم ، والنار من تحتهم ، والنار عن ايمانهم ، والنار عن شمائلهم ، فهم غرقى في النار ، طعامهم نار ، وشرابهم نار ، ولباسهم نار ، ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النيران ، وسرابيل القطران ، وضرب المقامع ، وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون في مضايقها ، ويتحطمون في دركاتها ، ويضطربون بين غواشيها ، تغلي بهم النار كغلي القدور ، ويهتفون بالويل والعويل ، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم ، وتنقطع من العطش أكبادهم . وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ، ويتمعط من الاطراف شعورها بل جلودها . وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها . قد عريت من اللحم عظامهم ، فبقيت الارواح منوطة بالعروق ، وعلائق العصب ، وهي تنش في لفح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون . وفي الحديث : « ان في جهنم سبعين ألف واد ، في كل واد سبعون ألف شعب ، في كل شعب سبعون ألف ثعبان ، وسبعون ألف عقرب . لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله » . طعام أهل جهنم الزقوم . « ولو ان قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا

افسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف من يكون طعامه كذلك ؟» . والله يزيد في أجسام أهل جهنم طولاً وعرضاً حتى يتزايد عذابهم بسببه ، فيحسون بلفح النار ، ولدغ العقارب والحيات ، من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي .

ان هذا الوصف التفصيلي الدقيق للنعيم وللجحيم وصف في الحقيقة لمصير الانسان صالحاً وطالحاً ، وهذا المصير يمثل الغاية التي ترقب البشر كافة بعد حياتهم الدنيا . ولذا فان قيم هذه الحياة الدنيا ، العاجلة ، انما تقاس بمعيار ماتهيء له من أسباب الولادة الجديدة الى الحياة الآخرة ، أو الآجلة ، وليس بعد الحياة الثانية في الآخرة حياة ، بل هناك خلود ابدي ، ولا عود اطلاقاً الى الحياة الدنيا ، ولو تمنى ذلك أهل النار . ولعل من المفيد ان نختم هذه الالمامة الى مفهوم الانسان في الفكر التقليدي بقبسة من « قصة المعراج » المنسوبة الى (ابن عباس) جاء فيها حكاية عن (النبي) (ص) قوله عندما بلغ السماء الرابعة :(١) : « ثم رأيت ملكاً عظيم الخلقة والمنظر ، قد بلغت قدماه تخوم الارض السابعة ، ورأسه تحت العرش ، وهو جالس على كرسي من نور ، والملائكة بين يديه وعن يمينه وعن شماله ، ينتظرون أمر الله عز وجل ، وعن يمينه لوح وعن شماله شجرة عظيمة إلا أنه لم يضحك ابداً . فقلت : يا أخي يا (جبريل) ، من هذا ؟ قال : هادم اللذات ، ومفرّق الجماعات ، ومخرّب البيوت والدور ،

(١) المصدر السابق ج ١٦ ص ٦٤ — ٦٩ .

(١) إبن عباس : معراج النبي — (دمشق ١٩٥٤ ص ٩ وما بعد) .

ومعمّر القبور ، وميتّم الاطفال ، ومرمّل النساء ، ومفجّع الاحباب ، ومغلق الابواب ، ومسوّد الاعتاب ، وخاطف الشباب ، هذا مَلَك الموت (عزرائيل) هو و (مالك) خازن النار لا يضحكان ابداً . أُدنُ منه وسلّم عليه . فدنوت منه وسلّمت عليه فلم يرد عليّ السلام . فقال له (جبريل) : لمَ لا تردّ السلام على سيد الخلق ، وحبيب الحق . فلما سمع كلام (جبريل) وثب قائماً ، وردّ علي السلام ، وهنأني بالكرامة من ربي وقال لي : أبشر يا (محمد) فان الخير فيك وفي أمتك الى يوم القيامة . فقلت : يا اخي يا (عزرائيل) ، هذا مَقامك ؟ قال : نعم منذ خلقني ربي الى قيام الساعة . فقلت : كيف تقبض الارواح وانت في مكانك هذا ؟ قال : إن الله أمكنني من ذلك وسخّر لي من الملائكة خمسة آلاف ، افرّقهم في الارض ، فاذا بلغ العبد أجله واستوفى رزقه وانقضت مدة حياته أرسلتُ إليه اربعين ملكاً يعالجون روحه فينزعونها من العروق والعصب واللحم والدم ويقبضونها من رؤوس أظافره حتى تصل الى الركب ، ثم يريحونه ساعة ، ثم يجذبونها الى السرّة ، ثم يريحونه ساعة ، ثم يجذبونها الى الحلقوم ، فتقع في الغرغرة ، فأتناولها واسلّها كما تُسل الشعرة من العجين . فاذا انفصلتْ من الجسد جمدت العينان ، وشخصتا ، لانهما يتبّعان الروح ، فأقبضها باحدى حربتيّ هاتين .. واذا بيده حربة من نور ، وحربة من سخط . فالروح الطيبة يقبضها بحربة النور ، ويرسلها الى عليين . والروح الخبيثة يقبضها بحربة السخط ويرسلها الى سجّين ، وهي صخرة سوداء مدلهمة تحت الارض السابعة السفلى ، فيها أرواح

الكفار والفجّار . قلت : وكيف تعرف اذا حضر اجل العبد ؟ قال : يا (محمد) ، ما من عبد إلاّ وله في السماء بابان : باب ينزل منه رزقه ، وباب يصعد اليه عمله . وهذه الشجرة التي عن يساري ما عليها ورقة الا وعليها اسم رجل من بني آدم ، ذكوراً واناثاً . فاذا قرب أجل الشخص اصفرت الورقة التي كتب عليها اسمه ، وتسقط على الباب الذي ينزل منه رزقه ، ويسوّد اسمه في اللوح ، فاعلم انه مقبوض . فأنظر اليه نظرة يرتعد منها جسده ، ويتوعك قلبه من هيبتي ، فيقع في الفراش . فأرسل اليه اربعين من الملائكة يعالجون روحه ، وذلك قوله تعالى : « حتّى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ، وهم لا يُفرطون » ، يعني مَلَك الموت . قلت : يا اخي يا (عزرائيل) ، ارني صورتك التي خلقك الله عليها ، وتقبض فيها الارواح . قال : يا حبيبي ، لا تستطيع النظر اليها قال : فقلت : أقسمت عليك إلا فعلت . وإذا النداء من العلى : لا تخالف حبيبي (محمداً) ، فعند ذلك تجلى مَلَك الموت في الصورة التي يقبض فيها الارواح . قال (النبي) (ص) : فلما نظر مَلَك الموت إلي وجدت الدنيا بين يديه كالدرهم بين يدي احدكم يقلبه كيف يشاء . فارتعد منه قلبي ، ورجف منه صدري ، فوضع (جبريل) يده على صدري فرجعت روحي الي ، وعقلي عليّ . فقال (جبريل) : يا (محمد) ، ما بعد القبر وأشد منه إلاّ ظلمة القبر ووحشته ، وسؤال منكر ونكير . قال (النبي) (ص) : فودعته وتقدمت أمامي قليلاً ... ثم ارتقينا الى السماء الخامسة في اسرع من طرفة عين .... ورأيت باباً وعليه سطران مكتوبان يزهران

ويلمعان : لا إلـــه إلاّ الله ، محمد رسول الله ، فلما قرأتهما سقط القفل وانفتح الباب ، فنظرت فيه فاذا هو مُشرق من السماء الخامسة الى تخوم الارض السابعة السفلى ، واذا بجهنم مظلمة ممزوجة بغضب الله ، ودخانها ساطع ، واذا بملك عظيم الخلقة ، مرهب النظر ، ظاهر الغضب ، شديد المراس ، بين عينيه عقدة لو اشرف بها على أهل الارض لماتوا عن آخرهم وغارت منه البحار ، وتفطرت منه الجبال ....

قال (النبي) (ص) : قلت يا اخي يا (جبريل) ، من هذا الذي اقشعر منه جلدي ، وارتعد منه فؤادي ؟ فقال : يا حبيب الله ، هذا (مالك) خازن النار ، خلقه الله من غضبه وسخطه ، ولم يزل منذ خلقه الله وولاّه جهنم لا يزداد إلاّ غضباً على اعدائه . هذا وملكَ الموت (عزرائيل) لا يضحكان ابداً . أدنُ منه وسلّم عليه . فدنوت منـــه وسلّمت عليه ، فلم يردّ السلام . فقال (جبريل) لمَ لا تردّ السلام على حبيب الله وسيد العالمين وهو أعز الخلق على الله ونبي الرحمة ؟ فلما سمع (مالك) ذلك نهض قائماً على قدميه وقال : الله الله ، العذر لكَ يا حبيب الله . فقلت له : أرني جهنم . فقال (مالك) : ليس الامر لي . واذا النداء من العلى : لا تخالف حبيبي (محمداً) . فعند ذلك كشف عنها الغطاء فاذا هي سوداء معتمة مظلمة ممتزجة بغضب الله . وقيل ان نار الدنيا لها ضياء لانها غُسلت في بحر القدرة سبعين مرة حتى صار لها شعاع ونور ينتفع به . فرأيت سبعين ألف بحر من غسليق ، وسبعين ألف بحر من غساق ، وسبعين ألف بحر من قطران ، وسبعين ألف بحر من رصاص مذوّب ،

على ساحل كل بحر ألف مدينة من نار ، في كل مدينة ألف قصر من نار ، في كل قصر ألف تابوت من نار ، في كل تابوت سبعون صندوق من نار ، في كل صندوق سبعون ألف صنف من العذاب . ورأيت فيها حيات كأمثال النخل الطويل ، وعقارب كأمثال البغال ، ورأيت فيها سبعين ألف بئر من الزمهرير . ورأيت نساء باكيات محزونات ينادين فلا يُجبن ، ويتضرعن فلا يُرحمن . فقلت: من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء اللواتي يتزينّ لغير ازواجهن . ورأيت نساء عليهن سراويل من قطران وفي أعناقهن السلاسل والاغلال . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء المستخفات بأزواجهن اللاتي تقول احداهن لزوجها : ما اشنع وجهك ، وما أقبح شكلك ، وما انتن ريحك ، ألم تعلم ان الذي خلقها خلقه ، وهو إله واحد . ورأيت نساء قد احترقت وجوههن وألسنتهُن سائلات على صدورهن . فقلت : من هؤلاء يا أخي يا(جبريل) ؟ قال : هؤلاء اللواتي يقلن لأزواجهن : طلقني من غير سبب . ورأيت نساء معلّقات من شعورهن ، ويغلي دماغ رؤوسهن كغليان القدور . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء كن لا يغطين شعورهن من الرجال الاجانب . ورأيت نساء معلقات بشعورهن ، ومكلّبات بأبزازهن بكلاليب من نار . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء كنّ يرضعن اولاد الناس بغير اذن ازواجهن . ورأيت نساء أرجلهن الى ألسنتهن ، وايديهن الى ناصيتهن . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ! قال : هؤلاء كنّ لا يُحْسنّ العشرة ولا

يُحسنّ الوضوء ، قذرات الثياب والجسد ، ولا يغتسلن من الحيض والجنابة ، ويتهاونّ في صلاتهن حتى تفوت . ورأيت نساء صماً بكماً عمياً في تابوت من نار ، يخرج دماغ رؤوسهن مثل الدهن من مناخيرهن ، وبدنهن منتن ينقطع من الجذام والبرص . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء اولادهن كانوا من غير ازواجهن من الزنا فيجعلنهن في أعناق ازواجهن . ورأيت نساء معلقات بأرجلهن في تنور من نار . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء كنّ سلطات اللسان ، يشتمن ازواجهن . ورأيت نساء سود الوجوه ، يأكلن أمعاءهن فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء كنّ قوّادات يجمعن بين اثنين على الحرام . ورأيت امرأة رأسها كرأس الخنزير ، وبدنها كبدن الحمار ، وعليها ألف ألف نوع من العذاب . فقلت : من هذه المرأة يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : انها كانت نمّامة توقع العداوة بين زوجها والجيران ، وتسعى بين الناس بالنميمة والكذب . ورأيت امرأة على صورة الكلب ، والنار تدخل من فوقها وتخرج من تحتها ، والملائكة يضربونها على رأسها بمقامع من نار . فقلت : من هذه يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : انها توقع البغضاء بين الناس . ورأيت رجالاً منقلبين على وجوههم وعلى ظهورهم صخرة من نار ، والملائكة يضربونهم بمقامع من نار . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء كانوا يأتــون الرجال دون النساء . ورأيت رجالاً ونساء مصفّدين بأصفاد من نار ، وجباههم قد اسودّت ، والحيّات مطوّقات بأعناقهن ، تلدغهنّ فتهري

لحومهن ثم يعودون خلقاً جديداً . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟
قال : هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله .
ورأيت اقواماً بين ايديهم لحم طيب ، ولحم خبيث ، وهم يأكلون الخبيث
ويتركون الطيب . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء
من امتك تكون لاحدهم امرأة فيتركها ويميل الى الحرام ، وكذلك من
النساء من تكون مع زوجها بالحلال وتميل الى الحرام . ورأيت رجالاً
ونساء رُدّت أقبالهم الى أدبارهم ، وأدبارهم الى أقبالهم ، ومقامع النار
ترشقهم ، والملائكة تسحبهم على وجوههم ، وكلما ضربوا تلهب في
أجسادهم النار . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء
الذين يتكبّرون على الناس بغير الحق . ألا ترى ان (ابليس) لما تكبّر
على (آدم) فقال : أنا خير منه فتقطعت أجنحته . وخرج ملعوناً ؟ ورأيت
رجالاً ونساء سفافيد النار تدخل في أدبارهم وتخرج من أفواههم . فقلت :
من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : الهمّازون النمّامون الغمازون .
ورأيت رجالاً يرمون بشهب من نار فتقع في أفواههم وابصارهم وتخرج
من اقفيتهم . فقلت : من هؤلاء يا أخي يا (جبريل ؟) قال : هؤلاء
الذين يبهتون الناس ويرمون بينهم الفتنة . ورأيت نساء معلقات بشعورهن
في شجرة الزقوم ، والحميم يصب عليهن فيهري لحومهن . فقلت : من
هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء اللاتي كنّ يشربن الادوية
حتى يقتلن أولادهن خوفاً من مطعمهم ومشربهم وتربيتهم ، ألم يعلموا
ان الله يطعمهم ويسقيهم ، وقد قال تعالى : « وما من دابة في الارض إلاّ

على الله رزقها » . ورأيت نساء متميدات بقيود من نار ، وقد فُتحت افواههن ، ولهيب النار يخرج من بطونهن . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء المغنيات اللاتي يمتن من غير توبة . ورأيت نساء رؤوسهن في قطران والحيّات تنهشهن . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء النوّاحات بالكراء اللاتي يعظّمن ما نهى الله عنه وقد متن من غير توبة . ورأيت رجالاً ونساء في السعير والنار لها دوي في بطونهم تدخل من أدبارهم وتخرج من أفواههم . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، انما يأكلون في بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيراً . ورأيت رجالاً ونساء يسقون من القيح والصديد وكلما يحصل في اجوافهم شيء تتمزق جلودهم عن اجسادهم ، ثم يعودون خلقاً جديداً . فقلت : من هؤلاء يا أخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء يأكلون الربا . ورأيت رجالاً ونساء رؤوسهم مغمورة في نار جهنم ، ويصب عليهم الحميم والزمهرير يلفحهم فيهري لحومهم . فقلت من هؤلاء يا أخي (يا جبريل) ؟ قال : هؤلاء الذين يُلقون العداوة بين الناس . ورأيت نساء قد مُسخن وأجسادهن سوداء كالقطران . فقلت : من هؤلاء يا اخي يا (جبريل) ؟ قال : هؤلاء اللاتي يصلن شعورهن ويغيرن خلقة الله . ورأيت النار وأهوالها ، وعقابها شديد لا تقوى لها الحجارة والحديد ، ورأيت فيها اهوالاً عظيمة ، فداخلني منها رعب على ضِعاف أمّتي ، وأكثر اهلها النساء . ثم انطبق الباب وعاد كما كان .

ويتابع (النبي) (ص) حديثه في قصة المعراج فيقول بعد أن دنا من ربه حتّى صار منه كتاب قوسين أو أدنى: ثم عاد فالتقى ؛ (جبريل) . ثم أخذ (جبريل) بيدي وسرنا حتّى أتينا الجنة (١) ، واذا بملك عظيم الخلقة ، حسن المنظر ، بهي الوجه ، والنور يلوح من وجهه . جالس على كرسي من نور ؛ وعليه الحلى والحلل . قلت : يا أخي يا (جبريل) : من هذا ؟ قال : هذا (رضوان) : خازن الجنان . فتقدمت وسلّمت عليه . فلما رآني نهض مبتسماً وردّ علي السلام ، وعانقني وصافحني . قال : مرحباً بالنبي الناصح ، والاخ الصالح . فقال (جبريل) : يـــا (رضوان) ، خذ بيد حبيب الله وأره الجنة . فنظرت الى ارضها بيضاء مثل الفضة ، فتأملت في ارضها فرأيت حصباءها اللؤلوء والمرجان ؛ وترابها المسك ، ونباتها الزعفران ، وأشجارها ورقة من فضة وورقة من ذهب ، والثمار عليها مثل النجوم المضيئة ، والعرش سقفها : والرحمة حشوها ؛ والملائكة سكانها ، والرحمن جارها . فأخذ (رضوان) بيدي وسرنا بين أشجارها ، وما فيها من سرر وعيون وحور وأبكار عين ، وقصور عاليات ، وولدان كأنهن الاقمار ؛ وخدم وحشم وكرم وإنعام ونعيم ومقام وخلود وسعود ودوام وفرح في جوار الملك العلاّم . ورأيت قبة من لؤلؤة بيضاء معلّقة بلا علاقة تحملها ولا تمسكها ، لها ألف باب من الذهب الاحمر ، على كل باب ألف وصيفة . ورأيت داخل القبة ألف مقصورة ؛ في كل مقصورة ألف غرفة ، في كل غرفة ألف سرير ، على كل سرير

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥ .

ألف فراش من الاستبرق ، بين كل فراش وفراش نهر من ماء يجري ، وفوق كل فراش حورية تحيّر الناظر ، وتدهش الخواطر . فوقفت متعجباً. واذا النداء من العلى : أتتعجب من ذلك يا (محمد) ؟ انظر الى صدر القبة ترَ العجب . فتأملت فاذا هي مدّ البصر . فتأملتها ، واذا فيها قبة من الزمرد الاخضر ، وفيها سرير من العنبر الابيض ، مرصع بالدر والجوهر ، عليه جارية كحلاء نجلاء شكلاء دعجاء غنجاء أحسن من الشمس والقمر ، وأين للشمس والقمر حسن وملاحة تحاكيها ، خلقها الله من قدميها الى ركبتيها من الكافور الابيض ، ومن ركبتيها الى صدرها من المسك الاذفر ، ومن صدرها الى وجهها من النور الازهر ، لها ألف وستمائة ذؤابة من الشعر ، لو اشرقت على اهل الارض لاضاء من خنصرها المشرق والمغرب ، ولو بصقت في البحر المالح لاصبح عذباً . فقلت : يا اخي يا (جبريل) ، لمن هذا النعيم العظيم ، والعطاء الجسيم ؟ قال : يا حبيب الله ، هذا لمن يموت ويشهد أن لا إله إلاّ الله ، وانك رسول الله حقاً . قال : ورأيت نعيماً وملكاً كبيراً ، ورأيت فيها سبعة انهر ، نهر من ماء ، ونهر من لبن ، ونهر من خمر ، ونهر من عسل ، ونهر من السلسبيل ، ونهر من الرحيق ، ونهر من التسنيم ، ونهر من الكوثر .

الفصل الثاني

النظرة العقلية

من معين هذه النظرة التقليدية ، العربية الاسلامية ، الى الانسان ، نشأةً ، ومولداً : وبنية ، وحياة ، ومصيراً ، متح التطور الثقافي خلال تطوره نظرات فكرية شتى تتسم بأنها اقل استجابة للحدس المتخيل الحر ، واكثر استمساكاً بمطلب العقل والتأكيد المذهبي ، وهذه النظرات الفكرية تنحو في مختلف أنحاء الثقافة العربية الاسلامية ، وتملأ شعابها ، وتعمر أرجاءها ؛ ولا يكاد في وسعنا أن نستثني بحثاً من بحوث هذه الثقافة من الاهتمام بشؤون الانسان ، ولذا فان كل بحث يمتّ الى هذا التطور الثقافي بسبب ، أو يتصل به بصلة أو اكثر . فاذا شئنا ايضاحاً وجيزاً لمفهوم الانسان في النظرة العقلية الا سلامية، تمهيداً لبحثنا في ما نسميه « الانسانيات » في الفكر العربي المدرسي ، ألفينا من الجائز أن نميز منازع ثلاثة يمثل أولها تيار الفكر الكلامي المتفلسف ، وقد اخترنا في الالماع اليه الحديث عن نبذة من آراء (الراغب الاصمهاني) و (اخوان الصفاء) والمنزع الثاني منزع التيار الصوفي الذي تميز بنظرة قصوى الى الانسان يمثلها مفهوم الانسان الكامل أو الحقيقة المحمدية ، كما جاء بها ، بوجه خاص ، (ابن عربي) و (الجبلي) . واما المنزع الثالث فهو تيار الفكر التأويلي الذي مضى في

نطاقه الى الحد الاقصى ، منطلقاً من النظرة الشيعية الى الإمام ، وموسّعاً مفهومه باتجاه الشمول والقيمة ، حتى ذاب في هذا التوسيع كل مفهوم عن الانســـان .

●

لنبدأ الآن بلمحة عن مفهوم الانسان في المنزع الكلامي المتفلسف ، ولنختر رأي أحد الباحثين المدققين في مفهوم الانسان وهو (ابو القاسم الحسين بن محمد بن المفضّل الراغب الاصفهاني) في رسالته التي اسماها « تفصيل النشأتين ، وتحصيل السعادتين » ، وقد أوضح هو نفسه معنى هذه التسمية اذ قال : أما النشأتان فاحداهما المذكورة في قوله تعالى : « ولقد علمتم النشأة الاولى فلو لا تذكرون » . والثانية المذكورة في قوله تعالى : « ثم ينشيء النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير » . وامّـــا السعادتان فاحداهما المذكورة في قوله تعالى : « اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم » والثانية المذكورة في قوله تعالى : « واما الذين سُعدوا في الجنة » .

وفي هذا الاطار الاسلامي يبرز (الاصفهاني) تفكيره العقلي فيحدّد معنى الانسان بأنه ليس كل حيوان منتصب القامة ، عريض الظفر ، أملس البشرة ، ضاحك الوجه ممن ينطقون ، ولكن عن الهوى ، ويتعلمون ، ولكن ما يضرّهم ولا ينفعهم ، ويعلمون ، ولكن ظاهراً من الحيـــاة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، ويكتبون الكتاب بأيديهم ، ولكن يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ويجادلون ، ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق ، . . . ويحكمون ، ولكن حكم الجاهلية يبغون ،

ويخلقون . ولكن يخلقون إفكاً ، فهؤلاء وان كانوا بالصورة المحسوسة ناساً ، فهم بالصورة المعقولة لا ناس ولا نسناس كما قال امير المؤمنين (عليّ) كرم الله وجهه : يا اشباه الرجال ولا رجال .

وبعد أن نفى (الراغب) هذا المفهوم الزائف عن الانسان ، اتجه الى تبيان نظرته الايجابية ، أو التقييمية . فنبّه على وجوب معرفة الانسان ذاته ، فمن علم ان شيئاً ما هو مما يجب ان يُعلم . فانه ، وإن لم يعلمه ، فقد يحصل له بذلك علم . فمن العلم أن تعلم أنك لا تعلم . وعلم الانسان بجهله أحد العلمين . وبقدر معرفة منفعة الشيء يحرص الانسان على طلبه ويصبر على تحمل المشقة في تحصيله . وقد اختلف الحكماء في تقديم معرفة الله تعالى على معرفة الانسان نفسه ، ووجد (الاصفهاني) أن ليس في هذين القولين منافاة فمعرفة النفس هي الواجب الاول من حيث الترتيب الصناعي ، ومعرفة الله هي الواجب الاول من حيث الشرف والتفضل ، وان بمعرفة الانسان نفسه يتوصل الى معرفة غيرها ، ومن جهلها جهل كل ما عداها . وان الذي يعرف نفسه يعرف العالم ، ومن عرف العالم صار في حكم المشاهد لله تعالى وهو يخلق السموات والارض ، ومن عرف نفسه عرف بقاءه وعرف كذلك اعداءه الكامنة في نفسه التي هي بين جنبيه ، واستطاع ان يجاهد هذه الاعداء وفي طليعتها الهوى ، ولا سيما حين يتصور الهوى بصورة العقل : فيصور للانسان الباطل بصورة الحق . وبذا يعرف من عرف نفسه كيف يسوسها ، و « من أحسن أن يسوس نفسه أحسن ان يسوس العالم فيصير من خلفاء الله المذكورين في قوله تعالى : « ويستخلفكم

في الارض » ومن الملوك المذكورين في قوله تعالى : « وجعلكم ملوكاً »(١) ثم ان من عرف نفسه لم يجد في أحد من الناس عيباً إلاّ رآه موجوداً في ذاته ، إما ظاهراً منبعثاً ، أو كامناً فيه كمون النار في الحجر ، فلا يكون همّازاً ولمّاز أو عيّاباً ، ولكن معرفة النفس توصل ، بالدرجة الاولى من حيث الاهمية ، الى معرفة الله . وهذا معنى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » . وفي هذا الخبر ثلاث تأويلات : احدها : ان بمعرفة النفس يتوصل الى معرفة الله عز وجل ، كقولك : اعرف العربية تعرف الفقه ، أي بمعرفة العربية يتوصل الى معرفة الفقه وإن كان بينهما وسائط . والثاني : انه اذا حصّل معرفة النفس حصّل بحصولها معرفة الله بلا فاصل ، كقولك : بطلوع الشمس يحصل الضوء ، فيكون الضوء مقترناً بطلوعها ، غير متأخر عنها بزمان . والثالث : أن معرفة الله تعالى ليست تثبت إلا ان تُعرف النفس ، لانك اذا عرفتها على الحقيقة فقد عرفت العالم ، فاذا عرفت العالم عرفت انه مُحدَث ، وأن لا بد له من محدِث لا يشبه المحدث ، بوجه ، وذلك هو غاية معرفة الله تعالى .

الله تعالى هو الواجب الوجود ، الذي لا سبب لوجوده ، بل هو سبب كل موجود . وكل موجود فمنه ، وبه ، تعالى ، وجوده . وقد أوضح (الاصفهاني) ان الموجودات ضربان : معقولات علوية ، ومحسوسات سفلية . وقد بدأ الله بايجاد المعقولات العلوية فروي انه خلق القلم ثم اللوح ،

---

(١) الراغب الاصفهاني : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين – (حلب – مراجعة احمد حسين كمكو) ص ١٠ .

وروي انه أول ما خلق العقل فقال له اقبل ، فأقبل ، ثم قال له أدبر ، فأدبر . فقال : بعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك . بك آخذ ، وبك اعطي . ولك الثواب ، وعليك العقاب . وهنا ينبّه (الراغب) الى المقصود بالعقل فيقول : ليس المراد بالعقل ههنا العقول البشرية ، بل الاشارة الى جوهر شريف عنه تنبعث العقول البشرية . وقد اوجـــد الله الروحانيات على سبيل الابداع ، اي ايجاد الشيء لا عن شيء موجود من قبل . ثم خلق المحسوسات السفلية بأن خلق الاركان الاربعة ، والجمادات والناميات والحيوانات وختم بالصورة الانسانية ، والخلق يقال في اكثر الاحوال في ايجاد الشيء من الشيء قبله ، كخلق الانسان من التراب ويقتضي تركيباً .

المبدعات كائنات تامة . والمخلوقات كائنات ناقصة . ذلك ان كل شيء مبدع لو كان فيه نقص لدلّ ذلك على نقصان مبدعه وصانعه . أما المخلوق الذي هو مركب من شيء فقد يحتمل أن يكون فيه نقص ، ويكون نقصه عارضاً من جهة ما تركب منه لا من جهة مركّبه وفاعله . فلهذا صارت المبدعات من الاشياء العلوية معراة من اعتراض الفساد فيها خالاً فحالاً ، بل تبقى على حالها الى ان يشاء الله تعالى ان يرفع العالم .

ما الانسان ؟ ان الانسان انسانان : احدهما (آدم) الذي هـــو ابو البشر ، ويجري هو من سائر الناس مجرى البذر الذي منه انشىء غيره ، والباري تعالى قد تولى بنفسه ايجاده وتربيته وتعليمه . والثاني : بنـــوه وموجدهم ايضاً الباري تعالى ولكن جعل انشاءهم وتربيتهم وتعليمهم

بوسائط جسمانية وروحانية : فالجسماني كالابوين ، والروحاني كالملائكة المدبرات والمقسمات الذين يتولون انشاءه وتربيته . ولكون الابوين سبباً في وجود الولد عظّم الله تعالى حقهما وألزم بعد شكره شكرهما فقال : « اشكر لي ولوالديك » ، ويسمى الولد ابناً ، وهو مشتق من بنيتُ البنية ، تنبيهاً على انه جار للاب مجرى البناء للباني .

جمع الله في الانسان قوى العالم ، وأوجده بعد وجود الاشياء التي جُمعت فيه . فالانسان من حيث أنه بواسطة العالَم حصل ، ومن أركانه وقواه أُوجد ، هو العالَم . ومن حيث انه صغُر شكله وجُمع فيه قواه كالمختصر من العالم ، فان المختصر من الكتاب هو الذي قلل لفظه ، واستوفي معناه . ومن حيث أن الانسان جعل من صفوة العالم ولبابه وخلاصته وثمره فهو كالزبد من المخيض ؛ والدهن من السمسم ، فما من شيء إلا والانسان يشبهه من وجه : فانه كالاركان من حيث ما فيه من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . وكالمعادن من حيث ما هو جسم . وكالنبات من حيث ما يتغذى ويتربى . وكالبهيمة من حيث ما يحس ويتوهم ويتخيل ويلتذ ويتألم . وكالسبع من حيث ما يحرض ويغضب . وكالشيطان من حيث ما يُغوي ويُضل . وكالملائكة من حيث ما يعرف الله تعالى ويعبده ويخلفه . وكاللوح المحفوظ من حيث قد جعله الله مجمع الحكم التي كتبها فيه على سبيل الاختصار . ولكون العالم والانسان متشابهين اذا اعتبرا ، قيل : الانسان عالم صغير ، والعالم انسان كبير . ولما كان كل مركب من اشياء مختلفة يحصل باجتماعهن معنى ليس بموجود فيهن على انفرادهن ،

كالمركبات من الادوية والاطعمة ، كذلك في نفس الانسان حصل معنى ليس في شيء من موجودات العالم وذلك المعنى هو ما يختص بـه من خصائصه التي بها تميز عن غيره من هيآت ، كانتصاب القامة ، وعرض الظفر ، وانفعالات له كالضحك والحياة . وأفعال كتصور المعقولات وتعلم الصناعات واكتساب الاخلاق .

ان ماهية كل شيء تحصل بصورته التي يتميز بها عن اغياره ، كصورة السكين والسيف والمنجل ، ونحوها . ولما كان الانسان جزئين : بدن محسوس وروح معقول ، كان له بحسب كل واحد منهما صورة : فصورته المحسوسة البدنية انتصاب القامة ، وعرض الظفر ، وتعري البشرة عن الشعر . والضحك . وصورته المعقولة الروحانية العقل والفكر والروية والنطق . والانسان يرقى ويتكامل حتى يصير بعقله معدن العلم ومركز الحكمة . ذلك ان اول ما يظهر فيه قوة النزوع الموجودة في النبات والحيوان ، ثم قوة تناول الموافق ودفع المخالف ، ثم الحس ، ثم التخيل ، ثم التصور ، ثم التفكر ، ثم العقل ، فهو لا يصير انساناً إلاّ بالفكر الذي به يميز بين الخير والشر ، والجميل والقبيح . ولما كان من جبلّة الانسان أن يتحرى ما فيه اللذة ؛ وكانت اللذات على ضربين : احدهما محسوس كلذة المذوقات والملموسات والمشمومات والمسموعات والمبصرات وهي من توابع الشهوة الحيوانية . والثاني : معقول كلذة العلم وتعاطي الخير وفعل الجميل . واللذات المحسوسة اغلب علينا لكونها اقدم وجوداً فينا ، لأنها توجد في الانسان قبل ان يولد ، وهي ضرورية في الوقت ، ولذلك

يكره اكثر الناس ما يأمر به العقل . ويميل الى ما يأمر به الهوى حتّى قيل : العقل صديق مقطوع ، والهوى عدو متّبع . ولذلك يحتاج الانسان ان يقاد في بدء امره الى مصالحه بضرب من القهر ، حتّى قال (النبي) (ص) : « يا عجباً لقوم يقادون الى الجنة بالسلاسل » . فحق الانسان ان يجاهد هواه . الى ان يقتحم العقبة ، فيتخلص حينئذٍ من اذاه(١) .

ان للنفس نظرين : نظر الى فوق ، نحو العقل ، ومنه تستمد المعارف وتميز بين المحاسن والقبائح ، فتعرف كيف تتحرى المحاسن وتتجنب القبائح . ونظر الى تحت ، نحو الهوى ، وبه تنسى الحقائق وتألف الحسيسات ، بل القاذورات . والنفس متى كانت شريفة أدامت النظر الى فوق ، ولا تنظر الى مادونها إلاّ عند الضرورة ، ولا تتناول اللذات البدنية إلاّ بحسب ما يرسمه العقل المستمد من الشرع ، او اذا كانت دنيّة اكثرت الميل الى الشهوات البدنية ، فيحدث ذلك لها إذعاناً وانقياداً للشهوات ، فيستعبدها الهوى . والناس انما يتفاضلون بمعرفة الحق واتباعه ويتفاوتون فيه تفاوتاً بعيداً . وبحسب تحصيله يستحق المرء الانسانية ، وهي تعاطي الفعل المختص بالانسان . فيقال : فلان أكثر انسانية(٢) .

ثم ان الانسان ينفرد من بين الموجودات بأنه مخلوق خلقة تصلح للدارين ، وذلك ان الله تعالى أوجد ثلاثة انواع من الاحياء : نوعاً لدار الدنيا وهي الحيوانات ، ونوعاً للدار الآخرة وهو الملأ الاعلى ، ونوعاً

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦ .

للدارين وهو الانسان . فالانسان واسطة بين جوهرين : وضيع وهو الحيوانات ، ورفيع وهو الملائكة . فجمع فيه قوى العالـمين ، وجعله كالحيوانات في الشهوة البدنية والغذاء والتناسل والمهارشة والمنازعة وغير ذلك من أوصاف الحيوانات . وكالملائكة في العقل والعلم وعبادة الرب والصدق والوفاء ونحو ذلك من الاخلاق الشريفة . ووجه الحكمة في ذلك ان الله تعالى لما رشحه لعبادته وخلافته وعمارة أرضه ، وهيأه مع ذلك لمجاورته في جنته ، اقتضت الحكمة ان يجمع له القوتين . فانه لو خُلق كالبهيمة معرّى عن العقل لما صلح لعبادة الله تعالى وخلافته ، كما لم يصلح لذلك البهائم ، ولا لمجاورته ودخول جنته ؛ ولو خلق كالملائكة معرّى عن الحاجة البدنية لم يصلح لعمارة ارضه ، كما لم يصلح لذلك الملائكة حيث قال تعالى في جوابهم : « اني اعلم ما لا تعلمون » ، فاقتضت الحكمة الالهية ان تجمع له القوتان وفي اعتبار هذه الجملة تنبيه على ان الانسان دنيوي واخروي وانه لم يخلق عبثاً ، كما نبه الله تعالى عليه : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون » .

لكل شيء كمال ينساق اليه بطبعه . وقد جعل الله للانسان سعادات ابيحت له وهي النعم المذكورة في قوله تعالى : « وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » . ومن الجائز ارجاع النعم والسعادات كلها الى ضربين : ضرب دائم لا يبيد ولا يحول ، وهو النعم الاخروية . وضرب يبيد ويحول وهو النعم الدنيوية . وهذه النعم الدنيوية أشبه بسراب بقيعة ، وبغرور ونتنة وعذاب اذا لم توصلنا الى النعم الاخروية . ولذا فان النعم الدنيوية

تكون نعمة وسعادة متى تنوولت على ما يجب ، وكما يجب ، ويجرى بها على الوجه الذي لاجله خُلق . وذلك ان الله جعل الدنيا عارية ليتناول منها قدر ما يتوصل به الى النعم الدائمة والسعادة الحقيقية . ومن شأن السعادات الاخروية أن ليس لنا تصور كنهها ما دمنا في دار الدنيا(١) . والسبب في قصورنا عن تصورها شيئان : احدهما ان الانسان لا يمكن ان يعرف حقيقة الشيء وتصوره حتى يدركه بنفسه ، واذا لم يدركه ووصف له يجري مجرى صبي توصف له لذّة الجماع فلا يمكن ان يتصور حقيقته حتى يبلغ فيباشره بنفسه ، وكالأكمه توصف له المرآة . وحالنا في اللذة الاخروية هكذا . فانّا لا نتصورها على الحقيقه إلاّ اذا طالعناها فـاذا طالعناها شغلنا الفرح والتلذذ بها عن كل ما دونها كما قال تعالى : « اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » . والثاني أن لكل قوة من قوى النفس ، وجزء من اجزاء البدن لذة تختص بها لا يشاركها فيها غيرها . فلذة العين في النظر الى ما تستحسنه ، ولذة السمع في الاستماع الى ما يستطيبه ، ولذة اللمس في لمس ما يستلذه ، ولذة الوهم في تصور ما يؤمله ، ولذة الخيال في تخيل ما يستحسن تصوره ، ولذة الفكر في امر مجهول عنده بتعرفه ، واللذات الاخروية هي لذات لا تدرك إلاّ بالعقل المحض . ولما اراد الله ان يقرّب معرفة تلك اللذات من أفهام الكافة شبهها ومثّلها لهم بأنواع ما تدركها حواسهم ليبين للكافة طيبها بما عرفوه من طيب المطاعم ، وقال : « مثل الجنة التي وعد المتقون » ، ولم يقل الجنة ، لينبّه الخاصة على ان

(١) المصدر السابق ص ٥٥ .

ذلك تصوير وتمثيل(١) .

الدنيا ، كما يقول امير المؤمنين (علي) ، دار ممر ، لا دار مقر . فاعبروها ولا تعمروها . وقد خلقتم للابد ، ولكنكم تنقلون من دار الى دار ، حتّى يستقر بكم القرار(٢) . وان الموت المتعارف الذي هو مفارقة الروح البدن هو احد الاسباب الموصلة الانسان الى النعيم الابدي ، وهو انتقال من دار الى دار ، وهو وإن كان في الظاهر فناءً واضمحلالاً ، ولادة ثانية في الحقيقة ، وهو سبب الانتقال من حال أوضع الى حال أشرف وارفع ، ولذا تقول العرب : استأثر الله بفلان ، ولحق بالله ، ونحو ذلك . اجل ، ان الموت انتقال الى اعلى ، ولذا يحبه المؤمن ويتمناه ، والموت باب من ابوب الجنة ، منه يتوصل اليها ، ولو لم يكن موت لم تكن الجنة ، ومن هنا كان الموت إنعاماً وذريعة الى السعادة الكبرى(٣) .

لننتقل الآن الى ذكر لمحة عن مفهوم الانسان لدى مؤلفي « رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء » .

فقد وجد هؤلاء المؤلفون ان جسد (آدم) مكوّن من اربعة اشياء ، وهي تنتقل وراثة في ولده في اجسادهم وينمون عليها الى يوم القيامة . وهذه الاشياء هي الّتي تركب الجسد من رطب ويابس وحار وبارد ، وقد نفخ الله في الانسان نفساً وروحاً . فيبوسة جسده من قبل التراب ، ورطوبته

---

(١) المصدر السابق ص ٥٧ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠٤ .
(٣) المصدر السابق ص ١٠٧ .

من قبل الماء ، وحرارته من النفس ، وبرودته من الروح . ثم جعل في الجسد اربعة انواع آخرهن ملاك اموره ، لا يقوم الجسد إلاّ بهن ، ولا تقوم واحدة منهن إلاّ بالاخرى ، فمنهن المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم ، والبلغم . وقد جعل مسكن اليبوسة في المرة السوداء ،و الحرارة في المرة الصفراء ،والرطوبة في الدم ، والبرودة في البلغم . فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الاربعة الاخلاط وكانت كل واحدة منهن ربعاً لا تزيد ولا تنقص كملت صحته واعتدلت بنيته . وقد صير الله هذه الاخلاط فطراً واصولاً عليها تبنى أخلاق بني (آدم) ، وبها توصف : فمن التراب العزم ، ومن الماء اللين ، ومن الحرارة الحدة ، ومن البرودة الأناة . فان مالت به اليبوسة وافرطت كانت عزمته قساوة وفظاظة ، وان مالت به الرطوبة كان لينه توانياً ومهانة ، وان مالت به الحرارة كانت حدته طيشاً وسفاهة ، وان مالت به البرودة كانت أناته ريثاً وبلادة . وان اعتدلت وكن سواء ، اعتدلت اخلاقه ، واستقام أمره .

« ثم نفخ الله في الانسان من روحه ، وقرن بجسده نفساً وروحاً . فبالنفس يسمع ويبصر ويشم ويذوق ويلمس ويحس ويأكل ويشرب وينام ويقعد ويضحك ويبكي ويفرح ويحزن . وبالروح يعقل ويفهم ويدري ويتعلم ويستحي ويحلم ويحذر ، ويتقدم ويمنع ويتكرم ويقف ويهجم . فمن النفس تكون حدته وخفته وشهوته ولعبه ولهوه وضحكه وسفهه وخداعه ومكره وعنفه وخرقه . ومن الروح يكون حلمه ووقاره وعفافه وحياؤه وبهاؤه وفهمه وتكرمه وحذقه وصدقه ورفقه وصبره . فاذا خاف ذو اللب

أن يغلب عليه خلق من اخلاق النفس قابله بضده من اخلاق الروح وألزمه اياه فيعدله به ويقومه . فيقابل الحدة بالحلم ، والخفة بالوقار ، والشهرة بالعفاف ، واللعب بالحياء ، واللهو بالبهاء ، والضحك بالهم ، والسفه بالكرم ، والخداع بالشجاعة ، والكذب بالصدق ، والعنف بالرفق ، والنزق بالصبر ، والخرق بالاناة ، إذ كل مرض يعالج بضده (١) ...

ولما ابدع الباري النفوس واخترعها وأبرز المستكن والمستجن من الكائنات رتّبها ونظمها . ولمراتب النفوس ثلاثة انواع : منها مرتبة الانفس الانسانية ، ومنها ما هي فوقها ، ومنها ما هي دونها . فالتي دونها سبع مراتب ، والتي فوقها سبع ايضاً ، وجملتها خمس عشرة مرتبة . والمعلوم منها عند العلماء ، ويمكن لكل عاقل أن يعرفها ويحس بها خمس : منها اثنتان فوق رتبة الانسانية وهي رتبة الملكية والقدسية ، ورتبة الملكية هي رتبة الحكمية ، ورتبة القدسية هي رتبة النبوة والناموسية . واثنتــان دونها : وهي مرتبة النفس النباتية والحيوانية . وأما مرتبة الإنسانية فهي التي ذكرها الله تعالى بقوله : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » . وأما المراتب التي دون النباتية وفوق القدسية فبعيدة معرفتها على المرتاضين بالعلوم الالهية ، فكيف على غيرهم(٢) ؟!

ابتدىء بخلق الانسان من نطفة من ماء مهين ثم كان علقة جامدة في قرار مكين ، ثم كان مضغة ثم كان جنيناً مصوراً تاماً ثم كان طفلاً متحركاً

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٠ .

حساساً ، ثم كان صبياً ذكياً فهماً ، ثم كان شاباً متصرفاً قوياً نشيطاً ، ثم كان كهلاً مجرباً عالماً عارفاً ، ثم كان شيخاً حكيماً فيلسوفاً ربانياً ، ثم بعد الموت تكون نفسه ملكاً سماوياً روحانياً أبدي الوجود ، ملتذاً مسروراً فرحاً باقياً سرمداً ابداً . وهذا الانتقال في الواقع ارتقاء موصول يلبس في كل مرتبة لاحقة ما هو أجود وأشرف من اعراض وأوصاف المرتبة السابقة . فاذا احسن المرء الفكر والقياس والتعقل واتخذ المعلومات المكتسبة مقدمات وقياسات يستخرج من نتائجها معلومات اخرى هي ألطف وأدق مما قبلها ، وخلع عن نفسه اخلاقاً وعادات وآراء ومذاهب واعمالاً ناقصة مما كان معتاداً له منذ الصبا من غير بصيرة ولا روية أمكنه أن يفارق — اخيراً — الصورة الانسانية ويلبس الصورة الملكية ويصعد الى ملكوت السموات ، وسعة عالم الافلاك ، وجوزي هناك بأحسن الجزاء وأوفر الثواب : وعاش بألذ عيش مع أبناء جنسه الذين سبقوه اليها من الحكماء والاخيار ، المؤمنين الابرار ، مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن اولئك رفيقاً(١) .

لكل كون ونشوء أول وابتداء ، وله غاية ونهاية اليها يرتقي ، ولغايتها ثمرة تجتنى . فمسقط النطفة كون قد ابتدىء ، وغايته الولادة التي اليها المنتهى . والولادة ايضاً كون قد ابتدىء ، والموت غايته التي اليها المنتهى ، وكما أن ثمرة مسقط النطفة لا تكون إلا بعد الولادة ، لان الطفل لا يتمتع إلا بعد الولادة ، فهكذا النفس لا تتمتع إلا بعد مفارقة الجسد .

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٦٠ .

لان موت الجسد ولادة النفس ، وهي الروح . وذلك أن موت الجسد ليس شيئاً سوى مفارقة النفس له ، كما ان ولادة الجنين ليست شيئاً سوى مفارقة الرحم . فاذن الموت حكمة ، كما ان الولادة حكمة . وكما ان الجنين اذا تمت في الرحم صورته ، وكملت هناك خلقته لم ينتفع في الرحم بل ينتفع بعد الولادة في الحياه الدنيا . كذلك النفس اذا كملت صورتها ، وتمت فضائلها بكونها مع الجسد انتفعت بعد مفارقتها الجسد في الحياة الآخرة . فاذن الموت حكمة اذ البقاء الابدي لا يتيسر إلا بعد حصول الموت ، فالموت سبب لحياة الابد ، والحياة الدنيا سبب للموت في الحقيقة ، اذ الانسان ما لم يدخل في هذا العالم لا يمكن له ان يموت ، فاذا وجد الانسان فتكون حياته سبباً لموته ، وموته سبباً لحياته الباقية أبد الآبدين(١) .

ان الجسد كالسفينة ، والنفس كالملاح ، والاعمال الصالحة كالبضاعة ، والامتعة للتاجر ، والدنيا كالبحر ، وأيام الحياة كالمعبر ، والموت كالساحل المتوجه اليه ، والدار الآخرة كمدينة التاجر ، والجنة هي الربح ، والله تعالى هو الملك المجازي ، كما ان التاجر اذا عبر البحر ، وسلمت امتعته و بضاعته ، ولما لم يخرج من السفينة لا يمكنه الدخول الى مدينة للتجارة ويفوته ربح بضاعته .

الجسد ميت بجوهره ، وحياته عرضية لمجاورة النفس اياه ، كما أن الهواء مظلم بجوهره ، وانما ضياؤه باشراق نور الشمس والقمر والكواكب عليه والدليل على ان الجسد ميت بجوهره ما يرى من حاله بعد مفارقة

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٩ — ٦١ .

النفس له كيف يتغير ويفسد ويتلاشى ويرجع الى التراب .

وقد اختلف الحكماء في ماهية الانسان ، وحقيقة معناه ، اختلافاً كثيراً ، والبحث في ذلك القيل والقال . ولكن يجمعها كلها ثلاث مقالات : وذلك ان منهم من قال : ان الانسان هو هذه الجملة المرئية المبنية بنيــة مخصوصة من اللحم والدم والعظم وما شاكل ذلك لا شيء آخر سواها . ومنهم من قال : ان الانسان هو هذه الجملة المجموعة من جسد جسماني ومن روح نفساني ، أي روحاني مقترني المجموعة . ومنهم من قال : ان الانسان بالحقيقة هو هذه النفس الناطقة ، والجسد لها بمنزلة قميص ملبوس ، أو غلاف مغشى عليه . فهذه ثلاث مقالات في كلام الحكماء في مــاهية الانسان . فأما اختلافهم في ماهية النفس فنبينه أيضاً ، ويجمعها ثــلاث مقالات ، وذلك : ان منهم من قال : ان النفس هي جسم لطيف غير مرئي ولا محسوس . ومنهم من قال : انما هي جوهرة روحانية غير جسم معقولة وغير محسوسة باقية بعد الموت . ومنهم من قال : ان النفس عرض يتولد من مزاج البدن وأخلاط الجسد يبطل ويفسد عند الموت اذا بلى الجسد وتلف البدن ، ولا وجود لها إلاّ مع الجسم البتة ، وهؤلاء قوم يقال لهم الجسميون ، لا يعرفون شيئاً سوى الاجسام المحسوسة ، والاعراض ذو الابعاد الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق ، والاعراض التي تحلها مثال : الالوان ، والطعوم ، والروائح ، والاشكال ذوات الاضلاع من الاقطار والزوايا ، وليس عندهم علم من الامور الروحانية ، والجواهر النورانية ، والصور العقلية ، والقوى النفسانية السارية في الاجسام ، المظهرة

فيها ، ومنها ، افعالها وتأثيراتها .

ان من العلوم الشريفة ، والمعارف النفيسة . معرفة الانسان نفسه ، لانه قبيح بكل عالم ان يدّعي معرفة حقائق الاشياء . وهو لا يعرف نفسه، ويجهل حقيقة ذاته وهو يتعاطى الحكمة ؛ لان مثل ذلك كمثل من يطعم غيره ، وهو جائع ، أو يكسو غيره ، وهو عريان ، أو يهدي غيره ، وهو ضال في الطريق الانهج . ولا يستطيع الانسان أن يعرف نفسه على الحقيقة إلاّ أن ينظر ويبحث ، وذلك من ثلاث جهات : احدها الجسد بمجرده عن النفس . والثاني النظر في أمر النفس والبحث عن جوهرها بمجردها عن الجسد ، والثالث النظر والبحث في الجملة المجموعة من النفس والجسد جميعاً . الجسد جسم مؤلف من لحم وعظم وعروق وعصب وما شاكل ذلك . وهذه كلها أجسام طويلة عريضة عميقة وجملة ذلك تدرك بالحس ولا يشك فيها عاقل . وأما النفس فهي جوهرة سماوية روحانية حية بذاتها ، علاّمة درّاكة بالقوة ، فعالة بالطبع ، لا تهدأ ولا تقر عن الجولان ما دامت موجودة ؛ وهكذا خلقها ربها يوم خلقها وأوجدها ، والدليل على أنها ليست بجسم هو ان الجسم لا يعقل إلا متحركاً أو ساكناً ، فلو كان متحركاً من حيث هو جسم لكان يجب ان يكون كل جسم متحركا . ولو كان ساكناً لكان يجب أن يكون كل جسم ساكناً ، وليس يوجد الامر كذلك . بل قد يوجد بعض الاجسام متحركاً دائماً وبعضها متحركاً تارة ، وساكناً اخرى ، مثل الهواء والماء والنار والحيوان والنبات فيدلنا بأن شيئاً آخر هو الذي يحركها . وأما الجملة المجموعة من الجسد والنفس بهـذا

المحسوس المشاهد المخاطب المتكلم السائل المجيب العالم العارف مـــا دام حياً . فاذا مات بطل منه ظهور هذه الاشياء ، لان الموت ليس هو شيء سوى مفارقة نفسه جسدها ، وعند ذلك يعدم منه جميع فضائله الظاهرة من العلوم والصنائع والكلام والحركات والحواس وما شاكلها(١) .

ان جوهر النفس جوهرة سماوية ، وعالمها عالم روحاني . وهي حية بذاتها ، غير محتاجة الى الاكل والشرب واللباس والمسكن ، وما شاكل ذلك مما يحتاج اليه الجسد في قوام وجوده ، ومادة بقائه ، وان كل ما يحتاج اليه الانسان من اعراض هذه الدنيا انما هو من اجل هذا الجسد المستحيل الفاسد ، ولاصلاحه وقوامه وجرّ المنفعة اليه . ودفع المضرة عنه ؛ الذي لا يثبت على حال واحدة طرفة عين . وان النفس ما دامت مع الجسد الى الوقت المعلوم ، متعوبة بكثرة همومها لاصلاح أمر هذا الجسد . وشغلها بشدة عنايتها به فيما تتكلف من الاعمال الشاقة ، والصنائع المتعبة . من اكتساب المال والمتاع والاثاث وما يحتاج اليه الانسان في طول الحيـــاة الدنيا ، وان النفس لا راحة لها دون مفارقتها لهذا الجسد كما أن الرجـــل الحكيم المبتلى يعشق المرأة الفاجرة الرعناء لا راحة له ممن قد ابتلى بها إلاّ بمفارقتها والتسلي عنها وعن حبها وعشقها(٢) .

ان هذا الجسد لهذه النفس الساكنة فيه يشبه مدينة عامرة بأهلهـــا . مأنوسة بسكانها ، وحالات الجسد تشبه حالات المدينة . وتصرف النفس

---

(١) المصدر السابق ج : ص ٣٤٨ وما بعد

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٣١ .

بشبه تصرفات اهل المدينة . وذلك ان لهذا الجسد اعضاء ومفاصل تشبه المحال في المدينة وفي تلك الاعضاء والمفاصل أوعية ومجار تشبه المنازل في المحال . وفي تلك الاوعية والمجاري حجب واغشية تشبه البيوت في منازل الاسواق في المحال والدكاكين في الاسواق . بيان ذلك ان الاعضاء والمفاصل تشبه المحال في المدينة . فالرأس وما حوى ، والصدر وما وعى ، والبطن وما ملى ، والرجلان والبدن . واما الاوعية والمجاري التي تشبه المنازل في المحال : فالدماغ والقلب والرئة والطحال والمرارة والمعدة والمصارين والامعاء والكليتان والعروق . وأمّا الحجب والاغشية التي تشبه البيوت في المنازل والدكاكين في الاسواق فالتجويفات التي في الدماغ والرئة والتي في القلب والتي في العظام ، وغير ذلك .

ثم ان في هذه النفس الساكنة في هذا الجسد قوى طبيعية ، واخلاقاً غريزية ، منبثة في اعضاء هذا الجسد تشبه قبائل أهل تلك المدينة وشعوبها النازلين في المحال بتلك المدينة ، وان لتلك القوى وتلك الاخلاق افعالاً وحركات منبثة في أوعية هذا الجسد ومجاري مفاصله تشبه افعال أهل تلك المدينة في منازلهم وحركاتهم في طرقاتها واعمالهم في اسواقهم . فأما القوى الطبيعية والاخلاق الغريزية التي تشبه القبائل والشعوب فهي ثلاثة أجناس .

فمنها قوى النفس النباتية ونزعاتها وشهواتها ، وفضائلها ورذائلها ، ومسكنها الكبد ، وافعالها تجري مجرى الاوراد الى سائر اطراف الجسد . ومنها قوى النفس الحيوانية وحركاتها واخلاقها وحواسها وفضائلها ورذائلها ومسكنها القلب وأفعالها تجري مجرى العروق الضوارب الى سائر

اطراف الجسد . ومنها قوى النفس الناطقة وتمييز اتها ومعارفها وفضائلها ورذائلها ، ومسكنها الدماغ وأفعالها تجري مجرى الاعصاب الى سائر أطراف الجسد .

وهذه النفوس الثلاث ليست متفرقات متباينات بعضها من بعض ، ولكنها كلها كالفروع من أصل واحد متصلات بذات واحدة كاتصال ثلاثة اغصان من شجرة واحدة تتفرع من كل غصن عدة قضبان : ومن كل قضيب عدة أوراق وثمار ...

وان حال الجسد عند مفارقة النفس له تشبه حال تلك المدينة اذا رحل عنها أهلها ، وخلت من ساكنيها ، وباد جيرانها ، وبقيت خراباً ، وصارت مأوى للسباع والبوم ، ثم تساقطت حيطانها وخرت سقوفها وصارت تلالاً وروابٍ لا يتبين فيها إلاّ الحجارة والآجر والطين والتراب ، كذلك حال الجسد عند الموت الذي هو فراق النفس اياه . . . يتغير وينتفخ ويصير مأوى الديدان والذباب والنمل ثم يبلى ويصير تراباً لا يتبين إلاّ العظام والعصب تلوح كما تلوح الحجارة في تلك المدينة وآجرها(١) .

خلق الله الانسان . الذي هو (آدم) ابو البشر ، وفضّله على كثير ممن خلق قبله تفضيلاً جعل أحد فضائله كثرة العلوم وغرائب المعارف ، وجعل له اليها عدة طرقات : فمنها طرق الحواس الخمس التي بها يدرك الامور الحاضرة في المكان والزمان . ومنها طريق استماع الاخبار التي ينفرد بها الانسان دون سائر الحيوانات يفهم بها الامور الغائبة عنه بالزمان

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٢ – ٣٢٣ .

والمكان جميعاً . ومنها طريق الكتابة والقراءة يفهم بها الانسان معـاني الكلام واللغات والاقاويل بالنظر فيهما عمن لم يره من أبناء جنسه مـع الزمان ، أو من هو غائب عنه بالمكان ... وان فهم القراءة والكتابـة ومعرفتها متأخرة عن فهم الكلام والاقاويل ، كما ان فهم الكلام والاقاويل ومعرفتها انما هي متأخرة عن فهم المحسوسات ... يبدأ الطفل بالاحساس ثم يتدرج حتى تتم سن التربية ويفتح الكلام والنطق . ثم بعد ذلك تجيء ايام الكتابة والقراءة والآداب والصنائع والرياضيات وسماع الأخبار والروايات والعفة في الدين والنظر في العلوم والمعارف ، وطلب حقائق الموجودات ، والبحث عن الكائنات ، والاستدلال بالحاضر على الغائبات ، وبالمحسوسات على المعقولات ، وبالجسمانيات على الروحانيات ، وبالرياضيات على الطبيعيات ، وبالطبيعيات على الالهيات التي هي الغاية القصوى في العلوم والمعارف والسعادة الابدية والدوام السرمدية(١) .

لقد جعل الله في جبلة الانسان وطبيعته ألا يأتمر أحد من العقلاء لغيره . ولا يطيعه إلا رغبة أو رهبة . والمرغوب والمرهوب نوعان : عاجل حاضر ، وآجل غائب . والعاجل الحاضر هو ما تشاهده الحواس ، والآجل الغائب هو الذي لا تشاهده الحواس ، ولكن قد تصوره الأوهام بالوصف والنعت . ثم ان الغائب الآجل لا تقع الرغبة والرهبة اليه ومنه إلا بالوعد والوعيد الصادق من العالم القادر ، وكلما كان المرغوب أشد عند الراغب واقرب تحقيقاً كانت الرغبة اليه أوكد وأشد . وهكذا حكم المرهوب منه .

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٨٤ .

وقد رغّب الله تعالى خلقه من الجن والانس في نعيم الجنان ، وجعل الوعد للمؤمنين ، ورهبهم ايضاً من عذاب النيران ، وجعل الوعيد ايضاً للكافرين والاشرار ، وجعل ميعادهم يوم يلقونه إما في الدنيا قبل الممات ، واما في الآخرة بعد الممات والفراق ، وبعث اليهم الرسل والشهداء والانبياء الصادقين ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، ولكن من اجل ان موعده غائب عن ادراك الحواس ، صار اكثر الناس له منكرين ، وفيه شاكين ، وفي ماهيته وآنيته ومتى وقته متحيرين ، واما المؤمنون فهم مقرون بمواعيده ، منتظرون لها .

ولكن من الآراء الفاسدة ، والاعتقادات الرديئة ، ربما ترد على قلوب المقرين شكوك وحيرة وانكار . من ذلك من يرى ويعتقد انـه لا يُجازى ولا يكافأ على احسانه وسيئاته إلاّ في الآخرة بعد الموت ، أو يرى ويعتقد انه لا تكون الآخرة إلاّ بعد خراب الارضين والسموات ؛ وهكذا رأي من يعتقد أن الجنة التي وعد المتقون ليست بموجودة ، وكذلك النار التي حذّر الله عباده منها ليست بموجودة ، ومثل هذه الآراء والاعتقادات تشكك معتقديها في الوعد ، وتقلل رغبتهم فيه . وهكذا حكمهم في الوعيد ، والرهبة منه .

ومن الآراء الفاسدة ايضاً رأي من يرى ويعتقد ان الله الرحيم الرؤوف المنان يعذب الكفار والعصاة في خندق من النار غيظاً عليهم وحنقاً ، وكلما احترقت اجسادهم وصارت فحماً ورماداً عادت فيها الرطوبة والدم لتحرق مرة ثانية . ومن الآراء الفاسدة ايضاً انه يرى بأن أهل الجنـة

أجسادهم لحمية ، واجسامهم طبيعية مثل اجساد ابناء الدنيا ، قابلة للتغيير والاستحالة ، متعرضة للآفات . فاذا تأمل ما وصف الله تعالى في صفات أهل الجنة لا يمسهم فيها نصب ولا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الاولى ، وانهم خالدون ، وما شاكل هذه الاوصاف المذكورة في القرآن ، التي لا تليق بالاجساد اللحمية والاجسام الطبيعية . واعلم انه لا يليق بالعقلاء أن يعتقدوها ، فضلاً عن عقول الحكماء بل النساء والجهال والصبيان جيد لهم ، فان هذا الرأي يليق بافهامهم ، ويصلح لهم ، ويقرب من عقولهم ما وعدوا به ، ويوعدون ، من نعيم الجنان ، ورهبتهم من عذاب النيران ، ويزيدهم خوفاً من سوء أفعالهم فيتركونها ، ويقوى رجاؤهم لثواب اعمالهم . وعليكم بدين العجائز لائق في هذا المقام لا في مقام آخر . وأما من رزقه الله قليلاً من التمييز والعقل والفهم ، ونظر في علوم الحكمة فان هذا الرأي لا يصلح له ، ولا يليق به ، لانه اذا عرضه على عقله انكره عليه . ومن الآراء الفاسدة من يعتقد ان الله خلق خلقاً ، ورباه ، وأنماه ، وأنشأه ، وسلطه ، وقواه على عباده متمكناً في بلاده ، ثم ناصبه بالعداوة والبغضاء ، وهو ابليس وجنوده من الشياطين ، وهم يفعلون ما يريدون على رغم منه ! وهو الجاعل لهم المشيئة والارادة والعداوة والاستطاعة وطول العمر والمهلة وسعة الرزق والنعمة .

هذه الآراء الفاسدة ، والاعتقادات الرديئة ، المؤلمة لنفوس معتقديها تباين رأي أولياء الله — أي « اخوان الصفاء » — واعتقاد الخواص من عباد الله الصالحين ، ومذهب الربانيين الذين اسلموا لربهم ولم يشركوا معه

غيره لا سراً ولا علانية ، وهم الذين صفت قلوبهم عن درن الشهوات الجسمانية ، وطهرت أخلاقهم من العادات الرديئة ، واضمحلت عن ضمائرهم الآراء الفاسدة ، وصانوا جوارحهم عن الاعمال السيئة ، وألسنتهم عن الفحشاء والمنكر ، واخلصوا سرائرهم مع الله ، ولم يعترضوا عليه في شيء من تدبير خلقه سراً وعلانية . فأصلح الله قلوبهم وزكّى نفوسهم ، وطهّر أخلاقهم . فهم لا يضمرون لأحد من خلق الله سوءاً ، ولا يرون لهم على أحد فضلاً ، صالحوا الخلق سراً وجهراً ، كما وصفهم الله تعالى بقوله : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً (الآية) . فهم يمشون على الارض بأجسادهم ونفوسهم متعلقة بالمحل الاعلى(١) .

●

رفض المتصوفة ، ببراعة عقلية ، قدرة العقل على البرهان على الله. واجمعوا على ان الدليل على الله هو الله وحده ، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل في حاجته الى الدليل ، لانه محدَث ، والمحدَث لا يدل إلاّ على مثله . وقال رجل (للنوري) : ما الدليل على الله؟ قال : الله. قال : فما العقل ؟ قال : العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلاّ على عاجز مثله ... وقال (الجنيد) : المعرفة معرفتان : معرفة تعرّف ، ومعرفة تعريف. ومعنى التعرّف أن يعرّف الله عز وجل نفسه ، ومعنى التعريف ان يرى الله آثار قدرته في الآفاق والانفس ، ثم يحدث الله في الانسان لطفاً ، تدلهم

---

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٠ - ٦٤ .

به الاشياء أن لها صانعاً . حتى أن (محمد بن واسع) يقول : ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله فيه . وقال متصوف : ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله . وقال (ابن عطاء) : تعرّف الله تعالى الى العامة بخلقه لقوله : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » . وتعرّف الى الخاصة بكلامه وصفاته بقوله : « أفلا يتدبرون القرآن » ، وتعرّف الى الانبياء بنفسه ، كما قال : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا » . وقال (ابو بكر السباك) : لما خلق الله تعالى العقل قال له : من انا ؟ فسكت . فكحّله بنور الوحدانية ، ففتح عينيه ، فقال : انت الله لا اله إلاّ أنت(١) .

على هذا النحو يرى المتصوفة ان للمعرفة درجات تتبع منزلة العارف ، وتتفاوت بين معرفة العامة والخاصة والانبياء . وان أعمق ضروب المعرفة وأصدقها وأدقها هي تلك التي لا تعرف الله إلاّ بالله . وقد عرّفنا الله تعالى نفسه بنفسه ، ودلّنا على معرفة نفسه بنفسه ، فقام شاهد المعرفة من المعرفة بالمعرفة بعد تعريف المعرّف بها . وما زال الفكر الصوفي حريصاً ، حتى في صياغة شطحاته ، على الاعتبارات العقلية حين يوجز المعاني ، ويحدّها في ألفاظ هي الى الرمز اقرب دلالة منها الى الدلالة العادية أو الاشارية للالفاظ . ولذا يحتاج الناظر الى مفهوم الانسان في الفكر الصوفي الاسلامي الى استجلاء المعنى الرمزي أو الباطن لعلم القلوب ، أو علم الخواطر ، أو علم الاشارة ، ويسمى علم المشاهدة والمكاشفة . ان مشاهدات القلوب.

---

(١) ابو بكر محمد الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف – (تحقيق عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور القاهرة ١٩٦٠ ص ٦٣) .

ومكاشفات الاسرار ، لا يمكن العبارة عنها على التحقيق ، بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ، ولا يعرفها إلاّ من نازل تلك الاحوال ، وحل تلك المقامات . وعن (عبد الواحد بن زيد) قال : سألت (الحسن) عن علم الباطن ، فقال : سألت (حذيفة بن اليمان) عن علم الباطن ، فقال : سألت رسول الله عن علم الباطن ، فقال : سألت (جبريل) عن علم الباطن ، فقال : سألت الله عز وجل عن علم الباطن فقال : هو سرّ من سرّي ، أجعله في قلب عبدي ، لا يقف عليه أحد من خلقي »(١) .

وبالرغم من هذه الهالة المبجّلة المروّعة التي يحيط بها المتصوفة علمهم الباطني ، ولا يرضون إلاّ بأن يرقوا في التسلسل بنسبته الى الله عز وجل ، فاننا سنحاول الالماع الى مفهوم الانسان لدى الصوفية ، وجلاء ما تنطوي عليه نظريتهم في الانسان الكامل بوجه خاص .

كان (الجنيد) يكتفي في تبيان علاقة الله تعالى بعباده في الدنيا والآخرة بقوله : « ان الله تعالى يعامل عباده في الآخر على حسب ما عاملهم في الاول : بدأهم تكرماً ، وأمرهم ترحماً ، ووعدهم تفضلاً ، ويزيدهم تكرماً ، فمن شهد برّه التقديم سهل عليه اداء امره ، ومن لزم امرة أدركه وعده ، ومن فاز بوعده لا بد ان يزيده من فضله »(١) . غير ان فلاسفة المتصوفة يمضون الى الحد الاقصى من فهمهم العشقي لعلاقتهم بالله ، وتمالتهم بالوجد والمناجاة . وقد ذهب (الحلاج) ، أول من ذهب ، الى

---

(١) المصدر السابق ص ٨٧

(٢) المصدر السابق ص ٦٢ .

اقامة مذهبهم في الحلول على اساس القول المأثور ان الله تعالى خلق (آدم) على صورته ، ففرّق (الحلاج) في الطبيعة الانسانية عنصرين هما : اللاهوت والناسوت ، ورأى أنهما طبيعتان لا تتحدان ابداً ؛ بل تمتزجان امتزاج الخمر بالماء . فاذا صح ان الله خلق آدم على صورته ، فهذا يعني أنه خلقه على صورته الالهية ؛ وهذا أول « تأليه للانسان » في الفكـــر الصوفي ، باعتبار الانسان نوعاً خاصاً من الخلق لا يدانيه في لاهوتيته نوع آخـــر .

ثم جاء (ابن عربي) ، وأخذ هذه الفكرة الحلاجية ، ولكنه اعتبر اللاهوت والناسوت مجرد وجهين ، لا طبيعتين منفصلتين ، لحقيقة واحدة ، اذا نظرنا الى صورتها الخارجية سميناها ناسوتاً ، واذا نظرنا الى باطنها وحقيقتها سميناها لاهوتاً . وان صفتي اللاهوت والناسوت ، بهذا المعنى ، صفتان متحققتان ، لا في الانسان وحده ، بل في كل موجود مـــن الموجودات ؛ مرادفتان لصفتي الباطن والظاهر ، أو لكلمتي الجوهر والعرض . والحق الذي يتجلى في جميع صور الوجود يتجلى في الانسان في أعلى صور الوجود وأكملها . ولذا ظهرت فيه هاتان الصفتان ظهوراً لا يدانيه فيه موجود آخر .

جاء في الفص الاول من « فصوص الحكم » قول (ابن عربي) : لما شاء الحق سبحانه من حيث اسماؤه الحسنى التي لا يبلغها الاحصاء ان يرى اعيانها ؛ وان شئت قلت ان يرى عينه ؛ في كون جامع يحصر الامر كله ، لكونه متصفاً بالوجود ، ويظهر به سرّه اليه ؛ فان رؤية الشيء نفسه بنفسه

ما هي مثل رويته نفسه في أمر آخر يكون له كالمرآة ؛ .. وقد كان الحق سبحانه أوجد العالم كله وجود شبح مسوّى لا روح فيه ، فكان كمرآة غير مجلوة ، ومن شأن الحكم الالهي أنه ما سوّى محلاً إلا ويقبل روحاً الهياً عبّر عنه بالنضح فيه . وما هو إلا حصول الاستعداد من تلك الصورة المسواة تقبول الفيض التجلي الدائم .. فاقتضى الامر جلاء مرآة العالم ، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة ، وروح تلك الصورة ، وكانت الملائكة من بعض قوى تلك الصورة التي هي صور العالم المعبّر عنه في اصطلاح القوم « بالانسان الكبير » . فكانت الملائكة له كالقوى الروحانية والحسية التي في النشأة الانسانية »(١) .

ويشرح (القاشاني) هذا الفص الاول . « فص حكمة الهية في كلمة آدمية » . ويبين ان المقصود بكلمة آدم وجود العالم الانساني ، على ان العالم كالخاتم . والانسان كفصه . وان الله سبحانه لما شاء ان يري اعيان اسمائه الحسنى في كون جامع يحصر الامر كله وهو الانسان الكامل ، والعالم معه . واراد الحق ان يظهر عينه في صورة المرآة ، وهي المحل المنظور فيه من وجه لم يظهر له من غير وجود هذا المحل . والله هو عين الوجـــود المحض المطلق الذي هو أظهر الاشياء . ونور الانوار ، فهو يتجلى بذاته لذاته دائماً ، فتسويته للمحل ظهوره في صورة اسم ، وذلك الاسم هو عينه مقيداً بصفة من الصفات القابلية ، فلا يظهر فيه إلا عينه ، وذلك الظهور

---

(١) ابو العلا عفيفي : فصوص الحكم والتعليقات عليه – (فص كلمة الهية في كلمة آدمية) – القاهرة ١٩٤٦ ص ٤٨ .

قبوله للروح ، وعينه هو الموصوف بكل صفة ، إلاّ انه لا يظهر في ذلك المحل إلاّ بصفة واحدة من الصفات الفاعلية وذلك هو الخلق باليدين ، فهو روح الهي ، ومعنى النفخ فيه هو الظهور فيه بتلك الصفة . وقد اقتضى الامر جلاء مرآة العالم المحتاج الى الجلاء ، فكان (آدم) أي حقيقـــة الانسان ، عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة بمناسبة احدية الجمع ؛ فان الحضرة الالهية جامعة الاسماء كلها ، لاواسطة بينها وبين الذات ، فكذلك الحضرة الانسانية جامعة لها ، اذ الوجود ينزل من احدية جمع الذات الى الحضرة الالهية ، وفاض في مراتب الممكنات على الصورة الانتشارية حتى انتهى الى الانسان منصبغاً بصبغ جميع المراتب ، فصار الانسان برزخاً جامعاً لاحكام الوجوب والامكان ، كما كانت الحضرة الالهية جامعة للذات والاسماء كلها ، فظهر فيه ما في الحضرة الالهية ، فكان العالم بوجوده مرآة مجلوة ، ولم تبق واسطة بين الحضرة الانسانية والذات الاحدية ، واذا كان جلاء مرآة العالم كان روح صورته ، وكانت الملائكة من بعض قوى تلك الصورة التي هي صورة العالم المعبر عنـــه في اصطلاح القوم بالانسان الكبير ، فكانت الملائكة له كالقوى الروحانية والحسية التي في النشأة الانسانية ، أي فكانت القوى الروحانية والنفسانية ملائكة وجود الانسان لان قوى العالم اجتمعت فيه بأسرها ، فالانسان عالم صغير ، والعالم انسان كبير ، !وجود الانسان فيه ، إلا ان احدية جمع الوجود التي ناسب بها العالم الحضرة الالهية لم توجد في جميع أجزائه إلاّ في الانسان ، فكان الانسان مختصراً من الحضرة الالهية ، ولهذا قال : خلق

آدم على صورته(١) ...

الانسان اذن هو اكمل مجالي الحق ، وهو « المختصر الشريف » و « الكون الجامع » لجميع حقائق الوجود ومراتبه . إنه هو العالم الاصغر الذي انعكست في مرآة وجوده كل كمالات العالم الاكبر ، أو كمالات الحضرة الالهية الاسمائية والصفاتية . ولذا استحق دون سائر الخلق ان تكون له الخلافة عن الله . والانسان الكامل – المرموز اليه (بآدم) ، هو الجنس البشري في أعلى مراتبه ، أي في مرتبة الانبياء والاولياء خاصة ، وأكمل هؤلاء على الاطلاق هو النبي (محمد) (ص) – لا (محمد) النبي المبعوث بل الحقيقة المحمدية او الروح المحمدي ، لانه هو المظهر الكامل للذات الالهية والاسماء والصفات . وان الانسان الكامل اذا اضفناه الى الحق وجدنا انه بمثابة انسان العين من العين . فكما ان انسان العين هو ما بـــه تبصر العين ، كذلك الانسان هو المجلى الذي يبصر به الحق نفسه – اذ هو مرآته – وهو العقل الذي يدرك به كمال صفاته ، أو هو الوجود الذي ينكشف به سر الحق اليه . وهو علة الخلق والغاية القصوى من الوجود ، لانه بوجوده تحققت الارادة الالهية بايجاد مخلوق يعرف الله حق معرفته ، ويظهر كمالاته . ولولا الانسان لما تحققت هذه الارادة ، ولما عرف الحق . والانسان هو الحافظ للعالم ، والمبقي على نظامه(١) . بل هو الذي يعنيه عندما يبالغ في تكريم الانسان وتعظيم قدره ، لان النشأة الانسانية بكمالها الروحي

---

(١) عبد الرزاق القاشاني : شرح فصوص الحكم – القاهرة ١٣٢١ هـ ص١١ .
(٢) الفص الاول .

والنفسي والجسمي صورة الله التي لا ينبغي ان يتولى حل نظامها سواه ، ولان في حلها حلاً لنظام الكون وضياعاً للغاية المقصودة من وجوده(١) .

يقول (ابن عربي) : « وهذا لا يعرفه عقل بطريق نظر فكري ، بل هذا الفن من الادراك لا يكون إلاّ عن كشف الهي ، منه يُعرف ما أصل صور العالم القابلة لارواحه . فسمّى هذا المذكور انساناً وخليفة ؛ فاما انسانيته فلعموم نشأته وحصره الحقائق كلها ، وهو للحق بمنزلة انسان العين من العين الذي يكون به النظر ، وهو المعبّر عنه بالبصر . فلهذا سمي انساناً ، فانه به ينظر الحق الى خلقه فيرحمهم . فهو الانسان الحادث الازلي والنشء الدائم الابدي والكلمة الفاصلة الجامعة ، قيام العالم بوجوده ، فهو من العالم كفص الخاتم من الخاتم ، وهو محل النقش والعلامة التي بها يختم الملك على خزانته . وسماه خليفة من أجل هذا ، لانه تعالى الحافظ به خلقه ، كما يحفظ الختم الخزائن . فما دام ختم الملك عليها لا يجسر احد على فتحها إلاّ باذنه . فاستخلفه في حفظ الملك . فلا يزال العالم محفوظاً ما دام فيه هذا الانسان الكامل » (٢) .

الانسان صورة الله ، والعالم هو المرآة التي تنعكس عليها هذه الصورة ، والله هو الذات التي الانسان صورة لها . واذ بدأ (ابن عربي) « فصوص الحكم » بحكمة آلهية في كلمة آدمية » فانه ينهي هذه الفصوص بالفص السابع والعشرين وعنوانه : « فص حكمة فردية في كلمة محمدية » . وقد

---

(١) ابو العلا عفيفي : المصدر المذكور ص ٣٨ .
(٢) فص حكمة الهية في كلمة آدمية . (ص ٥٠) .

وصف هذه الحكمة هنا بأنها حكمة فردية لان (محمداً) أكمل موجود في النوع الانساني ، » ولهذا بدىء به الامر وختم : فكان نبياً و (آدم) بين الماء والطين . ثم كان بنشأته العنصرية خاتم النبيين ، وأول الافراد الثلاثة ، وما زاد على هذه الاولية من الافراد فانها عنها . فكان (عليه السلام) أول دليل على ربه ، فانه أوتي جوامع الكلم ، التي هي مسمّيات اسماء آدم ، فأشبه الدليل في تثليثه ، والدليل دليل لنفسه . ولما كانت حقيقته تعطى الفردية الاولى بما هو مثلث النشأة ، لذلك قال في باب المحبة ، التي هي اصل الموجودات : « حُبّب الي من دنياكم ثلاث » بما فيه من التثليث ، ثم ذكر النساء والطيب ، وجعلت قرة عينه في الصلاة . فابتدأ بذكر النساء وأخّر الصلاة ، وذلك لان المرأة جزء من الرجل في اصل ظهور عينها . ومعرفة الانسان بنفسه مقدّمة على معرفته بربه . فان معرفته بربه نتيجة عن معرفته بنفسه . لذلك قال (عليه السلام) : « من عرف نفسه عرف ربه ».. فكان (محمد) (ص) أوضح دليل على ربه ، فان كل جزء من العالم دليل على أصله الذي هو ربه . فافهم . فانما حُبّب اليه النساء فحنّ اليهن لانه من باب حنين الكل الى جزئه ، فأبان بذلك عن الامر في نفسه من جانب الحق في قوله في هذه النشأة الانسانية العنصرية : « ونفخت فيه مـــن روحي » . ثم وصف نفسه بشدة الشوق الى لقائه فقال للمشتاقين : « يا داود اني اشد شوقاً اليهم » ... فهو يشتاق لهذه الصفة التي لا وجود لها إلا عند الموت .. كما قال تعالى في حديث التردد : « ما ترددت في شيء انا فاعله ترددي في قبض عبدي المؤمن يكره الموت ، واكره مساءته ، ولا

بدّ له من لقائي ، فبشّره ... فلما أبان انه نفخ فيه من روحه ، فما اشتاق إلا لنفسه ، ألا تراه خلقه على صورته لانه من روحه ؟ ... ثم اشتق له منه شخصاً على صورته سماه امرأة ، فظهرت بصورته ، فحنّ اليها حنين الشيء الى نفسه ، وحنت اليه حنين الشيء الى وطنه ، فحببت اليه النساء ، فان الله أحب من خلقه على صورته ، وأسجد له ملائكته النوريين ، على عظم قدرهم ومنزلتهم وعلو نشأتهم الطبيعية ، فمن هناك وقعت المناسبة . والصورة أعظم مناسبة واجلها وأكملها : فانها زوجٌ ، أي شفعت وجود الحق ، كما كانت المرأة شفعت بوجودها الرجل فصيرته زوجاً . فظهرت الثلاثة : حق ، ورجل ، وامرأة . فحنّ الرجل الى ربه الذي هو أصله حنين المرأة اليه . فحبّب اليه ربه النساء كما احب الله من هو على صورته . فما وقع الحب إلا لمن تكوّن عنه ، وقد كان حبه لمن تكوّن منه ، وهو الحق . فلهذا قال « حُبّب » ولم يقل : أحببت من نفسه لتعلق حبه بربه الذي هو على صورته حتى في محبته لامرأته ، فانه احبها بحب الله اياه تخلقاً الهيـاً » .

ويمضي (ابن عربي) في حديثه عن « فص الكلمة المحمدية » متابعاً الحد الاول مما (حبّب) الى الرسول ، وهو المرأة فيقول : « ولما أحب الرجل المرأة طلب الوصلة ، أي غاية الوصلة التي تكون في المحبة ، فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم من النكاح ، ولهذا تعمّ الشهوة اجزاءه كلها ، ولذلك أمر بالاغتسال منه ، فعمت الطهارة كما عمّ الفناء فيها عند حصول الشهوة . فان الحق غيور على عبده ان يعتقد أنه يلتذ بغيره ، فطهّره

بالغسل ، ليرجع بالنظر اليه فيمن في فيه ، اذ لا يكون إلاّ ذلك . » .
ويفلسف (الشيخ الاكبر) شهود الحق في النساء على انه اعظم الشهود وأكمله فيقول : « فاذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان شهوداً في منفعل ، واذا شاهده في نفسه ، — من حيث ظهور المرأة عنه — شاهده في فاعل ، واذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكوّن عنه كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة . فشهوده للحق في المرأة أتم وأكمل ، لانه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل ، ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة ، فلهذا احب (صلى الله عليه وسلم) النساء لكمال شهود الحق فيهن ، اذ لا يشاهد الحق مجرداً عن المواد ابداً ، فان الله بالذات غني عن العالمين . واذا كان الامر من هذا الوجه ممتنعاً ، ولم تكن الشهادة إلاّ في مادة ، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله » .

« ان اعظم الوصلة النكاح ، وهو نظير التوجه الالهي على من خلقه على صورته ليخلقه فيرى فيه نفسه ... فمن أحب النساء على هذا الحد فهو حب الهي ، ... ومن جاء لامرأته — أو لانثى حيث كانت — لمجرد الالتذاذ ، ولكن لا يدري لمن — فجهل من نفسه ما يجهل الغير منه .. فقد أحبّ الالتذاذ فأحب المحل الذي يكون فيه وهو المرأة ، ولكن غاب عنه روح المسألة » . وقد كان حب (محمد) (ص) للنساء عن تحبب الهي ، وانما قدّم النساء لانهن محل الانفعال ، ... وبدأ بالنساء وختم بالصلاة ، وكلتاهما تأنيث ، والطيب بينهما لهو في وجوده ، فان الرجل مدرج بين ذات ظهر عنها ، وبين امرأة ظهرت عنه ، فهو بين مونثين ، تأنيث ذات

وتأنيث حقيقي ، كذلك النساء تأنيث حقيقي والصلاة تأنيث غير حقيقي ، والطيب مذكر بينهما (كآدم) بين الذات الموجود عنها وبين (حواء) الموجودة عنه .. واما حكمة الطيب وجعله بعد النساء ، فلما في النساء من روائح التكوين ، فانه أطيب الطيب عناق الحبيب ... ومن لم يدرك الطيب من الخبيث فلا ادراك له ... وأما الثالث الذي به كملت الفردية فالصلاة . فقال : « وجعلت قرة عيني في الصلاة لانها مشاهدة ، وذلك لانها مناجاة بين الله وبين عبده كما قال : « فاذكروني اذ كركم » . وهي عبادة مقسومة بين الله وبين عبده بنصفين : فنصفها لله ، ونصفها للعبد ... ولما كانت مناجاة فهي ذكر ، ومن ذكر الحق فقد جالس الحق وجالسه الحق ، فانه صح في الخبر الالهي أنه تعالى قال : انا جليس من ذكرني . ومن جالس من ذكره وهو ذو بصر رأى جليسه . فهذه مشاهدة وروية . فان لم يكن ذا بصر لم يره ... فانظر علو رتبة الصلاة والى أين تنتهي بصاحبها . فمن لم يحصّل درجة الرؤية في الصلاة فما بلغ غايتها ، ولا كان له فيها قرة عين لانه لم يرَ من يناجيه ... وأما قوله : « وجعلت قرة عيني في الصلاة — ولم ينسب الجعل الى نفسه — فان تجلّي الحق للمصلي انما هو راجع اليه تعالى ، لا الى المصلي ... وليس إلاّ مشاهدة المحبوب التي تقرّ بها عين المحب : من الاستقرار : فتستقر العين عند رؤيته فلا تنظر معه الى شيء غيره في شيء وفي غير شيء » .

الصلاة قرة عين الرسول . والصلاة ذِكْر ورؤية ومشاهدة . يقول (ابن عربي) : « وصف الله تعالى نفسه لنا بنا ، فاذا شهدناه شهدنا

نفوسنا ، واذا شَهِدنا شهد نفسه . ولا نشك أنا كثيرون بالشخص والنوع ، وانّا وان كنا على حقيقة واحدة تجمعنا فنعلم قطعاً ان ثم فارقاً به تميزت الاشخاص بعضها عن بعض ، ولولا ذلك ما كانت الكثرة في الواحد . فكذلك ايضاً ، وإن وصَفَنا بما وصف نفسه من جميع الوجوه فلا بد من فارق ، وليس إلاّ افتقارنا اليه في الوجود وتوقف وجودنا عليه . لا مكاننا وغناه عن مثل ما افتقرنا اليه . فبهذا صح له الازل والقدم الذي انتفت عنه الاولية التي لها افتتاح الوجود عن عدم . فلا تنسب اليه الاولية مع كونه الاول . ولهذا قيل فيه الآخِر . فلو كانت اوليته اولية وجود التقييد لم يصح ان يكون الآخِر للمقيّد ، لانه لا آخر للممكن ، لان الممكنات غير متناهية ، فلا آخر لها . وانما كان آخِراً لرجوع الامر كله اليه بعد نسبة ذلك الينا . فهو الآخر في عين اوليته ، والاول في عين آخريته » (١) .

على هذا النحو يحدّد (ابن عربي) علاقة الله بالانسان ، والانسان بالله ، وقد وصف الحق نفسه بأنه ظاهر باطن ، وجمع في (آدم) بين الصورتين : صورة العالم وصورة الحق ، واستخلفه في الارض ، والخلافة لا تصح إلا للانسان الكامل ، ولذا انشأ الله صورة (آدم) الظاهرة من حقائق العالم وصوره وانشأ صورته الباطنة على صورته تعالى ، ولذلك قال : « كنت سمعه وبصره » ، ولولا سريان الحق في الموجودات بالصورة ما كان للعالم وجود ... ومن هنا كان نشأة جسد آدم ، اعني صورته الظاهرة ، ونشأة روح آدم ، اعني صورته الباطنة ، فهو الحق الخلق ؛ وآدم هـو

---

(١) فص حكمة الهية في كلمة آدمية ص ٥٤ .

النفس الواحدة التي خلق منها النوع الانساني . ولذا فان الانسان المرموز اليه بآدم هو الانسان الكامل ، وهو الجنس البشري في أكمل مراتبه . ولكنه لا يصدق في الحقيقة إلا على أرقى مراتب الانسان ، واعني مرتبة الانبياء والاولياء . وأكملهم بوجه الاطلاق هو (محمد) (ص) . ولكن (محمداً) هنا ليس هو النبي المبعوث المرسل المعروف ، بل الحقيقة المحمدية الازلية الابدية . انه هو المظهر الكامل حقاً للذات الإلهية . والانسان الكامل هو « الكون الجامع » ، وفيه يجتمع التثليث في واحد ، أو يتجلى الواحد الحق في ثلاث صور : صورة حقيقة الحقائق ، وصورة الحقيقة المحمدية ، وصورة الانسان الكامل ، والكل في النهاية واحد .

الانسان الكامل هو الذي يستحق الاسماء الذاتية والصفات الالهية ، ومثاله للحق هو مثال المرآة التي لا يرى الشخص صورته إلا فيها ، وهو مرآة الحق ، لان الحق تعالى اوجب على نفسه ألا ترى اسماؤه وصفاته إلا في الانسان الكامل ، و (محمد) هو الانسان الكامل الذي هو مقابل للحق وللخلق ، وله ثلاث برازخ يمكن ان يصل بعدها الى مقام الختام . الاول هو البداية : وفيه يتحقق بالاسماء والصفات . والثاني : يسمى التوسط . وهو فلك الرقائق الانسانية بالحقائق الرحمانية . فاذا استوفى هذا المشهد علم سائر الممكنات والمغيبات . والثالث : معرفة التنوعات الحكمية في اختراع الامور القدرية ، ولا يزال الانسان تخرق له العادات في ملكوت القدرة حتى يصير له خرق العوائد عادة في فلك الحكمة ، فحينئذ يؤذن له بابراز القدرة في ظاهر الاكوان ، فاذا تمكن من هذا البرزخ حل في

مقام الختام ، والناس في هذا المقام مختلفون ، فكامل وأكمل ،وفاضل وأفضل .

يتضح اذن ان (ابن عربي) ، الشيخ الاكبر ، يرقى بالانسان الى خلافة الله تعالى والنيابة عنه في العالم ، فلا يظل الانسان كائناً مشدوداً بين البهيمة والملك . يقول : « ان الله تعالى علم نفسه فعلم العالم . فلذلك خرج على الصورة وخلق الانسان مختصراً شريفاً جمع فيه معاني العالم الكبير ، وجعله نسخة لما في العالم الكبير ، ولما في الحضرة الالهية من الاسماء . وقال فيه رسول الله (ص) : ان الله خلق آدم على صورته ، فلذلك قلنا : خرج العالم على الصورة — وفي هذا الضمير الذي في « صورته » خلاف : لمن يعود؟ لارباب العقول : وفي قولنا : « علم نفسه » غنية لمن تفطن وكان حديد القلب بصيراً ، ولكون الانسان الكامل على الصورة الكاملة صحت له الخلافة والنيابة عن الله تعالى في العالم »(١) .

والحق ان من تفطن في قول (ابن عربي) لمعنى « علم نفسه » في عبارة « ان الله تعالى علم نفسه » رأى بالبصيرة ان صاحب مذهب « وحدة الوجود » لا يقتصر على اعتبار الانسان خليفة الله في العالم ، ونائبه في الارض ، بل انه يمنح الانسان منزلة عليا لا يعرفها عقل بطريق نظر فكري ، بل بكشف الهي . وما سمي الانسان انساناً إلاّ لانسانيته ، أي لعموم نشأته وحصره الحقائق كلها ، وكونه للحق بمنزلة انسان العين من

---

(١) « عقلة المستوفز » في « رسائل صغيرة لابن عربي » نشرها نيبرغ (ليدن ١٩١٩) ص ٤٥ .

العين الذي يكون به النظر . وهو المعبّر عنه بالبصر ، فانه بالانسان ينظر الحق الى خلقه فيرحمهم . ولذا فالانسان هو الحادث الازلي ، ومنشيء الدائم الابدي ، والكلمة الفاصلة الجامعة . قيام العالَم بوجوده ، وقد ألمعنا الى ان الانسان هو من العالم كفص الخاتم من الخاتم ، وانه محل النقش والعلامة التي يختم بها الملك على خزانته ، لانه تعالى الحافظ به خلقه كما يحفظ الختم الخزائن . فما دام ختم الملك عليها لا يجسر أحد على فتحها إلا باذنه . فاستخلفه الله في حفظ الملك ، فلا يزال العالم محفوظاً ما دام فيه الانسان الكـــامل ...

وقد انطلق (عبد الكريم الجيلاني) او (الجيلي) ، في كتابه « الانسان الكامل في معرفة الاواخر والاوائل » من مذهب (ابن عربي) ، واوضحه ووسّعه ، ورأى ان « الانسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه افلاك الوجود ، من أوله الى آخره ، وهو واحد منذ كان الوجود الى ابد الآبدين. ثم له تنوع في ملابس ، ويظهر في كنائس : فيسمى به باعتبار لباس ، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر . فاسمه الاصلي الذي هو له : محمد . وكنيته : ابو القاسم . ووصفه : ابو عبد الله . ولقبه : شمس الدين . ثم له باعتبار ملابس اخرى أسام . وله في كل زمان اسم يليق بلباسه في ذلك الزمان » . ويؤكد (الجيلي) انه اجتمع بالرسول وهو في صورة شيخه (شرف الدين اسماعيل الجبرتي) سنة ست وتسعين وسبعمائة . ويوضح ان سر هذا الامر هو « تمكنه (ص) من التصور بكل صورة . فالاديب اذا رآه في الصورة المحمدية التي كان عليها في حياته فانه يسميه باسمه .

واذا رآه في صورة ما من الصور ، وعلم انه (محمد) فلا يسميه إلا باسم تلك الصورة ، ثم لا يوقع ذلك إلا على الحقيقة المحمدية »(١) .

ويأتي (الجيلي) إلا ان يؤكد على ان الحق سبحانه وتعالى موجود في الانسان بغير حلول ، وان في قدرة الانسان ، كما ذكرنا ، ان « يتصرف » في عالم الاكوان . « وكما ان من امارات الساعة الكبرى ان تلد الأمة ربتها ، وان ترى الحفاة العراة رعاة الشاء يتطاولون في البنيان ، فكذلك الانسان من علامة قيام ساعته الخاصة به ظهور ربوبيته سبحانه وتعالى في ذاته ، فذات الانسان هي الأمة ، والولادة هي ظهور الامر الخفي من باطنه الى ظاهره » ، لان الولد محله البطن ، والولادة بروز الى ظاهر الحس ، فكذلك الحق سبحانه وتعالى موجود في الانسان بغير حلول ، وهذا الوجود باطن ، فاذا ظهر بأحكامه ، وتحقق العبد بحقيقته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ظهر الحق تعالى في وجود هذا الانسان ، فتمكن من التعرف في عالم الاكوان ؛ فذاته بمثابة الأمة ، وآثار ربوبيته الحق بمثابة الربة ، وظهورها بمثابة الولادة » (٢) .

الانسان الكامل اذن يقابل الحقائق الوجودية كلها بنفسه . فهو يقابل الحقائق العلوية بلطافته ، ويقابل الحقائق السفلية بكثافته . ومن (محمد) الانسان الكامل ، بل من الصورة المحمدية خلق الله الجنة والنار وما

---

(١) عبد الكريم الجيلاني : الانسان الكامل . (القاهرة ١٩٤٩) ج ٢ ص ٤٦ .
(٢) عبد الكريم الجيلاني — المصدر السابق ج ٢ ص ٤٩ — ٥٠ .

فيهما من نعيم المؤمنين ، وعذاب الكافرين . خلق الله تعالى صورة (آدم) عليه السلام نسخة من تلك الصورة المحمدية . فلما نزل (آدم) من الجنة ذهبت حياة صورته لمفارقته عالم الارواح ، وقد كان لا يتصور — عندما كان في الجنة — شيئاً في نفسه إلاّ ويوجده الله في حسه . وجميع من يدخل الجنة يتم له ذلك . والجنان على ثمان طبقات ، كل طبقة فيها جنان كثيرة ، في كل جنة درجات لا تحصى ولا تحصر . فالطبقة الاولى تسمى جنة السلام وتسمى جنة المجازاة وقد خلق الله باب هذه الجنة من الاعمال الصالحة وتجلى الله فيها على أهلها باسمه : « الحسيب » فصارت جزاء محضاً . والطبقة الثانية تسمى جنة الخلد وجنة المكاسب ، وقد تجلى الله على اهلها باسمه : « البديع » ، فظهرت لاهل العقائد الحسنة . والطبقة الثالثة تسمى جنة المواهب ، وتجلى الله على أهلها باسمه : « الوهاب » ، وهي اوسع الجنات ؛ والطبقة الرابعة تسمى جنة الاستحقاق وجنة النعيم وجنة الفطرة وليس لها سقف إلا العرش ، واهلها هم الابرار ، وتجلى الله عليهم باسمه : « الحق » . والطبقة الخامسة تسمى بالفردوس وهي جنة المعارف ، وسقفها سقف الباب ، باب العرش ، وأهلها في مشاهدة تامة ، فهم الشهداء ، شهداء الجمال والحسن الالهي . والطبقة السادسة تسمى الفضيلة ، وأهلها هم الصديقون ، وهي جنة الاسماء ، وهي منبسطة على درجات العرش ويسمى أهلها أهل اللذة الالهية . والطبقة السابعة تسمى الدرجة الرفيعة وهي جنة الصفات من حيث الاسم ، وجنة اللذات من حيث الرسم ، أرضها باطن العرش وأهلها يسمون أهل التحقق بالحقائق الالهية . والطبقة الثامنة

وتسمى بالمقام المحمود وهي جنة الذات ، ارضها سقف العرش ، ليس لاحد اليها طريق . وكل من أهل جنة الصفات طالب للوصول اليها ، يزعم انها معقودة باسمه دون غيره ، وزعم الكل حق ، ولكن هي (لمحمد) (ص) لقوله : ان المقام المحمود أعلى مكان في الجنة ، وانها لا تكون إلا لرجل واحد ، وأرجو ان اكون انا ذلك الرجل (١) .

خلق الله الصورة المحمدية من نور اسمه البديع القادر . ونظر اليها باسمه المنان القاهر ، ثم تجلى عليها باسمه اللطيف الغافر . فعند ذلك تصدعت لهذا التجلي صدعين ، فصارت كأنها قسمت نصفين ، فخلق الله الجنة من نصفها المقابل لليمين ، وهو القسم المنظور اليه باسمه : المنان . ثم خلق النار من النصف المقابل للشمال ، وهو القسم المنظور اليه باسمه : القاهر . ولما كان أمر النار عارضاً في الوجود جاز زوالها ، وليس زوالها إلا اذهاب الاحراق عنها ، وبذهاب الاحراق عنها تذهب ملائكتها ، وبذهاب ملائكتها ترد ملائكة النعيم ، فينبت بورود ملائكة النعيم في محلها شجر الجرجير ، وهو خضرة وأحسن لون في الجنة لون الخضرة . فانعكس ما كان جحيماً الى ان صار نعيماً كما في قصة (ابراهيم) حيث قال الحق سبحانه لناره : « كوني برداً وسلاماً على ابراهيم » فصارت رياحين وجنات ، ومحلها باق على ما هو عليه .

وعندما خلق الله تعالى النار من اسمه القهار ، جعلها مظهر الجلال ، وتجلى عليها سبع تجليات فصارت تلك التجليات أبوابها . التجلي الاول

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦ .

تجلى عليها باسمه : « المنتقم » فانفتح فيها واد له ثلثمائة وستون ألف درك ، بعضها تحت بعض ، تسمى لظى . خلق الله باب هذا الوادي من ظلمة المعصية والذنب . وأهلها هم المجرمون . وعذابهم مع شدته أخف من عذاب جميع اهل الطباق . والتجلي الثاني تجلى عليها باسمه : « العادل » . فانفتح فيها واد يسمى جحيماً ، له سبعمائة ألف وعشرون ألف درك ... وباب هذا الوادي من الفجور . والتجلي الثالث تجلى عليها باسمه : « الشديد » فانفتح فيها واد يسمى العسرى ، له الف الف واربعمائة الف واربعون الف درك .. وباب هذا الوادي من البخل وطلب التكثر من المال ومن الحقد والحسد والشهوة وحب الدنيا .. والتجلي الرابع تجلى عليها بصفة « الغضب » فانفتح فيها واد يسمى الهاوية وهو أسفل دركات النار ، له الف الف وثمانمائة ألف وثمانون ألف درك .... باب هذا الوادي من النفاق والرياء والدعاوى الكاذبة . والتجلي الخامس تجلى عليها باسمه : « المذل » فانفتح فيها واد يسمى سقر له خمسة آلاف الف وسبعمائة الف وستون الف درك ... باب هذا الوادي من التكبر . التجلي السادس تجلى عليها باسمه : « ذي البطش » فانفتح فيها واد يسمى السعير ، له أحد عشر الف الف وخمسمائة الف وعشرون الف درك .. وباب هذه الطبقة من الشيطنة وهي نار تثور من دخان النفس بشرر الطبيعة فتحدث منهـــا الفتن والغضب والشهوة والمكر والالحاد . والتجلي السابع تجلى عليها باسمه « ذي عقاب أليم » فانفتح فيها واد يسمى جهنم ، دركاتها ثلاثة وعشرون الف الف درك واربعون الف درك ، بين كل درك ودرك احقاب لا تكاد

تتناهى إلا في القدرة .. وباب هذه الطبقة من الكفر والشرك .

يقول (الجيلاني) : « لا حاجة لنا في ذكر انواع العذاب وصفة أهوال ملائكة النار لان الكتب مشحونة بذلك » . ولكنه يردف قائلاً : « اعلم ان لاهل النار لذة فيها تشبه لذة المحاربة والمضاربة عند من خلق لذلك . فانا قد رأينا كثيراً من الناس يتلذذون بالمحاربة والمضاربة ، وهم عارفون انهم يتألمون بذلك ، ولكن الربوبية الكامنة التي هي في النفس تحملهم على خوض ذلك . ثم ان لهم لذة اخرى تشبه لذة من به جرَب ، فيحكّه ، فهو وان كان يقطع من جلد نفسه يتلذذ بذلك الحك . فهو بين عذاب ولذة . ولهم لذة اخرى تشبه لذة الجاهل المستغني برأيه ولو اخطأ . مثاله فيما شهدناه وهو أني رأيت رجلاً بالهند في بلدة تسمى (كوشى) سنة تسعين وسبعمائة ، كان عمد الى ثلاثة رجال من أكابر الناس ، فقتلهم متفرقين ، وكان اذا قتل واحداً هرب الى الآخر فقتله حتى استوفى الثلاثة الانفار ، فلما قبض وجيء ليضرب عنقه ، تقدمت اليه ، فقلت له : ماذا صنعت ؟ فقال : اسكت يا فلان ، والله لقد صنعت شيئاً وهو يعظم أمر نفسه ؛ ووجدته في لذة لعمري ما أظنه التذ قبلها بمثلها ، على أنه في حالة مما فعل به من الضرب والاسر ، وما هو بصدده مما سيفعل به من القتل والصلب ، كان متلذذاً في نفسه بهذه اللذة العظيمة » .

لم يدر في خلد (الجيلاني) ، وهو يذكر ما أدهشه من لذة الجاهل المستبد برأيه ما يدور اليوم في خلد ارباب التحليل النفسي ، ويمضي في حديثه عما يسميه التذاذ أهل النار فيقول : « ولهم ، أي لاهل النــار ،

لذة اخرى تشبه لذة العاقل بعقله عند تخطئته للجاهل الذي وافقته الاقدار ، وساعده تقلب الليل والنهار ، فهو وإن كان يستحسن الامور التي حصلت للجاهل ، لا يرضى بحالته ولا يصنع مثل صنع الجاهل مما تحصل به تلك السعادة ، بل يبقى خائضاً في بحار شقاوته ، ولازماً لرئاسة نفسه ، باقياً على ما يقتضيه عقله ، متلذذاً بحالة نفسه »(١) .

ويؤكد (الجيلي) ، في إثر (الشيخ الاكبر) ، ان الآخرة بجملتها ، اعني الجنة والنار ، والاعراف والكثيب ، كلها دار واحدة ، وهذا هو منطق « وحدة الوجود » في الدارين . والفرق بين أهل الكثيب واهل الاعراف هو أن أهل الكثيب خرجوا من دار الدنيا قبل ان يتجلى عليهم الحق فيها ، فلما انتقلوا الى الآخرة كان محلهم في الجنة ، ويتفضل الحق عليهم بأن يخرجهم الى الكثيب ، فيتجلى عليهم هنالك يتجلى على كل بقدر ايمانه بالله تعالى في الدنيا ، وبمعرفته بقدرة سبحانه وتعالى . وأهل الاعراف قوم لم يخرجوا من الدنيا إلا وقد تجلى الله سبحانه وتعالى عليهم وعرفوه فيها فلما خرجوا منها الى الآخرة لم يكن لهم محل إلا عنده ، لان من دخل بلاداً وله فيها صاحب يعرفه لا ينزل إلا عنده ، بل ويجب على ذلك الصاحب أن لا ينزله إلا عنده فاذا كان هذا يفعله المخلوق فمن أولى به من الخالق تعالى ، ألا تراه قد صرح سبحانه وتعالى ان ثمة قوماً هم عند مليك مقتدر ، وهنا عجائب وغرائب لا يسع الوجود بأسره ان نذكرها على سبيل التصريح ، بل هي لدقتها وغموضها لا تفهم إلا بالاشارة والتلويح »(٢) .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٧ .

تحدث (ابو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي) عن نظرة الشيعة الاثنا عشرية الى خلق الله العالم فقال : روي ان الله جل وعلا خلق الجن والنسناس ، واسكنهم الارض ، فسفكوا الدماء ، وغيّروا وبدلوا ، فأهبط الله ابليس اللعين في جند من الملائكة ، وكان اسمه (عزرائيل) ، فأبادوا الجن والنسناس الى اطراف الارض ، وسكن ابليس ومن معه العمران ، وكان يحكم بين اهل الارض ، ويتشبه بالملائكة ، ولم يكن منهم ، ويظهر الطاعة لله ، ويبطن المعصية ، ثم ، لعنه الله ، أظهر معصية الله وحكم بخلاف ما أمر الله ، وغيّر وبدّل ، فلما اراد الله ان يخلق آدم ، وذلك بعد أن مضى للجن والنسناس سبعة آلاف سنة ، وبعد أن مضى لابليس حين من الدهر ، كشف عن اطباق السموات ، ثم قال للملائكة انظروا الى اهل الارض من خلقي ، فلما رأى الملائكة الفساد في الارض ، وسفك الدماء ، عظم ذلك عليهم ، فأوحى الله اليهم : « اني جاعل في الارض خليفة » يكون حجة لي على من في الارض على خلقي ، فقالت الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » فقالوا : اجعله منا ، فانا لا نفسد في الارض ولا نسفك الدماء . فقال : « اني اعلم مالا تعلمون » ، اني اريد ان اخلق خلقاً بيدي ، واجعل من ذريته انبياء مرسلين ، وعباداً أئمة مهديين أجعلهم خلفاء على خلقي ، وحججاً ينهون عن معصيتي .... واغترف تبارك وتعالى من ذات اليمين بيمينه من الماء العذب الفرات فصلصاها فجمدت ثم قال لها : منك أخلق النبيين والمرسلين وعبادي الصالحين الأئمة المهديين والدعاة الى الجنة

واتباعهم الى يوم القيامة ... ثم اغترف غرفة من المالح الاجاج من ذات الشمال ، فصلصلها فجمدت فقال لها منك اخلق الخنازير والفراعنة وائمة الكفر والدعاة الى النار واتباعهم الى يوم القيامة(١) ... ويؤكد (المسعودي) في حديثه عن معراج النبي (ص) الى السماء أن الله جل وعلا فرض على أمته بعد الصلاة الصيام ، ثم فرض زكاة الفطرة ثم زكاة الاموال ثم الحج بعد الفرائض ثم الجهاد ، ثم ختم جميع ذلك بالولاية (٢) . وقد سأل الله رسوله عندما بلغ السماء السابعة وكان من ربه كقاب قوسين أو أدنى فقال له : من لامتك من بعدك ؟ فقال : الله أعلم . فقال الله تعالى : (علي بن ابي طالب) امير المؤمنين ، فكانت امامته من الله مشافهة(٣) .

على هذا النحو يرمز (المسعودي) الى النظرة الشيعية للتاريخ العربي في صدر الاسلام وما بعده بخصام سابق جرى في الارض بين ابليس والجن والنسناس ، وبين آدم الذي خلقه الله بيده ، واستخلفه في الارض ، وجعل في طينته عنصرين احدهما من العذب الفرات ومنه أئمة الهدى ، والآخر من المالح الاجاج ومنه ائمة الكفر . ورأى ان الله تعالى ابلغ (محمداً) امامة (علي بن أبي طالب) ، أمير المؤمنين ، بطريق المشافهة . ويتفق الشيعة جميعاً على ان الرسول (محمد) صدع بالامر ، واعلن ولاية امير المؤمنين (علي بن ابي طالب) يوم غدير خم حين قال : « ايها الناس ، اعلموا ان

---

(١) المسعودي: إثبات الوصية للامام علي بن أبي طالب . - (النجف - الطبعة الرابعة ١٩٥٥) ص ١١ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٨ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٨ .

(علياً) مني بمنزلة (هارون) من (موسى)، ألا انه لا نبي بعدي، وهو وليكم بعدي، فمن كنت مولاه (فعلي) مولاه». ثم رفع يديه حتى روئي بياض ابطيه فقال: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار». وقد روي عن (الرسول) انه قال: كنت انا و (علي) نوراً في جبهة آدم، فانتقلنا من الاصلاب الطاهرة الى الارحام المطهرة الزاكية حتى صرنا في صلب (عبد المطلب) فصار قسم في (عبد الله)، وقسم في (ابي طالب)، فخرجت من (عبد الله) وخرج (علي) من (ابي طالب)، وهو قول الله تعالى: «الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً، وكان ربك قديراً»(١).

وينسب (المسعودي) الى (علي بن ابي طالب) انه خطب خطبة في انتقال رسول الله من آدم الى ان وُلد، ومما جاء فيها قول (علي): «انا علم الهدى، وكهف التقى، ومحل السخاء، وبحر الندى، وطود النهى، ومعدن العلم، والنور في ظلم الدجى، ... انا صاحب القبلتين، وحامل الرايتين، فهل يوازى في أحد؟ وانا ابو السبطين، فهل يساوى بي بشر؟ وأنا زوج خير النسوان، فهل يفوقني رجل؟ انا القمر الزاهر بالعلم، الذي علمني ربي، والفرات الزاخر، اشبهت من القمر نوره وبهاءه، ومن الفرات بذله وسخاءه، ايها الناس، بنا أنار الله السبيل، واقام الميل، وعُبد الله في ارضه، وتناهت اليه معرفته في خلقه ....(٢).

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٩.   (٢) المصدر السابق ص ١٢٨.

وقف الشيعة الاثنا عشرية عند الامام الثاني عشر . واسموه صاحب الزمان ، وقالوا ان له غيبة ورجعة ، وانه هو المهدي المنتظر الذي سيملأ الارض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً . وبذا يكون الامام السادس ، جعفر الصادق ، قد نص على امامة ابنه الاكبر (اسماعيل) بعده ، غير أن (اسماعيل) كان سكيراً ، في رواية ، أو انه توفي في حياة أبيه في رواية اخرى ، فنقلت الامامة الى (موسى الكاظم) ، وهو الوليد الرابع من بين سبعة اولاد . ونجم عن هذا الخلاف في الرأي انقسام الشيعة ، وتمايز الفرقة الاسماعيلية أو السبعية ، والتي عرفت من ناحية اخرى بأنها التعليمية او التأويلية او الباطنية .

روى (الحميري) عن الامام (الرضا) انه قال : من احب أن لا يكون بينه وبين الله حجاب ، وأن يرحمه الله فليس له إلاّ حب آل محمد ، وألاّ يكون من اعدائهم ، وان يتبع الامام من جملتهم . فمن فعل ذلك فلينتظر رحمة الله وكرمه ، ولا ينقطع عن نظر رحمة الله . وروى (الكليني) ، و (البرقي) ، و (النعماني) ، بالسند المعتبر ، عن الامام (الباقر) انه قال : من عبد الله عبادة اهتمام وتعب ولم يعتقد بامام عادل ، وانه منصوب من الله ، فلا يقبل الله منه سعياً .. ومن مات لا امام له مات ميتة جاهلية(١) .

ان مفهوم الامام لدى الشيعة يشغل مركز الاهتمام الرئيسي ، ومعرفته

---

(١) دوايت م . دونلدسن : عقيدة الشيعة — الترجمة العربية — القاهرة ١٩٤٦ ص ٣٤٥ .

واجب محتوم ، لان بمعرفته معرفة الحقيقة كلها . وهذه الحقيقة تختلف ، في الحق ، باختلاف الفرق الشيعية ، من حيث تفاصيل نظريتها ، وبينما تقتصر الامامية الاثنا عشرية على اعتبار ان الاقرار بالامام اصل من اصول الدين ، وأن لا عذر للانسان في ترك ولاية الامام الحق ، تمضي الاسماعيلية الى فرض اتباع الأئمة فرضاً فتقرن اطاعة الامام باطاعة الرسول ، ثم تخطو خطوات اخرى تنتهي الى اعلاء شأن الامام حتى يبلغ الدرجة القصوى ، فيصبح الامام بمثــابة (محمد) نفسه اولاً ، ثم يجاوز الامام (محمداً) الرسول ، وتغدو الحقيقة الامامية كالحقيقة المحمدية في نظرية « الانسان الكامل » التي قال بها المتصوفة .

اعلن القــاضي (النعمان بن محمد المغربي) انه « يلزم في الفرض الموجب من التعزيز والتوقير والطاعة والتسليم بالنية والقول والعمل والقبول ، لكل امام على اهل عصره ما كان يجب منه لرسول الله (ص) على اهل زمانه ودهره ، وان كانت درجة النبوة أعلى واجل وفوق درجة الامامة ، وفضل الانبياء أعظم من فضل الأئمة ، فان الطاعة واحدة ، موصولة ، قد قرنها الله تعالى بطاعته »(١) .

الطاعة واحدة اذن ، وهي فرض على اهل كل عصر حيال إمــام زمانهم ، مثلما كانت اطاعة الرسول فرضاً على اهل زمانه ودهره . ترى هل وقفت اطاعة الرسول بعد انصرام زمانه ودهره لتحل محلها اطاعة امام

(١) القاضي النعمان : كتاب الهمة في آداب اتباع الأئمة . تحقيق محمد كامل حسين — (القاهرة ص ٣٩) .

العصر المفروضة على أهل عصره ؟ مهما كان في الامر ، يبقى من الثابت أن منزلة الامامة ما برحت ترقى وتسمو بالاعتبـــار القيمي حتى بلغت أوجها لدى الاسماعليين المتأخرين واندمجت في اطار المذهبية التاريخية ، وصارت هي مصدر كل فهم وتفسير وتأويل ، وانجب ذلك نظرية كاملة طريفة حول مفهوم الانسان .

جاء في « بيت الدعوة الاسماعيلية » ، عن (ابن عباس) ان الله خلق الملائكة والسموات والارض ثم أمر (جبرائيل) بأن يأتي بقبضة من نور (محمد) (ص) فقبض قبضة بيضاء وغمسها في أنهار الجنة ، ثم طاف بها في الملكوت الاعلى قبل ان يخلق (آدم) ... وقيل ان الله خلق نور (محمد) وقسمه الى عشرة اقسام ، فخلق من القسم الأول العرش ، ومن الثـــاني الكرسي ، ومن الثالث اللوح ، ومن الرابع القلم ، ومن الخامس الشمس ، ومن السادس القمر ، ومن السابع الكواكب ، ومن الثامن الملائكة ، ومن التاسع نور المؤمنين ، والعاشر جعله في ظهر (آدم) ثم نفخ فيه من روحه فسجدت له الملائكة وأخذ عليـــه العهد والميثاق ان يودع هذا النور في الاصلاب والارحام الزكية ، وقد انتقل هذا النور ، وهو نور الامامة ، الى (هنيد) ثم الى (شيث) ثم .... الى (عدنان) ثم ... الى (قصي) ثم الى (عبد مناف) ثم الى (هاشم) ثم الى (عبد المطلب) ثم الى (ابو طالب) ، ثم الى (علي) (١) .

انتقل نور (محمد) اذن عبر الكائنات المذكورة التي خلقها الله ،

---

(١) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية - (دمشق ١٩٥٣ ص ٢٢) .

وانتقل قسمه العاشر خلال التاريخ البشري الى (علي بن أبي طالب)، وهذا النور المحمدي هو نور الامامة. وقد ذهب الفكر الاسماعيلي في تأويل معنى (آدم)، أول الخليقة البشرية، كل مذهب يتفق مع ثوابت عقيدتهم في حلتها المتكاملة. فالقاضي (النعمان) مثلاً يبين ان مثل آدم مثل الولاية. لانه أول من افترض الله تعالى ولايته وأمر الملائكة بالسجود له. والسجود الطاعة، وهي الولاية. ولم يكلفهم غير ذلك. فسجدوا إلا ابليس، كما اخبر الله سبحانه فكانت المحنة (بآدم) عليه السلام الولاية. وكان (آدم) مثلها، ولا بد لجميع الخلق من اعتقاد ولايته. ومن لم يتوله لم ينفعه ولاية من بعده اذا لم يدن بولايته ويعترف بحقه وبأنه أصل من اوجب الله عز وجل ولايته من رسله وأنبيائه وائمة دينه وأولهم وابوهم»(١).

أما (علي بن محمد الوليد) فانه يشرح دور (آدم) في إطار ما يسميه السلالة الدينية، ويرى ان (آدم) هو أول الدور الاكبر ومبدؤه «واليه نسبته، وعنه كان ظهوره وفطرته. وهو اصل دوره، ومن انضاف الى جملته، وصفا من أهل ملته، يقوم من الخلقة الدينية الكبرى مقام السلالة من خلقة الجنين». أما (نوح) فانه يقوم مقام النطفة في هذه الخلقة الدينية الكبرى، و (ابراهيم) يقوم مقام العلقة، و (موسى) يقوم مقام المضغة و (عيسى) يقوم مقام العظام، و (محمد) يقوم مقام اللحم من خلقة الجنين الذي عنده كمال الخلقة وتمام الشخص. ويردف (المؤلف) قائلاً:

---

(١) القاضي النعمان : تأويل دعائم الاسلام (منتخبات اسماعيلية – تحقيق عادل عواد دمشق ١٩٥٨ ص ٩).

ولم يكن بعده مرتبة إلا نضج الروح ، وهو ما يكون عند قيام (القائم) ، على ذكره السلام »(١) .

لقد رمز « النطقاء » ، صلوات الله عليهم ، رموزاً غامضة غيبية الى من يقوم بدعوتهم التأويلية من أوصيائهم ، كرمز (آدم) بالبيت ، و(نوح) بالسفينة ، و (ابراهيم) بالركن ، و (موسى) بالعصا ، و (عيسى) بالصليب ، و (محمد) ، لقوته واستعلائه ، وعلو (وصيه) أعلى منازل الفضل وارتقائه ، اظهر مرتبة وصيه وأعلن بها وشهرها في المجمع المشهور وأذاعها معلناً عند كافـــة الجمهور ، مبيناً لكمال الدين ، وكاشفاً محجة الهدى للمهتدين »(٢) .

وفي نظرة تأويلية اخرى يرى (حاتم بن ابراهيم الحامدي) ان الحياة السارية من عالم القدس أو الاله ، الى عالم الخلق ، أو الوجود انمـــا هي « العلم المتصل بالانبياء والاوصياء والأئمة النجباء ، وانها هي الحياة المحيية للعالمين المتصلين بأولياء الله » . وفي إطار هذا العلم يجيب (الحامدي) من يسأل عن ذنب (آدم) الذي اهبط لاجله من الجنة ، وما الجنة وما الشجرة التي نهي عنها ؟ فيقول : « ان ذنب (آدم) انه لما كشف له عن مراتب اهل دور الستر من وقته الى وقت (القائم) ، وعرف الجلالة (للقائم) ، وما يجوز ان يناله ، فحينئذٍ دخل عليه (ابليس) ، وقال : انت أول

---

(١) علي بن محمد بن الوليد : جلاء العقول وزبدة المحصول (المصدر السابق ص ١٣٧) .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٨ .

الدوائر ، وانت اقرب اليه ، [بحيث تشتمل الدائرة من نقطة (آدم) ، وباتجاه يخالف عقرب الساعة ، على (نوح) ف (ابراهيم) ف (موسى) ف (عيسى) ف (محمد) ف (قائم) ، وهذا يعني ان النهاية اقرب النقاط في الدائرة الى نقطة الابتداء] ، فقرّب له العود ، فشرهت نفسه لبلوغ تلك المرتبة ، فكان ذلك ذنبه ، وهو الشجرة التي حظّر عليه الارتقاء اليها ، وكان قد ارتقى في الرتبة الى ان صار في حد البلوغ ، وهو الجنة ؛ فلما توهم (آدم) هذا التوهم رُدّ الى حد التربية [وهو اول حدود الاطلاع الديني] ، واخذ العهد بالتجديد ، فهذا هو إهباطه من العلو الى السفل ، فاعرف ذلك »(١) .

ورب من يسأل : « (محمد) افضل أم (علي) ؟ فيجاب بأن يقال : (محمد) افضل من (علي) لان (علياً) قال : « أنا حسنة من حسنات رسول الله » . فرسول الله نبي مرسل من الله سبحانه . و (علي) وصي منصوب من النبي بأمر الله، فهذه نسبة ما بينهما(٢) . ولكننا حين نتعمق نظرية « الاسابيع » في الفكر الاسماعيلي ، نجد ضروب التمثيل السبعية لا تتحدث عن (علي) في اثر (محمد) ، بل عن (القائم) ، أو (صاحب القيامة) ، باعتبار أن (علياً) ليس بالناطق ، وانما (القائم) هو سابع النطقاء . يقول القاضي (النعمان) عند تأويل المنافذ السبعة في الرأس وهي العينان والأذنان والمنخران والفم : « ان امثالهم في الباطن أمثال السبعة

(١) حاتم بن ابراهيم الحامدي: زهر بزر الحقائق – (المصدر السابق ص ١٦٨).
(٢) حسن بن نوح : كتاب الازهار ومجمع الانوار– (المصدر السابق ص ٢٢٤).

النطقاء ، الذين هم : (آدم) ، و (نوح) و (ابراهيم) و (موسى) و (عيسى) و (محمد) ، و (خاتم الأئمة من ذريته ، صاحب القيامة) . وهـــذا الاخير هو أيضاً اليوم الآخر الذي ذكره الله عز وجل في غير موضع من كتابه ، وجعل عز وجل الايام السبعة أمثالهم : فالأحد مثل (آدم) ، والاثنين مثل (نوح) ، و الثلاثاء مثل (ابراهيم) ، والاربعاء مثل (موسى) ، والخميس مثل (محمد) ، وقد جمع الله تعالى له علم النبيين ، وفضلهم ، وأكملهم ، وجعله خاتمهم ، وفضله بأن جعل السابع من ذريته ، ومن أهل دعوته وملته ، ومثله مثـــل يوم السبت ، وخلق السموات والارض ، كما اخبر سبحانه ، « في ستة أيام » . فكان كذلك جميع الامر والنهي والخلق والعمل والعلم في شرائع هؤلاء النطقاء الستة وكان عصر خاتم الأئمة عصراً لا عمل فيه ، وانما فيه الجزاء . وهو يوم القيامة » . ومن شأن الامامة « بين كل ناطقين أن يتعاقبها سبعة أئمة بعد سبعة ، حتى يكون الناطق سابعهم ، وكذلك يكون الناطق سابعهم ، وكذلك يكون خاتم الأئمة سابعها ايضاً » (١) .

وبقول آخر تقسم الاسماعيلية تاريخ البشر الى ادوار واكوار وفترات وقرانات . فالادوار اجزاء من الاكوار ، وفي الادوار والاكوار نوعان من الأئمة هما : ائمة الاستقرار ، وائمة الاستيداع . والفترة هي المدة بين الناطق والناطق . والنطقاء هم الانبياء والرسل الذين نطقوا بكلام الله ، وهم (آدم) و (نوح) و (ابراهيم) و (موسى) و (عيسى) و (محمد)

---

(١) القاضي النعمان : تأويل دعائم الاسلام (المصدر السابق ص ٧٦) .

ولكل منهم دور يحمل اسمه . ودور (محمد) هو دور القرآن العظيم ، وهو خاتم الدور الكبير الذي يشتمل على أدوار (موسى) و (عيسى) وهو خاتم الدائرات العظمى . وهنا ندرك تطور نسبة الرسول الى الامام . ذلك أن وظيفة النبي ، أو الناطق ، هي ان يبلغ الكلام المنزل . أما الامام فقد صار هو الذي يؤوّل ذاك الكلام ، ولذا فانه يسمى الاساس أو الوصي أو السابق الذي به حياة نفوس المؤمنين . وقد ابتكر الاسماعيلية مفهوم الاتـمّاء ، وهم الأئمة الذين يتمون الدور ، ويكون الامام السابع لكل دور متماً . وقد جمع (حسن بن نوح) في كتابه « الازهار ، ومجمع الانوار ، الملقوطة من بساتين الاسرار ، مجامع الفواكه الروحانية والثمار » ، جمع اسماء النطقاء واسماء أوصيائهم المنصوبين ، واسماء الائمـــة المتمـّمين لادوارهم ، وجعلها في ستة أدوار ، لكل دور منها ناطق ومتمّ ، ووصي . وجعل عدد أئمة كل دور من هذه الادوار ستة يتمـّها متمّ . وقد أبان ان الناطق في الدور السادس هو (محمد بن عبد الله) ، وان الاساس أو الوصي في هذا الدور هو (علي بن أبي طالب) ، وقد اشتمل هذا الدور على سلسلة الائمة التالية : (علي بن أبي طالب) ثم (الحسين بن علي) ثم (علي زين العابدين) ثم (محمد الباقر) ثم (جعفر الصادق) ثم (اسماعيل بن جعفر) ثم (محمد بن اسماعيل) .

وقد بدأ بعد مقتل (علي بن أبي طالب) أول اسابيع الأئمة في نظر (حسن بن نوح) ، وهي ثلاثة اسابيع تسمى اسابيع الاتمـّاء والخلفاء والاشهاد. الاسبوع الاول منها هو اسبوع الاتمـّاء ويشتمل على اسماء (الحسن)

و (الحسين) و (علي زين العابدين) و (محمد الباقر) و (جعفر الصادق) و (اسماعيل بن جعفر) ثم ابنه (محمد بن اسماعيل) . والاسبوع الثاني هو اسبوع الخلفاء ، ويشتمل على اسماء أئمة ثلاثة اختتم بهم دور الستر وهم (عبد الله بن محمد الرضى) ، و (احمد بن عبـــد الله التقي) ، و (الحسين بن احمد الزكي) ، كما يشتمل على اسماء ائمة دور الظهور وقيام الدولة الفاطمية وهي اسماء (عبيد الله بن محمد المهدي) ، و (محمد بن عبيد الله القائم بأمر الله) ، و (اسماعيل بن محمد ، وهو الامـــام المنصور بالله) ، و (معد بن اسماعيل وهو الامام المعز لدين الله) . أما الاسبوع الثالث ، وهو اسبوع الاشهاد فانه يضم اسماء (نزار بن معد العزيز بالله) ، و (الحسن بن نزار الحاكم بأمر الله) ، و (علي بن الحسين الظاهر لاعزاز دين الله (، و (معد بن علي المستنصر بالله) ، و (احمد بن معد المستعلي) ، و (المنصور بن احمد الآمر باحكام الله) ، و (السابع وهو الامام الطيب بن المنصور) ويلقب سابع الاشهاد ، وشفيع يوم المعاد ، وعنده يقف تاريخ الاسماعيلية الطيبية وتعرف ايضاً باسم البهـــرة .

لم يبق امير المؤمنين ، (علي بن أبي طالب) ، انبثاقاً من النـــور المحمدي ، وانما اصبح هو و (محمد) من نور واحد هو نور الله تعالى . « قال (امير المؤمنين) : انا و (محمد) من نور واحد ، من نور الله تعالى ، أمر الله ذلك النور أن ينشق نصفين ، فقال للنصف الاول كن (محمداً) ، وللنصف الثاني كن (علياً) . وقال (علي) أيضاً : (محمد) الياقـــوتة

الصفراء ، و (انا) الياقوتة الحمراء » ... ولما انتقل (محمد) في الرتب ، وبلغ رتبة النطق الحقيقي ، أعلن الشهادتين ، واقام دعوته الظاهرة دون الباطنة ، واسلم له من أسلم ، وجاهد معه من جاهد ، وقاموا بالفرائض التي افترضها الله عليهم ، وصدقوا في موالاته وموالاة ابن عمه ظاهراً ، واسلموا وسلموا طاعة له ، وفعلوا الافعال الصالحة ، تجوهرت نفوسهم ، وابتنت صورهم ، واشرقت ذواتهم ، وانتقل منهم من انتقل ، على ذلك اوجب وعد الله تعالى ان يكون معادهم الى هيكل نوراني ، ومقـام شريف الهي . فكان هؤلاء المنتقلون الى هـذا الهيكل (فاطمة) ... و (الحسن) و ... (الحسين) .. وباقي الائمة المتمّين الى ان انتهى الامر الى (محمد بن اسماعيل) فكان متمّ الدور ، وخاتم الرسل ، المنتهية اليه غاية الشرائع ، المختومة به ، وهو القائم بالقوة ، صاحب الكشفة الاولى ، لان القائم بالفعل هو القائم الكلي ، الذي هو صاحب الكشفة الاخرى ، والبطشة العظمى ، قائم القيامة الكبرى ، ... المجتمع عنده جميع المقامات الشريفة ، من أول الثلاثة آلاف السنة ، التي هي آخر دور الكشف ، الى آخر السبعة آلاف السنة ، التي هي دور المكني عنها بالدنيا . وانما وقع عليه اسم الناطق السابع ، لنطقه بالعلم الالهي ، وقوله (انا) لانه غير منتظم في مسلك نطقاء دور الستر ، اذ هو بخلافهم ، وليس له متمّ ، ولا رتب بحدوده ، ولا هو برسول ، بل هو منفرد برتبة الوحدة الالهية . » وانما مولانا (محمد بن اسماعيل) المخصص بذلك لانتظامه في سلك مقامات دور الستر ونطقائه ، فاذا عددت (آدم) ووصيه ومتممي دوره السبعة

كان سابعهم ناطقاً ، وهو (نوح) ، واذا عددت (نوحاً) ، ووصيه ومتممي دوره الستة ، كان سابعهم ناطقاً ، وهو (ابراهيم) ، واذا عددت (ابراهيم) ومتممي دوره الستة كان سابعهم ناطقاً ، وهو (موسى) ، واذا عددت (موسى (ووصيه ومتممي دوره الستة كان سابعهم ناطقاً ، وهو (عيسى) ، واذا عددت (عيسى) ووصيه ومتممي دوره الستة كان سابعهم ناطقاً ، وهو (محمد) . واذا عددت (محمداً) ووصيه ، ومتممي دوره الستة كان سابعهم ناطقاً ، وهو (محمد بن اسماعيل) . ومتممي دوره الستة الثلاثة الأئمة المستورون ...(١)

بيّن اذن ان الامام يرقى فوق رتبة الرسول في الواقع ، وليس له من الامر ظاهره ، بل باطنه ، وهو منفرد برتبة الوحدة الالهية . ومن هنا كان أهل الحق على ضربين : احدهما اهل المعارف الحقيقية ، والعلوم الالهية ، والاعمال الصالحة ، والموالاة لجميع الأئمة من ناطق الدور ووصيه ، الى امام الزمان وحدوده ، وهؤلاء هم الذين يكونون عند مفارقتهم لكثائفهم الاعضاء الرئيسية من ذلك الهيكل النوراني الذي هو هيكل الامام ، وعلى قدر مبلغ كل واحد منهم في العلم والمعرفة والولاء يكون علوه في ذلك الهيكل النوراني . ويتلوهم أهل الولاء المحض ، والاعمال الصالحة في ذلك الهيكل ، فيكون كل واحد منهم في موضعه الذي يستحقه ، هـذه

---

(١) طاهر بن ابراهيم الحارث اليماني : الأنوار اللطيفة في فلسفة المبدأ والمعاد (من كتاب الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والاثني عشرية ، تحقيق واعداد محمد حسين الاعظمي – القاهرة ص ١٢٧ وما بعد) .

لطائفهم دون كثائفهم ؛ فأما كثائفهم فتكون محفوظة في أعز عز ، واحرز حرز ، وذلك انها تعود الى السحيق بعد مفارقة لطائفهم ، ثم الى المزاج والممتزج ، ثم تعود الى الارض امطاراً ، ثم تلطف الى ان تحلل بخاراً ، ويصعد الى فلك البروج في اماكنها ؛ وينحدر ذلك من البروج الى الارض ثم يصير تراباً سحيقاً ، ثم ترتقي الى ان تصير في القامة الالفية انساناً ؛ وذلك الصاعد الكائن خلفاً للمنحدر ، هو قسم اللحم والجلد والمخ والاعصاب والعروق . وأما قسم العظام فيبقى في الارض مدة طويلة بسبب صلابتها وشدتها ؛ ثم ينحل شيئاً بعد شيء ، ويصير بخاراً متلطفاً ، ثم يصعد الى المزاج والممتزج ؛ وينصب مطراً الى البحار والمغارات الطيبة من بقاع الارض ، فينعقد يواقيت ودرراً ولؤلؤاً ، ويصير منقسماً الى تيجان الملوك ؛ والى خزانتهم ، والى ايدي الرجال والى نحور العذارى ، وجميع ذلك بنظر من العناية الالهية وتدبيرها وتركها كل شيء من ذلك في موضعه اللائق به ؛ ولا يزال ذلك مصوناً معززاً مكرماً محفوظاً محبوباً عند الخلائق اجمع ؛ العالم منهم والجاهل والولي والمتكبر ، برهة من الدهر الى أوان عودته ، ثم يصير الى السحيق ، ويرتقي شيئاً بعد شيء الى ان يظهر بالمقامات الالفية مشخوصاً انسانية ، وقد تتخمر منها لما وانفعل بتدبير الكواكب ونظر من العناية الالهية نفوس كالأولى ، وقد تلطفت وانفعلت ، وهي أحد اعضاء تلك الاجسام عضو من اعضائه الشريفة ، قد اذن له بالخلاص والصعود ، فيتلطف ويتخمر وينفعل ويقبل ، فيكون نفساً لذلك الجسم تقديراً من حكيم جميل .

اما الضرب الثاني من اهل الحق فانهم اهل الولاء المتعلقون بشيء من العلوم الدينية ، والحكم الالهية ، التاركون للعبادة الظاهرة ، الممتدة ايديهم الى شيء مما حظرته الشريعة ، فيكون ولاؤهم وما علموه من علم ، غير ضائعين ، وانما ارتكابهم لتلك المحظورات قد حجب بين نفوسهم وبين اكثر المعارف الحقيقية ، والانوار الالهية ، فلم يتصلوا إلاّ بأيسر شيء ، فتجوهرت به نفوسهم ، وفارقت موضوعاتها عند نقلتها ، فيكون ذلك من الهيكل النوراني ، والمقام الالهي القدساني ، منها ما هو بمنزلة الظفر من الجسم ، ومنها ما هو بمنزلة الشعر ، ومنها ما هو بمنزلة سفالة القدمين ، وكل منهم على قدر ما يستحقه يكون موضعه من ذلك الهيكل الشريف ، وعلى قدر الاعمال والعلوم ، وصدق الولاء لناطق الدور ووصيه والائمة من ولدهما ، وامام الزمان خصوصاً ، وحدود دينه — يكون التفاضل عدلاً من الله تعالى ، وكذلك يكون تفاضل نفوسهم الريحية ، اعني الفريقين جميعاً في الناسوت الذي هو غلاف ذلك الهيكل النوراني حذواً بحذو ، ولا تغادر فيه صغيرة ولا كبيرة . وتبقى أجسام هؤلاء مرتهنة بتلك الافعال القبيحة ، ويسلك بها في شيء من صرط العذاب ، ومطامير العقاب الأدنى ، وتعرق بالنار المصفية الى ان يكمل ما عليها من المظالم ، واستؤنف بها العمل والترقي الى ان تظهر الى القامة الالفية ، من السحيق والمزاج والممترج ثم الى الاغذية والنطف على ما سبق به القول ، ثم تدعى فتجيب ، وتتصل الى حدها الذي بلغته أولاً ، وهؤلاء هم الذين عناهم الكتاب الكريم بقوله تعالى : «وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً

عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم» (١) .

يرى القاضي (النعمان) أن الى جانب الباطن يوجد ظاهران ، ظاهر أهل الباطن ، وظاهر أهل الظاهر . وقد تبين وضع أهل الحق بضربيهم ، وأما وضع الصلحاء من أهل الظاهر فان الرجل العف الخير الطاهر منهم ، المقيم لدعائم الاسلام ، الذي لا عداوة عنده لاحد من أهل الحق ، يكون معاده كالذي يخرج يفارق مستقره وأهله ، ويقيم مسافراً متغرباً الى ان تكسب مالاً ، ثم يعود بحالة أوفى من حالته وتصور غيره من العصاة والاضداد عند مفارقته لجسمه ونفسه بالموت لا عود اليهما ابداً ، كالذي يسافر من اهله ومستقره ومحبوبه ، ولا يريد يعود اليهم بحسب ما قدمت يداه ، وذلك أحد انواع العذاب(٢) .

هذه الفئات الثلاث ، فئتا أهل الحق ، وفئة الصلحاء من أهل الظاهر . لها معاد ينتهي بها ، على تفاوت متضائل ، الى ابواب الجنان . ويقابلهم الاضداد وما ينتهون اليه من الكون والفساد ، وما يصيرون اليه من العذاب وسوء العقاب ، فاذا آذن موت احدهم صارت نفسه وجسمه شيئاً واحداً ، ويستحيل بعضه في بعض ، ويفارقهما ما كان قد تصوره من العلوم الظلمانية المهلكة ، وما تصوره في أهل الحق من الكفر ، وأكنه لهم من العداوة والبغضاء والنكر وما اكتسبه من الافعال القبيحة ، واعتقد من الاعتقادات الخبيثة الفاسدة لان جميع ذلك يتبنى صورة لطيفة ظلمانية

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ .

خبيثة ، ويقال عليها نفس ظلمانية ابليسية شيطانية ، وقد صارت ناراً محرقة ، كما يقال للصورة الشريفة النيرة اللطيفة التي انبنت من العلوم التأويلية والحكم الربانية والحقائق الالهية نفس ملكوتية ناطقة . وربما صادفت تلك النفس الشيطانية انساناً فتمثلت له ناراً وربما احرقت ما يتصل بها من شجر او ثوب او غير ذلك ، وربما بقي شيء من ذلك التصور الخبيث في جسمه الخبيث فيقبر معه ، فيصير ناراً محرقة معذبة لذلك الجسم مدة من الايام ، فيرى ذلك القبر يشتعل ناراً في الليل ، ويشاهد تأججه ، فاذا قرب انسان من ذلك القبر لم يدرك تلك النار لكونها لا يدركها من قرب منها ، وصاحب هذا القبر المحرق له تصوره هو من اكثر الناس خبثاً ، واعظمهم جرماً وذنباً ، واشدهم عداوة ونفاقاً لاهل الحق ، واكثرهم ظلماً للخلق ...(١) .

ان نفس كل ضد من هؤلاء الاضداد تشيع عند موته في جسمه ، ويستحيلان الى التراب ، ثم يصعدان بخاراً ، ويعودان مطراً ، ويحدث من ذلك المطر البرقات المهلكات ، والسيول المخربات ، والبرد المضر ، وذلك من افعال المضادات منها في جميع الاوقات ، وينصبان الى الارض ويصيران نباتاً وحيواناً ، فيغتذيه من يصلح له الاغتذاء به ، ويستقبل بهما العذاب ، وهي الادراك السبعة : فأولها : درك الرجس ، وهي قمص البشر ، فيصير ذلك المغتذى به نطفة يرتقى الى أن يخرج من بطن أمه جنيناً ، في قميص من قمص الزنج والزنات والبربر والترك وغيرهم من الذين لا

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٥ .

يصلحون لمخاطبة الحق ، ولا ينهجون نهج الرشد ، ولا يزال ينتقل من قميص الى قميص ، الى ان يستكمل في كل نوع من انواع هذا الدرك سبعين قميصاً ، ثم خرج بالمزاج والممتزج الى : قمص الوكس ، وهو الدرك الثاني المماثل للتركيب البشري ، وهم القرود والدب والنسناس والغول والعذاء وأمثال ذلك ، فيسلك به في كل نوع من هذه الانواع سبعين قميصاً ، الى ان يستوفيها جميعها ، وهو في جميع هذه القمص الدكسة ، يتحقق انه في حال العذاب ، وانه وقع في ذلك بمخالفة الحق ، ويصير عارفاً بهم متحققاً لهم ، عارفاً لأهل الباطل الذين بسببهم وقع في ادراك العذاب ، ثم يسلك به في : قمص الدكس ، وهو الدرك الثالث ، وهم سباع البر والبحر ، كالاسود والانمار والذئاب وأمثالهم من السباع البرية والبحرية ، وعلى الجملة فكل ذي ناب ومخلب ، بري وبحري ، الى ان يستكمل في كل نوع من هذه الانواع سبعين قميصاً ، وهو عالم بما هو فيه من العذاب ، متحقق له ، عارف لاهل الحق وأهل الباطل ، ثم سلك به في : قمص الحرس ، وهو الدرك الرابع ، وهم هوام البر والبحر ، كالافاعي والحيات والعقارب وغيرهم مما يشاكلهم فينقمص في كل نوع من هذه الانواع سبعين قميصاً الى ان يستكمل جميع ذلك ، وهو متحقق لما هو فيه من العذاب عارف بأهل الحق وأهل الباطل ، ثم سلك به في الدرك الخامس : ويسمى النجس ، وهم طير البر والبحر مما يشاكل ذوات الجوارح ... الى ان يستوفى في كل نوع منها سبعين قميصاً . فهو في جميع ذلك متحقق للعذاب الذي يناله ، عارف به ، متألم منه ، عارف بأهل

الحق وأهل الباطل ، عالم انه صار الى ما صار من العقاب بمخالفة اهل الحق ، واتباع أهل الباطل ، ولولا معرفته بذلك كله لما كان للعذاب ألم ، ولا للثواب راحة. فاذا استوفى جميع هذه القمص سلك به بما هو في الدرك السادس : ويسمى النكس ، ولم يبق معه علم بما هو فيه ، لانه قد فارق آلة الحس ، ولم يبق معه غير آلة النماء الذي هو النبات المحظور ، القاتل المهلك للحيوان ، الى ان يستوفى في كل نوع من هذه الانواع سبعين قميصاً ، وسلك به في الدرك السابع : الذي يسمى الركس ، وهو المعدن السنج والحجر الوسخ الخبيث ، الى ان يستوفى في كل نوع من أنواعه سبعين قميصاً . وفي جملة القول : ان كل درك من هذه الادراك سبعون نوعاً ، فيسلك بأهل العذاب في كل نوع منها سبعين قميصاً ، اعاذنا الله .. »(١) .

قال (امير المؤمنين) : « اول الديانة بالله معرفته » . ولا طريق الى معرفة الله تعالى إلا بعد معرفة الانسان نفسه ، والانسان مؤلف من جسم كثيف ونفس لطيفة ، والشخص البشري مولود العالم بكليته ، وزبدته المسلولة من جملته(٢) . ولكن للانسان « ولادة ابداعية » يحظر الكلام على الدور الحادثة فيه ، الدور الاكبر ، والقيامة الكبرى ، وقائم هذا الدور « بيده الثواب والعقاب » كما ألمعنا ، وهو صاحب المنزلة ، والمستوي على عرشه لفصل القضاء ، وهو الرب ، لان معنى الرب في لغة العرب هو

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٩ .

(٢) علي بن محمد الوليد : جلاء العقول – المصدر المذكور ص ٩٨ .

المالك للشيء ، الراب له ، الحافظ ، كما يقال : رب الدار ، ورب الفرس ورب العبد ، ورب المنزلة ، ويكون كل مقام رباً لمن في أفقه ، وإلها لمن دونه ، على هذه النسبة(١) . انه رب عالم الابداع ، والارواح القدس ، الاوفى ، مكان الحرارة الاولى ، منه الابتداء ، واليه الانتهاء ، وهو العقل الاول ، والموجود الاول ، وبهذا يصح ما حكاه الكتاب الكريم من المجيء والذهاب ، والرضوان والزبانية ، ووقوع الروْية والمحاسبة ، واحصاء النقير والقطمير ، فيكون ذلك ظاهراً مثلاً لا اعوجاج فيه ولا ميل ، ويكون المعنى المضمن فيه الذي حكاه القرآن الكريم من نفي الروْية ، والتنزه عن الصفة ، اشارة الى باري البرايا تعـالى ، المنزّه عن المجيء والذهاب ، والدرك بالابصار ، والاستعانة بالحفدة والاعوان ، فيصح القولان يطردان مع اختلافهما في اللفظ ، وتفاوتهما في الصيغة ، واتفاقهما في المعنى . وتكون الاشارة في اليدين المبسوطتين الى ناطق كل دور ووصيه وامام كل زمان وحجته ، وهما بالحقيقة عضوان من ذلك المقام الاكبر ، والهيكل الانور ، ويصح القول في النفس على هذا المثال لكون مقام النفس وهو له عقل ، وكذلك قائم القيامة ، على ذكره السلام ، عقل للجميع ، وهم نفسه كما قال بعض الحكماء : العقل للنفس نفس ، والنفس للعقل جسم يقضي عليها اختياراً ، وليس للنفس حكم ، وكل واحد من المقامات وجهه الكريم ، وعينه ، واذنه ، وجنبه ، وافرط فيه المفرطون من أهل عصره ، كما يقال للرجل الخاص بالملك : هذا عين الملك ، ووجهه ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٥ .

واذنه ، يعني لقربه منه، وعبادته عنه، وقيامه فيمن استكفاه لامرهم مقامه ، فيكون طاعته وعصيانه . فكل لفظ يوجب على الباري تجسيماً ، أو يلزمه جارحة ، فالمعنى فيه ينصرف الى المقامات الكائنين اعضاء وأدوات وخداماً وولاة للمقام الاعظم ، قائم القيامة ، على ذكره السلام(١) .

ابدع الفكر الصوفي نظرية الحقيقة المحمدية وجعلها اساس مذهبه في الانسان الكامل ، وابدع الفكر الشيعي نظرية الامامة ومضت الاسماعيلية بها وجعلت مفهوم القائم المنتظر اساس مذهبها التأويلي وغايته ، وما صاحب هذا المقام الاكبر . والهيكل الانور ، سوى الله تعالى ذاته ، وكل لفظ يوجب عليه تجسيماً أو يلزمه جارحة فالمعنى فيـه ينصرف الى المقامات الكائنين اعضاء وأدوات وخداماً وولاة للمقام الاعظم ، مقام قائم القيامة . على ذكره السلام ، وهذا يعني أن تجسد الله ـ تاريخياً ـ يتم في الكـون الطبيعي والخلقة البشرية الجسمية والروحية وهذه الخلقة تكمل فتصبح ولادة دينية بمعرفة امام الزمان والولاء له ، ويعود اصحابها بالخير والفوز والسعادة . أو تنقص قليلاً فيكون معاد أهلها هو معاد الضرب الثاني من أهل الحق ، وقد تنقص درجة ثالثة فيكون معادها معاد الصلحاء من اهل الظاهر ، واما الاضداد فانهم جميعاً ذوو معاد خاسر في دركات من العذاب بعضها اشد سوءاً من بعض . ولكن دارة الخير والشر . دارة مغلقة تامة ، هي دارة الوجود ، فيها تسلسل دقيق ونظام محكم ، مثل تسلسل العقيدة الاسماعيلية الباطنية ودعوتها الدينية التي يسعد من ولد فيها الولادة الثانية ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

الولادة الروحية ، وكان مؤمناً ، ويشقى فيها من فاته ذاك الحظ ، وعادت نفسه وبدنه شيئاً ، وكان معاده هو العذاب ، عذاب الجهل بالحقيقة الباطنية .

« ان توحيد اهل الظاهر الى الشرك أقرب ، ومن عرف حقيقة توحيد الله تعالى وتبين ذلك له سقط عنه ما كان يعتقد من افتراء المبطلين . وهذا مثل سقوط سرة المولود بعد أيام من ولادته .... ومن استجاب لدعوة امـــام زمانه وأخذ عليه عهده فقد صار بذلك مؤمناً ، وعليه ان يعمل بمـــا في العهد »(١) .

وعلى هذا النحو يذوب مفهوم الانسان في مفهوم اتّباع الامام .

---

(١) القاضي النعمان : تأويل دعائم الاسلام (المصدر المذكور ص ٦ و ١٨) .

الفصل الثالث

نظرة الانسانيات العربية

ألمعنا في الصفحات السابقات الى صور مقتضبة عن النظرة التقليدية ، ثم عن النظرة العقلية الى الانسان في الفكر العربي الاسلامي ، ورأينا ان المشكلات والمسائل التي يطرحها هـذا الفكر حول الانسان ، نشأة ، وصيرورة ، ومعاداً ، تلقى حلولها في غزارة التصور التخيلي ، بـله الاسطوري ، في النظرة الاولى ، وهي تمتح هذه الحلول من المنطق الكلامي والمنطق الصوفي والمنطق التأويلي في النظرة الثانية ، وهذه الحلول جميعاً تنشد في النظرتين معنى تعتقد أن الحقيقة تشغل فيه منزلة القيمة الاولى ، بل القيمة الوحيدة . غير أن الثقافة العربية والاسلامية تعنى باطراد ، وعلى نحو واعٍ الى حد كبير أو صغير ، بالجمال احساساً ، وبالجمال تعبيراً ، أي بالجمال فناً سامياً حياً ، وهذه العناية تضفي على مطلب الحقيقة رواء منطقياً خاصاً ، هو منطق «الانسانيات» ، وهو منطق تركيبي يؤلف بين الخيال المبدع والنظر العقلي فينتج حكمة جميلة ، وآيات من النظر العقلي يتآزر فيها ما ندعوه اليوم المطلب العلمي والمطلب الادبي ، وينجلي عن معرفة هي في الثقافة العربية ، شأنها في سائر الثقافات المتطورة ، جسر الانتقال من المعرفة الاسطورية والدينية الى المعرفة العلمية الوضعية و « التقنية » مما يتصل بوجود الانسان .

وعندنا ان القول المأثور ، المروي في الخبر عن الرسول العربي ، وهو : « ان من البيان لسحراً » ، يمثل مفتاح « الانسانيات العربية » ، وشعارها السرمدي ، مدرسية كانت أو غير مدرسية . وقد زينت الثقافة العربية هذا السحر المبين ، وحببته الى النفوس ، وتعلقت به ، وتاقت اليه، واتخذت سبيله الفصاحة والبلاغة والبديع . فاذا كان الساحر يستميل قلوب الناظرين اليه بسحره وشعبذته ، فان الفصيح الذرب اللسان يستميل قلوب الناس اليه بحسن فصاحته ، وجودة بيانه ، ونظم كلامه ، فاذا « بالانفس اليه تائقة ، والأعين اليه رامقة » .

قيل (لجعفر بن يحيى) : ما البيان ؟ فقال : ان يكون اللفظ محيطاً بمعناك ، كاشفاً عن مغزاك ، وتخرجه من الشُركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة ، ويكون سليماً من التكلّف ، بعيداً من سوء الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأمل . وقال آخر : خير البيان ما كان مصرّحاً عن المعنى ، ليسرع الى الفهم تلقيه ، وموجَزاً ليخف على السمع تعاهده .

اما الفصاحة فانها احسن لباس يلبسه الرجل ، واحسن ازار يتزر به العاقل . يقول قائل : ما رأيت لباساً على رجل احسن من فصاحة ، وان الرجل ليتكلم فيعرب ، فكأن عليه الخزّ الادكن ، وان الرجل ليتكلم فيلحَن ، فكأن عليه اسمالاً . والفصاحة مأخوذة من قولهم : أفصح اللبنُ اذا أُخذت عنه الرغوة . وقالوا : لا يسمى الفصيح فصيحاً حتى تخلص لغته عن اللكنة الاعجمية ، ولا توجد الفصاحة إلاّ في العرب(١) .

---

(١) شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري : نهاية الأرب في فنون الادب — القاهرة — ج ٧ ص ٦ .

قال (حماد بن سلمه) : مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو كمثل حمار عليه مخلاة لا شعير فيها . فاذا احببت ان يصغر في عينك الكبير ، ويكبر في عينك الصغير ، فتعلم النحو .

يقول (ابراهيم بن خلف المهراني) :

النحو يصلح من لسان الالكن   والمرء تكرمه اذا لم يلحن

واذا طلبت من العلوم أجلّها   فأجلّها منها مقيم الالسن

وقال (علي بن بشار) :

رأيت لسان المرء آية عقله   وعنوانه فانظر بماذا تعنون

ولا تعد اصلاح اللسان فانه   يخبر عمـــا عنده ويبين

ويعجبني زي الفتى وجماله   فيسقط من عيني ساعة يلحن

ومما يذكر ان اعرابياً دخل السوق فوجد الناس يلحنون فقال : سبحان الله ! يلحنون ويربحون !؟ . وكلم (ابو موسى) بعض قواده فلحن . فقال : لم لا تنظر في العربية ؟ فقال : بلغني ان من ينظر فيها قلّ كلامه . فقال : ويحك ! لئن يقل كلامك بالصواب ، خير لك من ان يكثر بالخطأ .

الفصاحة اصابة المعنى والقصد ، وبها يجود البيان ، وأول شرائطها العلم بالعربية ، معرفة وممارسة ، وعنها ، في صعيد مطلب الجمال ، تنبثق البلاغة بأفانينها ، والبديع بضروبه . وما البلاغة الا تصحيح الاقسام ، واختيار الكلام ، ومن احمد الفصاحة الاقتدار عند البداهة ، والغزارة عند الاطالة ؛ وأحسن البلاغة وضوح الدلالة ، وحسن الاشارة . يقول (الاصمعي) : ليست البلاغة بخفة اللسان ، ولا كثرة الهذيان ، ولكن

اصابة المعنى ، والقصد الى الحاجة . وان ابلغ الكلام ما لم يكن بالقَرَوي المجدّع ، ولا البدوي المعرّب . واخوف ما يخاف على طالب العلم جهله بالنحو . يقول (الاصمعي) : ان اخوف ما اخاف على طالب العلم اذا لم يعرف النحو ان يدخل فيما قال النبي : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده في النار » لانه عليه الصلاة والسلام لم يكن لحاناً ، ولم يلحَن في حديثه : فمهما رويت عنه ولحنت فيه ، كذبت عليه .

الكلام اذن ، في نظر البلغاء ، مثل اللؤلؤ الازهر ، والزبرجد الاخضر والياقوت الاحمر ، إلاّ ان بعضه افضل من بعض . ومنه ما يكون مثل الخزف والحجر والتراب والمدر . واحوج الناس الى لزوم البلاغة والبيان ، واجادة الفصاحة والبديع ، وتعلم اللغة واسرارها ، الخائضون في انواع المعرفة واصناف العلوم . وقد ربط (ابن خلدون) في « مقدمته » علوم اللسان العربي بعد ان جعل اركانها اربعة هي : اللغة والنحو والبيان والأدب. والحق ان منزع « الانسانيات » العربية لا تكتفي بتآزر الفصاحة واللغة والبيان والبلاغة والادب ، بل تربط بها جميعاً اخلاق المرء وسلوكه ومصيره انشد (ابن زنجي البغدادي) :

ليس الفتى كل الفتى ... إلا الفتى في أدبه
وبعض اخلاق الفتى ... أولى به من نسبه
حتف امرىء لسانه ... في جدّه أو لعبه
بين اللهـا مقتلُه ... رُكّب في مركّبه

اجل ، ان المرء باصغريه ، قلبه ولسانه . ولا بد من توازن العقل

والعلم واللسان . ذكرت بلاغة رجل عند (علي بن عبد الله بن عباس) فقال : اني لاكره ان يكون مقدار لسانه فاضلاً على مقدار علمه ، كما اكره ان يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله .

انشد (الكريزي) :

والناس صنفان: ذو عقل وذو أدب ... كمعدن الفضة البيضاء والذهب

وسائر الناس من بين الورى همجٌ ... كانوا موالي، أوكانوا من العرب

وأنشد :

ولم أرَ فضلاً تمّ إلا بشيمة ... ولم أرَ عقلاً صحّ إلا على ادب(١) .

الادب صاحب في الغربة ، ومؤنس في الوحشة ، ومحدث في الخلوة ، وجليس في الوحدة ، وزين في المحافل ، وزيادة في العقل ، ودليل على المروءة ، وسلاح على الأعداء . ومن استفاد الادب في حداثته انتفع به في كبره ، لان من غرس فسيلاً يوشك ان يأكل رطبها . وهو أفضل ما ورّث اب ابناً . فيجب على العاقل ان يذكي قلبه بالادب ، كما يذكي النار بالحطب ، لان من لم يذك قلبه ران ، حتى يسود ، ولا زينة احسن من زينة الحسب ، كما ان من اجمل الجمال استعمال الادب ، ولا حسن لمن لا أدب له ، ومن كان من أهل الادب ممن لا حسب اه يبلغ به ادبه مراتب اهل الاحساب ، لان من حسن الادب خلف من الحسب .

وقد حض العرب في جميع حقب تاريخهم على العناية بالادب وتعلمه وتعليمه والافادة منه في ميدان النظر والفكر ، وفي مجال السلوك والعمل ،

---

(١) ابو حاتم محمد بن حبان البستّي : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء — القاهرة ١٩٥٥ ص ١٩٤ .

وابرزوا خصائص التحلي به، وفضل اذكائه، على صعيد الفرد وفي الحياة الاجتماعية . قال بعض الحكماء : اعلم إن جاهاً بالمال انما يصحبك ما صحبك المال ، وجاهاً بالادب غير زائل عنك . وقال (عبد الملك بن مروان) لبنيه : عليكم بطلب الادب فان احتجتم اليه كان لكم مالاً ، وان استغنيتم عنه كان لكم جمالاً . وقال (ابن المقفع) : اذا اكرمك الناس لمال او لسلطان فلا يعجبك ذلك ، فان الكرامة تزول بزوالهما ، ولكن ليعجبك اذا اكرموك لدين أو ادب . وقال (الاحنف بن قيس) : رأس الادب المنطق ، ولا خير في قول إلاّ بفعل ، ولا في مال إلا بجود ، ولا في صدق إلاّ بوفاء ، ولا في فقه إلاّ بورع ، ولا في صدق إلا بنيّة . وقال (مَصْقلة الزبيري) : لا يستغني الاديب عن ثلاثة واثنين : فاما الثلاثة : فالبلاغة والفصاحة وحسن العبارة. واما الاثنان: فالعلم بالاثر والحفظ للخبر . وروي عن الرسول (ص) قوله : من لا أدب له لا عقل له . وقد قيل : الادب يزيد العاقل فضلاً ونباهة ، ويفيده رقة وظرفاً(١) .

ان العقل يحتاج الى الادب كما تحتاج الابدان الى قوتها من الطعام . وينسب الى (علي بن أبي طالب) قوله : الادب كنز عند الحاجة ، وعون على المروءة ، وصاحب في المجلس ، وانيس في الوحدة ، به تعمر القلوب الواهية ، وتحيا به الالباب الميتة ، وينال به الطالبون ما حاولوا : وقيل : عقل بلا ادب كشجاع بلا سلاح . وحكي ان رجلاً تكلم بين يدي المأمون فأحسن فقال : ابن من انت ؟ قال : ابن الادب يا أمير المؤمنين . قال :

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٤٢١ وما بعد .

نعم النسب انتسبت اليه . ولهذا قيل : المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت ، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد . وقال بعض الحكماء : من كثر ادبه كثر شرفه ، وان كان وضيعاً ؛ وبعد صيته ، وان كان خاملاً ، وساد ، وان كان غريباً ، وكثرت حوائج الناس اليه ، وان كان فقيراً .

قال بعض الشعراء :

لكل شيء زينة في الورى وزينة المرء تمــام الادب

قد يشرف المــرء بآدابه فينا وان كان وضيع النسب

ان الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذي ليس بناطق . وان الرباط الذي يشد الادب الى العقل رباط جوهري اصيل . قيل : الفضل بالعقل والادب ، لا بالاصل والحسب . وقيل : المرء بفضيلته لا بفصيلته ، وبكماله لا بجماله ، وبآدابه لا بثيابه . والعقل اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب ، والعلم باجتناب الخطأ . فاذا كان المرء في أول درجته يسمى اديباً ، ثم اريباً ، ثم لبيباً ، ثم عاقلاً . واذا اجتمع العقل والشر ، كان الدهاء . وان الرجل اذا دخل في اول حدّ الدهاء قيل له : شيطان . فاذا عتا في الطغيان قيل : مارد . فاذا زاد على ذلك قيل : عبقري . فاذا جمع الى خبثه شدة شر قيل : عفريت . وعلى العكس من العاقل نجد الجاهل . قيل لرجل : من ادبك ؟ قال : رأيت جهل الجاهل قبيحاً فاجتنبته ، فتأدبت(١) . والجاهل يقال له في أول درجته

---

(١) الابشيهي (شهاب الدين محمد بن احمد بن أبي الفتح) : المستطرف من كل فن مستظرف ج ١ ص ٢٤ .

المائق ، ثم الرقيع ، ثم الانوك ، ثم الاحمق . قيل (لابن المبارك) : ما خير ما اعطي الرجل ؟ قال : غريزة عقل . قيل : فان لم يكن ؟ قال : ادب حسن . قيل : فان لم يكن ؟ قال : اخ صالح يستشيره . قيل : فان لم يكن ؟ قال : صمت طويل . قيل: فان لم يكن ؟ قال : موت عاجل(٢) .

قال بعضهم : العالم يعرف الجاهل ، والجاهل لا يعرف العالم ، لان العالم كان جاهلاً والجاهل لم يكن عالماً . وقال (ابو الاسود الدؤلي) : اذا اردت ان تعذب عالماً فاقرن به جاهلاً . وقال الشاعر :

جهلت ولا تدري بأنك جاهل ومن لي بأن تدري بأنك لا تدري

ثم ان الجهل والحمق توأمان . قال (عبد الله بن حسن) لابنه : يا بني احذر الجاهل وان كان لك ناصحاً ، كما تحذر العاقل اذا كان لك عدواً ، فيوشك الجاهل ان يورطك بمشورته في بعض اغترارك ، فيسبق اليك مكر العاقل . وقال (البستي) : اظلم الظلمات الحمق ، كما ان انفذ البصائر العقل ، فاذا امتحن المرء بعشرة الاحمق كان الواجب عليه اللزوم لاخلاق نفسه والمباينة لاخلاقه ، مع الاكثار من الحمد لله على ما وهب له من الانتباه لما حُرِم غيره التوفيق له . فان جرى الاحمق في صحبته ميدانه في عشرته ، فالواجب على العاقل لزوم السكوت حينئذٍ في اوقاته . وقد روي عن (الاعمش) قوله : السكوت للاحمق جواب . وقال (البستي) : ان من الحمقى من لا يصده عن سلوكه السكوت عنه ، ولا يدفعه عن دخول المكامن الاغضاء عنه ، ولا ينفعه . فاذا امتُحن العاقل بعشرة من هذا نعته

---

(٢) البستي : المصدر المذكور ص ٥ .

تكلف بعض التجاهل في الاحايين ، لان بعض الحلم اذعان .

من شيم الاحمق العجلة ، والخفة ، والعجز ، والتجور ، والجهل ، والمقت والوهن ، والمهانة ، والتعرض ، والتحاسد ، والظلم ، والخيانة ، والغفلة ، والسهو ، والغي ، والفحش ، والفخر ، والخيلاء ، والعدوان ، والبغضاء . وان من اعظم امارات الحمق في الاحمق لسانه ، فان يكون قلبه في طرف لسانه ما خطر على قلبه نطق به لسانه . والاحمق يتكلم في ساعة بكلام يعجز عنه (سحبان وائل) ، ويتكلم في الساعة الاخرى بكلام لا يعجز عنه (باقل) . والعاقل يجب عليه مجانبة من هذا نعته ، ومخالطة من هذه صفته ...

ان الاحمق كالثوب الخلق ، إن رفأته من جانب انخرق من جانب آخر : ومثل الفخار المكسور : لا يرقع ، ولا يشعب ، ولا يعاد طيناً . ان صحبته عناك ، وان اعتزلته شتمك ، وان اعطاك منّ عليك ، وان اعطيته كفرك : وان اسرّ اليك اتهمك : وان اسررت اليه خانك . وان كان فوقك حقرك ، وان كان دونك غمزك(١) ...

اما الحلم فانه دعامة العقل ، «هو دفع السيئة بالحسنة » فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حليم » . والحليم عاقل ذكي . وذليل عزيز . يحتمل السفيه تغافلاً عنه وهو عليه قادر . بل ان من شيم العاقل : الحلم ، والصمت ، والوقار ، والسكينة ، والوفاء ، والبذل ، والحكمة ، والعلم ،

---

(١) البستي : المصدر المذكور ص ١٠٥ .

(٢) النويري : المصدر المذكور ج ٦ ص ٤٨ .

والورع ، والعدل ، والقوة ، والحزم ، والكياسة ، والتمييز ، والسّمت ، والتواضع ، والعفو ، والاغضاء ، والتعفف ، والاحسان ، فاذا وفق المرء لصحبة فليشدّ يديه به ، ولا يزايله على الاحوال كلها ، والواجب على العاقل ألا يصحب بحيلة من لا يستفيد منه خيراً . ولذا وجب على العاقل ترك صحبة الاحمق ، ومجانبة معاشرة النوكى ، كما يجب عليه صحبة العاقل الاريب ، وعشرة الفطن اللبيب ، لان العاقل وان لم يصبك الحظ من عقله ، اصابك الاعتبار به ، والاحمق ان لم يُعدِل حمقه ، تدنّست بعشرته .

وقد اطالت « الانسانيات » العربية في الكلام على فضل العاقل والاديب ، وذم الجاهل الاحمق ، ونما نشاطها واتسع وتشعب الى فروع واختصاصات حظيت في تطورها على تعريفات محددة ، لاغراض متمايزة ، وانجبت نظريات شتّى ، ومذاهب ومدارس ، وسُطر انتاجها في كتب ودواوين ومقامات ومختارات ومتون وشروح وتعليقات وشروح على الشروح ... ونحن نختار من الميادين الاساسية في هذه « الانسانيات » بعض الدلالات على هذا التطور الغنّي جداً في الثقافة المدرسية العربية . ونبدأ بالاشارة الى بعض معاني الادب وتعريفاته في مجالاته الرئيسية ، ثم نشير الى معاني العلم وتعريفاته لنخلص من ذلك الى تبيان ما يعرف بالعلوم الادبية أي « الانسانيات » بالمعنى الدقيق ، وهو المعنى الذي يجاوز مراحل الخواطر الفكرية او الادبية العفوية ، الى مرحلة التحديد « العلمي » لما انتجه نشاط الانسان العربي حول هذا الانسان .

الادب ، في نظر (ابن خلدون) ، ركن من اركان علوم اللسان العربي . وهذه الاركان اربعة كما اشرنا وهي اللغة والنحو والبيان والأدب . ومن حق علم اللغة التقدم لان معرفة اللغة أمر ضروري للفهم والتفاهم ؛ ولكن علم النحو اهم من اللغة « اذ في جهله الاخلال بالتفاهم جملة ، وليست كذلك اللغة » . وقد نشأ علم اللغة عندما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند اهل النحو بالاعراب ؛ واستنبطت القوانين لحفظها ، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد الى موضوعات الالفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم ميلاً مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنها من الجهل ...

أما علم البيان فانه علم حادث في الملة ، كما يقول (ابن خلدون) ، حدث بعد علم العربية ، وهو من العلوم اللسانية لانه متعلق بالالفاظ وما تفيده ، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني . وذلك ان الامور التي يقصد المتكلم بها افادة السامع من كلامه هي اما تصور مفردات تسند ويسند اليها ويفضي بعضها الى بعض .. واما تمييز المسندات من المسند اليها ، والازمنة ويدل عليها بتغيير الحركات من الإعراب وابنية الكلمات ، وهذه كلها هي صناعة النحو . بيد ان خاصية علم البيان امر آخر يضاف الى اللغة والى النحو . انه علم يعنى بأحوال المتخاطبين او الفاعلين ، وما يقتضيه حال الفعل ، وهو محتاج الى الدلالة عليه « لانه من تمام الافادة . واذا

حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الافادة في كلامه » . ويبرز (ابن خلدون) المطلب البلاغي في كلام العرب حين ينفي ان يكون من كلام العرب كل كلام خال من البيان . يقول : « واذا لم يشتمل [الكلام] على شيء من [هذه الافادة] فليس من جنس كلام العرب . فان كلامهم واسع ، ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة . ألا ترى ان قولهم زيد جاءني ، مغاير لقولهم : جاءني زيد ، من قبل ان المتقدم منهما هو الاهم عند المتكلم . فمن قال : جاءني زيد افاد ان اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند اليه ؛ ومن قال : زيد جاءني افاد ان اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند » .

ويرى (ابن خلدون) ان هذا العلم المسمى بالبيان ، والمشتمل على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والاحوال والمقامات ، ينطوي على اصناف ثلاثة : الصنف الاول يبحث عن هذه الهيئات والاحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة . والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية . ويسمى علم البيان ؛ وألحقوا بهما صنفاً آخر ، هو الصنف الثالث ، وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله ، واما بتجنيس يشابه بين ألفاظه . او بترصيع يقطع او بتورية عن المعنى المقصود بابهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما ، وأمثال ذلك ، ويسمى علم البديع . وقد أطلق على الاصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان ، وهو اسم الصنف الثاني ، لان الاقدمين اول من تكلموا فيه ثم تلاحقت مسائل

الفن واحدة بعد اخرى(١) .

والادب ، اخيراً ، علم لا موضوع له في نظر (ابن خلدون) . يقول : هذا العلم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه او نفيها ، وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على اساليب العرب ومناهجهم ، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة . وسجع متساوٍ في الاجادة ، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك ، متفرقة ، يستقرىء منها الناظـــر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من ايام العرب يفهم به ما يقع في اشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبـــار العامة . والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه ، لانه لا تحصل الملكة من حفظه إلاّ بعد فهمه ، فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه . واذا اراد مريد تعريف هذا الفن ، أو هذا العلم الذي لا موضوع له ، اعلمه (ابن خلدون) بأن الباحثين اذا أرادوا حدّ هذا الفن قالوا : الادب هو حفظ اشعار العرب واخبارها والاخذ من كل علم بطرف ، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث . اذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلاّ ما ذهب اليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في اشعارهم ، وترسلهم بالاصطلاحات العلمية ، فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذٍ الى معرفة اصطلاحات العلوم

(١) ابن خلدون : المقدمة . طبعة المكتبة التجارية الكبرى - مصر ص ٢٥٥ .

ليكون قائماً على فهمها ...(١) .

يتضح اذن ان (ابن خلدون) يوسع مجال الادب من حفظ اشعار العرب وتذوقها الى معرفة اصطلاحات العلوم ، فيصبح الادب غير ذي موضوع « خاص » ، لانه يشتمل على كل موضوع ، ويأخذ من كل علم بطرف . وسنشير فيما يلي الى مفهوم العلوم الادبية التي تمثل « الانسانيات » العربية بالمعنى الضيق او الدقيق كما ذكرنا. ونكتفي الآن بالالماع الى ان لفظ الادب قد أطلق في الثقافة العربية ذاتها بمعان كثيرة اخرى يصح اعتبارها مما يمكن ان تشتمل عليه دلالة « الانسانيات » العربية بالمعنى الوسيع .

من ذلك مثلاً : ان الادب هو حسن الاحوال في القيام والقعود ، وحسن الاخلاق ، واجتماع الخصال الحميدة . او هو اسم يقع على كل رياضة محمودة فيخرج بها الانسان الى فضيلة من الفضائل. ويجوز ان يعرّف بأنه ملكة تعصم من قامت به عما يشينه . وقد يقال : الادب هو الخصال الحميدة . والمراد بالادب في قول الفقهاء : كتاب ادب القاضي مثلاً ، أي ما ينبغي للقاضي ان يفعله . ويعلق (التهانوي) على هذه المعاني الاخلاقية التي تربط مطلب السلوك بمطلب الجمال ، وتحرص على صيانة الاديب أو القاضي عما يشينه ، يعلق قائلاً : والاولى التعبير عن ذلك بالملكة لانها الصفة الراسخة للنفس ، فما لم يكن كذلك لا يكون ادباً ، كما لا يخفى . ومن الطريف ان نتنبه الى تمييز دقيق بين التأديب والتعليم . فالتأديب يتعلق بالمرادات ؛ أي بما يتصل باختيار الانسان في نطاق حريته ، والتعليم يتعلق

(١) المصدر السابق ص ٥٥٣ .

بالشرعيات . ان التأديب عرفي ، والتعليم شرعي . الاول دنيوي ، والثاني ديني . والتأديب قريب من الندب ، الا ان الندب لثواب الآخرة ، والتأديب لتهذيب الأخلاق واصلاح العادات .

ان الفقهاء قد يطلقون لفظ الادب على المندوب . فالآداب هي السنن التي يكون تاركها غير مسيء . واذ ذاك يدل معنى الادب على ما فعله الشارع مرة وتركه اخرى . واما السنة فهي ما واظب عليه الشارع ، والواجب ما شرع لاكمال الفرض ، والسنة لاكمال الواجب ، والادب لاكمال السنة . وقد قيل : الادب عند اهل الشرع هو الورع ، وعند اهل الحكمة صيانة النفس. وحكي ان (حاتم الاصم) قدّم رجله اليسرى عند دخوله المسجد فتغير لونه وخرج مذعوراً وقدّم رجله اليمنى . فقيل : ما ذلك؟ فقال : لو تركت ادباً من آداب الدين خفت ان يسلبني الله جميع ما اعطاني .

وفي صعيد التصوف ، الادب مجالسة الخلق على بساط الصدق ومطابقة الحقائق . وقد قال اهل التحقيق : الادب هو الخروج من صدق الاختيار ، والتضرع على بساط الافتقار . فالادب بهذا الاعتبار علاقة مخلوق بخالق عبر الجماعة ، أو صلة محب بمحبوب بتجاوز المجتمع . اما المناظرة فانها علم حوار ، ولها آداب . يقول (التهانوي) المناظرة علم يعرف به كيفية آداب اثبات المطلوب ونفيه ، او نفي دليله مع الخصم . والآداب هي الطرق. وموضوع هذا العلم هو البحث. وتطلق المناظرة ايضاً في اصطلاح اهل هذا العلم على النظر من الجانبين في النسبة بين الشيئين اظهاراً للصواب (١) .

---

(١) التهانوي (الشيخ المولوي محمد أعلى بن علي) : كشاف اصطلاحات الفنون – مادة : (ادب) و (مناظرة) .

وكما امتدحت « الانسانيات » العربية العقل والادب . واثنت على أهلهما . حيث ادب هذه الانسانيات على طلب المعرفة والعلم . وقد تجلى ذلك بلغة الدين اولاً ، وبلغة العقل ثانياً .

فبالاعتبار الاول ينطلق انصار المعرفة العلمية من القرآن الكريم والسنة النبوية . قال تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » . وقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . وقال : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .. وقال رسول الله : « تعلموا العلم . فان تعلمه لله حسنة . ودراسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد . وطلبه عبادة وتعليمه صدقة : وبذله لاهله قربة ؛ لانه معالم الحلال والحرام ، وبيان سبيل الجنة ... » . وقال : « خير الدنيا والآخرة مع العلم . وشر الدنيا والآخرة مع الجهل » . وعنه ايضاً انه قال : « يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل احدهما على الآخر . ولغدوة في طلب العلم احب الى الله من مائة غزوة » . وقال كذلك : « ما من خارج يخرج من بيته بطلب العلم إلا وضعت له الملائكة اجنحتها ؛ رضيً بما يصنع » . وقال : « فضل العالم على العابد كفضلي على ادنى رجل من اصحابي » ...

وبهذا الاعتبار ايضاً يروى عن (علي بن أبي طالب) قوله : « اقل الناس قيمة أقلّهم علماً » . وقال : « العلم نهر . والحكمة بحر . والعلماء حول النهر يطوفون ، والحكماء وسط البحر يغوصون والعارفون بسفن النجاة يسيرون » . وقال : « العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد . واذا مات العالم ثلم في الاسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه »(١) .

---

(١) الغزالي : احياء علوم الدين – القاهرة ١٣٥٦ هـ ج ١ ص ١٣ .

وبالاعتبار الآخر نقرأ ما يلي : قال (عبد الملك بن مروان) لبنيه : « يا بني تعلّموا العلم فان كنتم سادة فقتم ، وان كنتم وسطاً سدتم ، وان كنتم سوقة عشتم » . وقال بعض الحكماء : العلم شرف من لا قدر له ، والادب مالٌ لا خوف عليه . وقال بعض الادباء : العلم أفضل خلف ، والعمل به أكمل شرف .. وليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل ، لان فضل العلم انما يعرف بالعلم ، وهذا أبلغ في فضله ، لان فضله لا يعلم إلا به . فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله ، واسترذلوا اهله ، وتوهموا ان ما تميل اليـــه نفوسهم من الاموال المقتناة ، والطرف المشتهاة ، اولى ان يكون اقبالهم عليها . واحرى ان يكون اشتغالهم بها ... قيل لبعض الحكماء : من يعرف كل العلوم ؟ فقال : كل الناس . وقال بعض العلماء : لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته لكنا قد بدأنا العلم بالنقيصة . ولكنا نطلبه ننقص في كل يوم من الجهل ، ونزداد في كل يوم من العلم . وقال قائل : المتعمق في العلم كالسابح في البحر ليس يرى ارضاً ، ولا يعرف طولاً ولا عرضاً . وقيل (لحماد الراوية) : أما تشبع من هـــذه العلوم ؟ فقال : استفرغنا فيها المجهود ، فلم نبلغ منها المحدود ، فنحن كما قال الشاعر : اذا قطعنا علماً بدا علم(١) .

قيل : « اول العلم الانصات . ثم الاستماع . ثم الحفظ . ثم العمل به . ثم النشر » . وقال (ابو الدرداء) : لا تكون عالماً حتى تكون متعلماً ،

---

(١) الماوردي (ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري) : ادب الدنيا والدين – القاهرة ١٩٢٨ ص ٢١ .

ولا تكون بالعلم عالماً حتى تكون به عاملاً . وقال (سفيان الثوري) : العالم طبيب هذه الامة . والدينار داؤها . فاذا كان الطبيب يطلب الداء ، فمتى يبرىء غيره ؟ يقول (البستي) : الواجب على العاقل اذا فرغ من اصلاح سريرته ان يثني بطلب العلم والمداومة عليـه ، اذ لا حصول للمرء الى صفاء شيء من اسباب الدنيا إلا بصفاء العلم فيه .. ولا يجب ان يكون متأملاً في سعيه الدنو من السلاطين ، او نوال الدنيا به . فما اقبح بالعالِم التذلل لأهل الدنيا . قال (الفضيل بن عياض) : ما اقبح بالعالِم يؤتى الى منزله فيقال : اين العالِم ؟ فيقال : عند الامير او عند القاضي (١). يقول (ابو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني) :

ولم اقض حق العلم ان كنت كلما — بدا طمع صيرته لي سلماً
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي — لآخذ من لاقيت ، لكن لاخدما
أأشقى به غرساً واجنيه ذلة — اذن فاتباع الجهل قد كان اسلما
فان قلت زند العلم كاب فانما — كبا حين لم يحرس من حماه واظلما
ولو ان اهل العلم صانوه صانهم — ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن اهانوه فهانوا ودنسوا — محياه بالاطماع حتى تجهما (٢)

فاذا نظرنا الآن في التحديد الدقيق لمعنى العلم والمعرفة العلميـة ، وتجاوزنا تلك الثروة العظمى من « الآداب » المتعلقة بالعلم والعلمـاء ، وجدنا (الفيروزبادي) مثلاً يعرّف العلم في « القاموس المحيط » بقوله :

---

(١) البستي : المصدر المذكور ص ٢٠ .
(٢) الابشيهي : المصدر المذكور ص ٢٠ .

علمه كسمعه علماً (بالكسر) عرفه . وعلم هو في نفسه . ورجل عالم وعليم ... وعلاّم ... وعالمه غالبه علماً ، وعلم به شعر ، وعلم الامـــر اتقنه .. وتعالمه الجميع علموه . ويقول (محمد المرتضى الحسيني) في شرح « القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس » : علّمه عرفه . هكذا في « الصحاح » وفي كثير من أمهات اللغـــة . وزاد المصنف في « البصائر » : حق المعرفة . والعلم والمعرفة والشعور كلها بمعنى واحد ؛ وهو يتعدى بنفسه في المعنى الاول . وبالباء اذا استعمل بمعنى شعر .

يقول (النظّام) : « من اراد ان يعلم كل شيء فينبغي لأهلـــه ان يداووه . فان ذلك انما تصور له بشيء اعتراه . فمن كان ذكياً حافظاً فليقصد الى شيئين أو ثلاثة أشياء . ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع ان تمر على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنـــه ما قدر عليه من سائر الاصناف ، فيكون عالماً بخواص . ويكون غير غافل عن سائر ما يجري فيه الناس »(١) .

العلم اذن معرفة . ولكنها معرفة دقيقة متعمقة . او هي ، كما يرى (النظّام) علم بخواص ؛ او هي بلغة العصر معرفة اختصائية ؛ وهي لا تمنع المرء من ان يطلب معرفة أقل دقة وتعمقاً فلا يكون غافلاً عن سائر ما يجري فيه الناس . والعلوم معارف تنمو باطّراد ؛ ولا بد الى جانب الاختصاص في علم من الاحاطة الثقافيـــة بسائر العلوم . واذا تعذرت الاحاطة بالعلوم كافة على قدر سواء ، وجب التخير ، وبالتالي تصنيف

---

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٠ .

العلوم تبع قيمتها . يقول (الماوردي) : « فاذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة اهمها ، والعناية بأولاها وأفضلها . وأولى العلوم وأفضلها علم الدين »(١) .

ومن الطبيعي ان يتخذ الباحثون المسلمون القيمة الدينية مقياساً لتصنيف العلوم ونضدها في سلاسل محددة . يقول (الغزالي) : « اذا نظرت الى العلم رأيته لذيذاً في نفسه ، فيكون مطلوباً لذاته : ووجدته سبيلاً الى دار الآخرة وسعادتها ، وذريعة الى القرب من الله تعالى : ولا يتوصل اليه إلا به . واعظم الاشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الابدية ، وافضل الاشياء ما هو وسيلة اليها . ولن يتوصل اليها إلاّ بالعلم والعمل ، ولا يتوصل الى العمل إلاّ بالعلم بكيفية العمل . فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم . فهو اذن افضل الاعمال ... قال رسول الله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال ايضاً : « اطلبوا العلم ولو بالصين » . واختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم ، فتفرقوا فيه اكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ، ولكن حاصله ان كل فريق نزّل الوجوب على العلم الذي هو بصدده . فقال المتكلمون هو علم الكلام .. وقال الفقهاء هو علم الفقه... وقال المفسرون والمحدّثون هو علم الكتاب ... والذي ينبغي ان يقطع به هو أن العلم ينقسم الى علم معاملة وعلم مكاشفة . وليس المراد بعلم المعاملة إلا علم المعاملة ... التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ، [وهي] ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك ... اما علم المكاشفة

(١) الماوردي : المصدر المذكور ص ٢١ .

فانه علم الباطن، وذلك غاية العلوم ... وهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة . وينكشف من ذلك النور المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة ، وترتيبه للآخرة على الدنيا ... »(١) .

اثنى (الغزالي) على العلم ، ونضد العلوم تبع نظرته الاسلامية في ترتيب الآخرة على الدنيا ، وجعل التصوف او علم المكاشفة غاية العلوم . والعلم اصل سعادة الانسان في الدنيا والآخرة . ولكننا نجد ضروباً شتى لتصنيف العلوم « قيمياً » لدى الباحثين من الفلاسفة والعلماء والمفكرين في الثقافة العربية ، ومثلاً لدى (الفارابي) و (ابن سينا) و (اخوان الصفاء) و (ابن خلدون) ... وفي تتبع هذا النشاط يمكننا مسايرة نمو المفهوم العلمي في الثقافة العربية الاسلامية حتى وصلنا الى مفهوم العلوم الادبية او « الانسانيات » بالمعنى الدقيق .

(الفارابي) ، مثلاً : احصى العلوم المشهورة في عصره علماً علماً ، ونضدها بحسب مراتبها معبراً عن النظرة الفلسفية الى علوم الانسان . فوجد أولاً : علم اللسان ، وفروعه من نحو وصرف وبيان وشعر وقوانين الكتابة وقوانين القراءة . ووجد ثانياً علم المنطق : بأجزائه الثمانية المنطوية على انواع القياس وانواع الاقاويل . وميز ثالثاً علوم التعاليم ، وهي العدد والهندسة وعلم المناظر وعلم النجوم التعليمي وعلم الموسيقى وعلم الانقال وعلم الحيل . وحدد في المرتبة الرابعة العلم الطبيعي ، واجزاءه

---

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ج ١ ص ٢١ — ٣٥ .

العظمى الثمانية الباحثة في الاجسام الطبيعية البسيطة والمركبة وفي انواع النبات والحيوان ، كما حدّد في هذه المرتبة العلم الالهي الذي يبحث عن الموجودات والاشياء التي تعرض لها بما هي موجودات ، وعن مبادىء البراهين ، وعن الموجودات التي ليست بأجسام ولا في اجسام . وانتهى اخيراً الى المرتبة الخامسة من العلوم وهي تشتمل على العلم المدني ، الباحث في اصناف الافعال والسنن الارادية والملكات والاخلاق والسجايا والشيم وعلى علم الفقه ، وهو صناعة بها يقتدر الانسان على ان يستنبط تقدير شيء مما لم يصرح به واضع الشريعة بتحديده الاشياء والتي صرح فيهـا بالتحديد والتقدير كما يشتمل على علم الكلام وهو صناعة يقتدر بها الانسان على نصرة الآراء والافعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالاقاويل(١) .

وهذا التصنيف ينم عن المشاغل الفلسفية الفارابية ويتضح منه تقارب علم اللسان بفروعه من علم المنطق بأجزائه ، وافتراق العلم الطبيعي بأجزائه الثمانية العظمى عن العلم الالهي او الفلسفة بالمعنى الانتولوجي . ولعل الشيء البارز في هذا التصنيف هو تحديد منزلة خاصة للعلمين الاسلاميين وهما الفقه وعلم الكلام ، الى جانب التقسيمات المدرسية المأثورة عن (يونان) ، وافراد العلوم الاجتماعية ، كما نقول اليوم ، بمنزلة خاصة اسماها العلم المدني .

وقد نضد (اخوان الصفاء) « فنون العلوم وغرائب الحكم وطرائف

---

(١) الفارابي : احصاء العلوم — تحقيق عثمان محمد امين — القاهرة ١٩٣١ .

الآداب وحقائق المعاني عن كلام الخلصاء الصوفيـــة » في رسائلهم التي قسموها على اربعة اقسام هي الرسائل الرياضية التعليمية وتتناول العـــدد والهندسة والنجوم والموسيقى والجغرافية والنسب العددية والتأليفية والصنائع العلمية والصنائع العملية والاخلاق والآداب ؛ وايساغوجي والمقولات العشر وبارامينا‌س وانالوطيقا الثانية ثم تأتي رسائل الجسمانيات الطبيعيات وتتناول الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان والسماء والعالم والكون والفساد والآثار العلوية وكيفية تكوين المعادن وماهية الطبيعة واجناس النبات وتكوين الحيوانات واصنافها وتركيب الجسد والحاس والمحسوس ومسقط النطفة وان الانسان عالم صغير وكيفية نشوء الانفس الجزئية في الاجساد البشرية الطبيعية وحكمة الموت والحياة وخاصية اللذات وعلل اختلاف اللغات ورسوم الخطوط والعبارات . وتلي ذلك رسائل النفسانيات العقليات وتبحث في مبادىء الموجودات العقلية على رأي الفيثاغوريين وفي المبادىء العقلية على رأي اخوان الصفاء وفي معنى قول الحكماء ان العالم انسان كبير وفي العقل والمعقول وفي الادوار والاكوار وفي ماهية العشق وفي البعث والقيامة وفي كمية اجناس الحركات وفي العلل والمعلولات وفي الحدود والرسوم ؛ اما القسم الرابع والاخير من الرسائل فانه رسائل العلوم الناموسية الالهية والشرعية وهو يبحث في الآراء والديانات وفي ماهية الطريق الى الله عز وجل وفي بيان اعتقاد اخوان الصفاء وفي كيفية معاشرتهم وتعاون بعضهم بعضاً وصدق الشفقة والمودة في الدين والدنيا وفي ماهية الايمان وخصال المؤمنين المحققين وفي ماهية الناموس الالهي وشرائط النبوة وكمية خصالهم ومذهب الربانيين والالهيين وفي كيفية الدعوة إلى الله وفي كيفية احـــوال

الروحانيين وفي كيفية انواع السياسات وكميتها وفي كيفية نضد العالم بأسره وفي ماهية السحر والعزائم والعين (١) .

لقد برع (اخوان الصفاء) في هذه الاحاطة الموسوعية بالعلوم والآداب والحكم المعروفة في عصرهم ، ولكنهم لم يتوخوا النظرة الموضوعية المتجردة وانما سخّروا وسائلهم كلها للدعوة الى مذهبهم والحث على الانخراط فيه ، ونجم عن جهدهم « المذهبي » تصنيف جلي للعلوم والآداب والصنائع والاخلاق والآراء والديانات ، وقد انتقلوا في هذا الترتيب من علوم التعاليم الرياضية واضافوا اليها الاخلاق والآداب والمنطق بمختلف اجزائه ، ثم انتقلوا من الجسمانيات الطبيعيات ، او علوم المادة كما نقول اليوم ، الى النفسانيات العقليات وانتهوا الى العلوم الناموسية الالهية والشرعية وضمنوها الالماعات الى مذهبهم الرامي الى التوفيق بين الاديان والفلسفات كافة ، بل الى غسل الشريعة بالفلسفة ...

اما (ابن خلدون) فانه يعتمد في تصنيفه العلوم الواقعة في العمران لعهده والتي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الامصار تحصيلاً وتعليماً ، يعتمد على تمييز المعقول عن المنقول ، ويعطي لكل ذي حق حقه ويرى ان العلوم كلها على صنفين : صنف طبيعي للانسان يهتدي اليه بفكره ، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه . الاول هو العلوم الحكمية الفلسفية وهي التي يمكن ان يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ، ويهتدي بمداركه البشرية الى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها

---

(١) اخوان الصفا وخلان الوفاء . الرسائل .

حتى يفقه نظره ويحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو انسان ذو فكر . والثاني هي العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي ، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالاصول ، لان الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسي ... العلوم النقلية تشتمل على التفسير والقراءات والحديث وعلم اصول الفقه والجدل وعلم الكلام وعلم التصوف وعلم تعبير الرؤيا والعلوم اللسانية (وهذه تضم علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الادب كما أشرنا) واما العلوم الحكمية الفلسفية او العلوم العقلية فانها تشتمل على علم المنطق والعلم الطبيعي (ومن فروعه علوم الانسان والحيوان والنبات والمعادن والطب والفلاحة) والعلم الالهي : ما وراء الطبيعة وعلم التعاليم (ويضم علوم الهندسة والحساب والموسيقى والفلك) .

لقد وضع (الغزالي) علم المكاشفة في ذروة العلوم ، واتخذه غاية كل علم لان العلم اصل سعادة الانسان في الدنيا والآخرة . ونضد (الفارابي) العلوم نضداً فلسفياً مدرسياً شديد التأثر بالنظر اليوناني واضاف اليها علما الفقه والكلام ، ودمج (اخوان الصفا) ضروب المعرفة ونظموها في سلك الدعوة الى مذهبهم الرامي الى توحيد البشر واقامة الوئام بينهم بغض النظر عن كل افتراق في الآراء والديانات ، واعتمادهم الصورة الانسانية الواحدة لدى البشر كافة ، وقد نجم عن تسخيرهم المعارف العلمية لمآربهم المذهبية ان قرّبوا الاختصاص في العلم من الثقافة الانسانية العامة ومهدوا الطريق امام النظرة المعاصرة التي ترى ان العلوم كلها تلتقي في

صعيد الانسان ــ القيمة الاولى ، او الصورة الانسانية ، كما كان (اخوان الصفا) يقولون . ومضى (ابن خلدون) في التقليد المشهور عن اتصال الحكمة والشريعة بالرغم من تمايزهما ، فبنى تصنيفه للعلوم المعروفة لعهده على اساس العلوم العقلية التي هي للبشر كافة ، والعلوم النقلية المرتكزة على الشرع وما جاء به الواضع او الشارع . وقد تطور هذا التقسيم الثنائي واثمر نظرة ثلاثية لدى (التهانوي) في معجمه « التقني » .

ألف (الشيخ المولوي محمد اعلى بن علي التهانوي) معجم اصطلاحات العلوم المتداولة في الثقافة العربية الاسلاميـــة وجعل عنوانه « كشاف اصطلاحات الفنون » سنة ١١٥٨ هـ . واوضح في مقدمته اوجه القسمة التي تقبلها العلوم المدونة . فأولها : ان تكون إما نظرية او عملية . والثاني ان تكون آلية او غير آلية ، فتكون في نفسها آلة لتحصيل غيرها أو لا تكون . والثالث : ان تكون علوماً عربية أو غير عربية . والرابع : ان تكون علوماً شرعية او غير شرعية . والخامس : ان تكون علوماً حقيقية او غير حقيقية . والسادس : ان تكون علوماً عقلية أو نقلية. فالعلوم العقلية مثلاً ، هي ما لا يحتاج فيها الى النقل ، والنقلية بخلاف ذلك . والسابع : ان تكون علوماً جزئية او غير جزئية . فالعلوم التي موضوعاتها اخص من موضوع علم آخر تسمى علوماً جزئية كعلم الطب فان موضوعه وهـــو الانسان اخص من موضوع الطبعي والتي موضوعاتها اعم يسمى بالعلم الاقدم لان الاعم اقدم للعقل من الاخص فان ادراك الاعم قبل ادراك الاخص .

وبينما يعرف (ابن خلدون) علم الادب بأنه غير ذي موضوع واحد ، وانه هو حفظ اشعار العرب واخبارها والاخذ من كل علم بطرف كما ألمعنا ، نجد (التهانوي) ينقل عن « شرح المفتاح » ان علم العربية المسمى بعلم الادب علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظاً أو كتابة وينقسم الى أصول تبحث في المفردات او المركبـــات والى فروع تتعلق بنقوش الكتابة او علم الخط او بالمنظوم كعروض الشعراء او بالمنثـــور كانشاء الرسائل او المحاضرات او بالتواريخ ويكون البديع ذيلاً للبلاغة.. ويؤكد (التهانوي) ان هذه العلوم ، وان وجد ما يماثلها في سائر لغات الامم الفاضلة من اليونان وغيرهم ، لم تؤخذ عن العرب قاطبة بل عـــن الفصحاء البلغاء منهم ،وهم الذين لم يخالطوا غيرهم.. فأما الذين اصابوا العجم في الاطراف فلم تعتبر لغاتهم واحوالها في اصول هذه العلوم.. ثم أتى ذوو العقول السليمة ، والاذهان المستقيمة ، ورتبوا اصول هذه العلوم ، وهذبوا فصولها حتى تقررت على غاية لا يمكن المزيد عليها .

●

ومهما يكن في الامر ، فان هذه العلوم العربية ، او الادبية تؤلف جانباً ثالثاً متميزاً يقابل العلوم الشرعية التي يسميها (التهانوي) العلوم الدينية من جهة ، كما يقابل من جهة اخرى العلوم الحقيقية التي لا تتغير بتغير الملل والاديان . ويرى ان هذه العلوم الادبيـــة او ما نسميه اليوم بالانسانيات العربية قد بلغت غاية لا يمكن المزيد عليهـــا . وقد ضم كثير من المؤلفين اطراف هذه العلوم او « الانسانيات » العربية بعضها الى بعض ، وأكد (ابن عبد ربه) ان أهل كل طبقة ، وجهابذة كل امـــة قد تكلموا في

الادب ، وتفلسفوا في العلوم على كل لسان ، ومع كل زمان ، وان آخر كل طبقة ، وواضعي كل حكمة ، ومؤلفي كل ادب أعذب ألفاظاً ، وأسهل بنية ، واحكم مذهباً ، واوضح طريقة من الأوّل ، لانه ناكص متعقب ، والأول بادىء متقدم . وعلى هذا فان الناظر بعين الانصاف يعلم عندما يجعل عقله حكماً عادلاً ، وفيصلاً قاطعاً ، ان الاوضاع المحكمة ، والكتب المترجمة « شجرة باسقة الفرع ، طيبة المنبت ، ذكية التربة ، يانعة الثمر » ، ويعلن انه قصد من جملة الاخبار ، وفنون الآثار أشرفها جوهراً ، واظهرها رونقاً ، وألطفها معنى ، وأجزلها لفظاً ، وأحسنها ديباجة ، واكثرها طلاوة وحلاوة » وجعل منها كتاباً كافياً شافياً جامعاً اسماه كتاب « العقد الفريد » لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقة السلك وحسن النظام ، وقد جزّأه على خمسة وعشرين كتاباً ، كل كتاب منها جزءان ، فتلك خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً ، وقد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد .

وعلى هذا النحو يقدم (ابن عبد ربه) كتابه الشهير الذي يضم نتاج جهابذة كل امة ممن تكلموا في الادب ، وتفلسفوا في العلوم على كل لسان ، ومع كل زمان ، ويراعي في كتبه الخمسين جزءاً مطلب الجمال لما فيه من جواهر الكلام ، مع دقة السلك ، وحسن النظام ، وقد اختار لشتى المواضيع التي تضمها هذه الاجزاء عناوين وصفها بلفظ من ألفاظ الجواهر الثمينة والمعادن الكريمة ، وجعل أولها كتاب اللؤلؤة في السلطان ، ثم كتب : الفريدة في الحروب ومدار امرها ؛ والزبرجدة في الاجواد والاصفاد ؛

والجمانة في العقود ؛ والمرجانة في مخاطبة الملوك ؛ والياقوتة في العلم والادب ؛ والجوهرة في الامثال ؛ والزمردة في المواعظ والزهد ؛ والدرّة في التعازي والمراثي ؛ واليتيمه في النسب وفضائل العرب ؛ والعسجدة في كلام الاعراب ؛ والمجنّبة في الاجوبة ؛ والواسطة في الخُطب ، والمجنّبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور واخبار الكَتَبَة ؛ والعسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وايامهم ؛ واليتيمة الثانية في اخبار زياد والحجّاج والطالبيين والبرامكة ؛ والدرة الثانية في ايام العرب ووقائعهم ؛ والزمردة الثانية في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ؛ والجوهرة الثانية في اعاريض الشعر وعلل القوافي ؛ والياقوتة الثانية في علم الالحان واختلاف الناس فيه ؛ والمرجانة الثانية في النساء وصفاتهن ؛ والجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين ؛ والزبرجدة الثانية في طبائع الانسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان ؛ والفريدة الثانية في الطعام والشراب ؛ واللؤلؤة الثانية في النتف والهدايا والفكاهات والمُلَح .

ويتضح من هذا السرد ذاته المواضيع التي تعنى بها « الانسانيات » العربية في نظر (ابن عبد ربه) . والحرص على التناظر « الجميل » بين جواهر هذا « العقد الفريد » حقاً . ابتداء من اللؤلؤة الاولى في السلطان ، وتليها الفريدة والزبرجدة والجمانة والمرجانة والياقوتة والجوهرة والزمردة والدرّة ... حتى واسطة العقد . ثم ترقى التسميات بتثنيتها بالترتيب حتى ترجع من المجنّبة الثانية ، والعسجدة الثانية ، واليتيمة الثانية ، والدرّة الثانية والزمردة الثانية ... الى اللؤلؤة الثانية في النتف والهدايا والفكاهات والملح .

ويكون آخر كتاب وهو آخر العقد ، لؤلؤة مثل أول كتاب فيه ، وتتنوع مواضيع العلوم الادبية التي يشتمل عليها « العقد الفريد » من الكلام « الادبي » في السلطان حتى الكلام « الادبي » في النتف والهدايا والفكاهات والمُلح ، وكأن اللؤلؤة الاولى تمثل اقسى ما يرين على النفس من مشاغل الضرورة الاجتماعية ، وتمثل اللؤلؤة الاخيرة امتع ما يحلو للنفس البشرية ان تقطفه من ثمار الحرية الفنية في دنيا الفكاهات والملح والنتف والهدايا .

فاذا شئنا ان نلمس لمساً رقيقاً جداً بعض خصائص هذه العلوم الادبية العربية امكننا ان نرمق بنظرة خاطفة مثلاً بعض ما دار عليه الكلام في كتاب الياقوتة في العلم والادب ، بعد ان عرض (ابن عبد ربه) الى الكلام في مخاطبة الملوك ومقاماتهم ، وما تفننوا فيه من بديع حكمهم . والتزلف اليهم بحسن التوصل ولطيف المعاني وبارع منطقهم واختلاف مذاهبهم. ذلك ان العلم والأدب في نظره هما القطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا، وفرّق ما بين الانسان وسائر الحيوان . وما بين الطبيعة الملكية ، والطبيعة البهيمية . وهما مادة العقل ، وسراج البدن ، ونور القلب ، وعماد الروح. يقول : « وقد جعل الله بلطيف قدرته ، وعظيم سلطانه ، بعض الاشياء عَمَداً لبعض ، ومتولّداً من بعض ، فإجالة الوهم فيما تدركه الحواس تبعث خواطر الذكر ، وخواطر الذكر تنبه رويّة الفكر . وروية الفكر تثير مكامن الارادة ، والارادة تحكم اسباب العمل ؛ فكل شيء يقوم في العقل ، ويمثل في الوهم ، يكون ذكراً ، ثم فكراً ، ثم ارادة ، ثم عملاً . والعقل متقبل للعلم لا يعمل

في غير ذلك شيئاً . والعلم علمان : علم حُمِل . وعلم استُعمل . فما حُمل منه ضرّ . وما استعمل نفع . والدليل على ان العقل انما يعمل في تقبل العلوم كالبصر في تقبل الالوان ، والسمع في تقبل الاصوات ، ان العاقل اذا لم يُعلّم شيئاً كان كمن لا عقل له . والطفل الصغير لو لم نعرّفه ادباً . وتُلقّنه كتاباً ، كان كأبله البهائم ، وأضلّ الدواب ... » .

وينقل (ابن عبد ربه) ، من ثم ، أدق الاقوال ، واجمل الاقوال ، في مجال العلم والأدب وصلتهما بالعقل . من ذلك مثلاً ان « الحكماء قالت : العلم قائد ، والعقل سائق ، والنفس ذود . فاذا كان قائد بلا سائق هلكت [الماشية] . وان كان سائق بلا قائد اخذت يميناً وشمالاً ، واذا اجتمعا اذابت طوعاً او كرهاً » ألسنا نلمس هنا . من جهة اخرى . الصورة الافلاطونية التي تمثل النفس بالعجلة يجرها جوادان متنافران . ابيض كريم . واسود لئيم ، والعقل هو الحوذي الذي يؤلف بين تضاد نزعاتهما ، فيرشد الى الصراط المستقيم ؟

قال (سهل بن هارون) يوماً وهو عند المأمون : من اصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين ان يرغبوا فيه . وقد يُرغب عن بعض العلم كما يُرغب عن بعض الحلال . فقال (المأمون) : قد يُسمّي بعض الناس الشيء علما وليس بعلم ، فان كان هذا اردتَ فوجهه الذي ذكرت . ولو قلتَ ايضاً : ان العلم لا يدرك غوره . ولا يسبر قعره ، ولا تُبلغ غايته . ولا تستقصى اصوله . ولا تنضبط اجزاؤه . صدقت . فان كان الامر كذلك فابدأ بالاهم فالأهم ، والأوكد فالأوكد ، وبالفَرْض قبل النّفل : يكن ذلك عدلاً

قصداً ، ومذهباً جميلاً . وقد قال بعض الحكماء : لستُ اطلب العلم طمعاً في غايته . والوقوف على نهايته . ولكن التماس ما لا يسع جهله ، فهذا وجه لما ذكرت . ونحن نرى ان في هذا الجواب « الحكيم » يصدر عن (المأمون) تعبيراً عن غرض موصول من اغراض « الانسانيات » العربية ، وهي ان العلم لا يُدرك غوره ، ولا يسبر قعره ، ولا تبلغ غايته ، .. وان الاختيار والترتيب القيمي وتفضيل الاوكد والاوكد ، والفرض قبل النفل ، يحقق الهدف المنشود : ألا وهو ان يكون ذلك « عدلاً قصداً ، ومذهباً جميلاً » . وهذا العدل القصد . والمذهب الجميل ، هو ما تسعى اليه العلوم الادبية . التي لا تطمع في اختصاص في العلم طمعاً في غايته والوقوف على نهايته . ولكن التماس ما لا يسع جهله . بل لا بد من هذا العدل القصد حتى يكون المذهب جميلاً : (قــال عبد الله بن مسلم بن قتيبة) : « من اراد ان يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ؛ ومن اراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم » . بيد ان هذا الاتساع يتم على حساب التعمق والضيق في التخصص . قال (ابن سيرين) : العلم اكثر من ان يحاط به : فخذوا من كل شيء أحسنه . وقال (ابن عباس) : كفاك من علم الدين ان تعرف ما لا يسع جهله ؛ وكفاك من علم الادب ان تروي الشــاهد والمثل . وقال (الاصمعي) : وَصلت بالمُلَح ، ونِلتُ بالغريب . وقالوا : من اكثر من النحو حمّقه . ومن اكثر من الشعر بذّله . ومن أكثر من الفقه شرّفه .

وقال (ابو نواس الحسن بن هانيء) :

كم من حديث معجب عندي لكا لو قد نبذتُ به اليك لسرّكا
مما تخيّره الرواة مهذّبٌ كالدرّ منتظماً بنحْر فلكّا(١)
أتتبع العلماء اكتبُ عنهم كيما احدّثَ من لقيتُ،فيضحكا

وبالرغم من هذا المكر النواسي الضاحك الذي يتتبع العلماء ليثير بحديثه عنهم الضحك والاستخفاف ، فان (ابن عبد ربّه) ينتقل من ذلك الى الحديث عن الحض على طلب العلم ، ثم الى بيان فضيلته ، وضرورة ضبطه والتثبت فيه . واجتناب انتحاله : وما هي شرائطه ، وهي ثلاث خصال : لا يحتقر مَنْ دونه ، ولا يحسد من فوقه ، ولا يأخذ على العلم ثمناً . ثم كيفية حفظ العلم واستعماله ، وتحامل الجاهل على العالم ، وتبجيل العلماء وتعظيمهم ، وان الرسول نهى عن الاغلوطات ؛ يعني صعاب المسائل وعويصها . أما شر الناس فانهم العلماء اذا فسدوا . ولذا ينبغي ألا يطلب العلم لغير الله . ويعقد (ابن عبد ربه) ، في اثر ذلك ، باباً للكلام على اخبار العلماء والادباء ، ثم يتحدث عن حملة القرآن وعن العقل حديثاً مسهباً ويثني بالكلام على الحكمة ونوادرها وعن وجوه البلاغة ويذكر فصولاً منها ثم يوضح آفاتها قبل ان يفرد باباً جديداً يتناول الحلم ودفع السيئة بالحسنة ، ويوضح صفة الحلم وما يصلح له ، ويليه باب السؤدد فالمروءة فطبقات الرجال والغوغاء ثم يفضح ثقل الثقلاء ويعالج التفاؤل بالاسماء والطيرة واتخاذ الاخوان . وما يجب لهم ، واصنافهم ، ومعاتبة الصديق ، واستبقاء مودته ، وفضل الصداقة على القرابة ، والتحبب الى

---

(١) استدار .

الناس ، وصفة المحبة ، والمواصلة والحسد ، ومحاسدة الاقارب ، والمشاكلة ومعرفة الرجل لصاحبه ثم السعاية والبغي والغيبة ومدراة اهل الشر فذم الزمان وفساد الاخوان . وينتقل ، من ثم ، الى باب الكبر والتسامح وما جاء في ذم الحمق والجهـــل ، ويتبعه باب في التواضع والرفق والاناة والاستدلال باللحظ على الضمير ، ثم الاستدلال بالضمير على الضمير ، اذكتب حكيم الى حكيم : اذا اردت معرفة ما لك عندي فضع يدك على صدرك ، فكما تجدني أجدك ...

ان العقل هو الاصابة بالظن ، ومعرفة ما يكون بما قدكان . وهذا ما يسميه (ابن عبد ربه) الاصابة بالظن ، وقد انتقل من الكلام على ذلك الى البحث في تقديم القرابة وتفضيل المعارف ، وفضل العشيرة ومجـــانبة الحلف والكذب .. وتلاه باب في الغلو في الدين وكلام في القـــدر ورد (المأمون) على الملحدين واهل الاهواء وذكر لاخبار الخوارج والرافضة والشيعة وكلام المتكلمين ثم يأتي باب في الحياء وآخرهو جامع الآداب ، آداب النبي (ص) لامته ، وآداب الحكماء والعلماء ، ولا سيما في فضيلة الادب ، وفي رقتـــه ، والادب في الحديث والاستماع ، وفي المجالسة والمماشاة والسلام والاذن وتأديب الصغير ، وحب الولد ، والاعتضاد به ، وفي التجارب والتأدب بالزمان ، وفي صحبة الايام بالموادعـــة ، والتحفظ من المقالة القبيحة وان كانت باطلاً ، وفي ضرورة طلب الاذن قبل تقبيل اليد ، والادب في العيادة ، وفي الاعتناق ، وفي اصلاح المعيشة والمؤاكلة ، ثم تبيان أدب الملوك وباب الكناية والتعريض فباب في الصمت

، في المنطق وفي الفصاحة وفي الاعراب واللحن والتصحيف وفي نوادر من الكلام ومن النحو وفي الغريب والتقعيب وفي تكليف الرجل ما ليس من طبعه ثم باب في ترك المشاراة والمماراة وآخر في سوء الادب وثالث في تحنك الفتى ورابع في الرجل النفاع الضرار ويليه باب في طلب الرغائب واحتمال المغارم وفي الحركة والسكون ثم باب التماس الرزق وما يعود على الاهل والولد وباب في فضل المال وصنوفه وتدبيره وكلام عن الاقلال والسؤال ثم عن الشيب والشباب والصحة والخضاب وكبر السن وحديث عمن صحب من ليس من نظرائه لخصال فيه . اما خاتمة كتاب الياقوتة في العلم والادب فبحث عن القرآن أهو خالق أم مخلوق .

هذه الاجزاء الخمسون ، التي يتألف من مجموعها « العقد الفريد » الذي اعاد به (ابن عبد ربه) بضاعة المشرق اليه تتجاوب مع « فنون » الانسانيات العربية التي ابرزها (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري) في كتابه الشهير ايضاً وهو « نهاية الارب في فنون الادب » ، فكان بذلك ممثلاً آخر لهذه العلوم الادبية من بين جامعي المختارات والنفائس العلمية والادبية في اطار تقليد عربي ثقافي موصول .

يرى (النويري) ان فنون الأدب هي خمسة فنون « حسنة الترتيب ، بيّنة التقسيم والتبويب ، كل فن منها يحتوي على خمسة أقسام » اورد فيها ما غلب على ظنه بأن النفوس تميل اليه ، وان الخواطر تشتمل عليه . ذكر في الفن الاول نبذة من وصف السماء التي هي قبلة الدعاء ، وباب الرجاء .

والكواكب والسيارات ذوات السنا والسناء ، والملائكة وما اليها ، والآثار العلوية ، والليالي والايام ، والشهور والاعوام ، والفصول والمواسم والاعياد ، والارض والجبال والبحار والجزائر والانهار ، وطبائع البلاد واخلاق سكانها وخصائصها ، والمباني القديمة والمعاقل ، والقصور والمنازل واختص الفن الثاني بالانسان وما يتعلق به : وبالامثال المشهورة ، وأوابد العرب ، وأخبار الكهنة ، والزجر والفأل والطيرة والفراسة والذكاء والكنايات والتعريض والاحاجي والالغاز والمدح والهجو والمجون والفكاهات والملح والخمر والمعاقرة والندمان والقيان وآلات الطرب والغناء والسماع ، والملك وشروط الامامة الشرعية والعرفية وحسن السياسة واقامة المملكة والمشورة وحفظ الاسرار المعاصرة بصبغة علمية وانضوت تحت لواء « العلوم الانسانية » بالمعنى الحديث . وقد اشرنا الى تنوع المواضيع في « الانسانيات » العربية وشمولها ما اصبح اليوم مجال بحث لعلوم النفس والاجتماع والتاريخ والآثار والفكر والسياسة والادب والفنون ، وقد كان هذا التنوع ، على شدة غناه ، مشفوعاً بالعناية الادبية الانسانية السرمدية في المنزع العربي ، ونعني بها مطلب الجمال ، حتى السماء فانها قبلة الرجاء ، وفيها كواكب وسيارات ، ولكنها الكواكب والسيارات ذوات السنا والسناء ، ولذا تعنى بها العلوم الانسانية باعتبار بهائها وجمالها بالدرجة الاولى ، ان لم نقل باعتبار الاهتمام شبه الوحيد في نطاق انسانيات الانسان . وقد انبثقت عن هذه الانسانيات ، في الثقافة العربية كما هي الحال في سائر الثقافات لدى الامم الفاضلة ، كما يقول (التهانوي) ، مقاصد علمية انجبت علوماً انسانية بالمعنى الوضعي . يقول

(آدم متز) : « لم يكن من العلوم [حتى القرن الهجري الرابع] مـــا له منهج علمي واسلوب علمي سوى الفلسفة وعلم الكلام . ثم صار لكل من التاريخ والجغرافية منهجه الخاص »(١) .

نخلص اذن الى ان للانسانيات العربيـــة اسهاماً ثابتاً قوياً في نشأة الحجاب والوزراء وقادة الجيوش والقضاة والحكام والحسبة واحكامها والكتّاب والبلغاء . اما الفن الثالث فيبحث في الحيوان الصامت من سباع ووحوش وظباء وطير وسمك والصيد وآلاته ، ووصف رماة البندق ، وما يجري هذا المجرى . والفن الرابع يتناول النبات والاقوات والخضراوات والبقولات والاشجار والفواكه والرياض.والازهـــار واصناف الطيب والبخورات والادهان وأدوية الباه والخواص . واما الفن الخامس ، وهو آخر فنون الادب ، فيتتبع مسيرة التاريخ من مبدأ خلق آدم وحواء وقصة ابراهيم الخليل ولوط وقصص الانبياء كافة واخبار ملوك الاصقاع وملوك الامم والطوائف ووقائع العرب في الجاهلية واخبار الملة الاسلامية واخبار الخلفاء من بعد الرسول واخبار الدولة الاموية والدولة العباسية والدولة الاموية في الاندلس واخبار ملوك العراق وملوك الديار المصرية الى زمن السلطان (ابي الفتح محمد بن قلاوون) حين وضع المؤلف (النويري) كتابه الموسوعي ...

ان « عقد » (ابن عبد ربه) و « نهاية » (النويري) انموذجـــان

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري – ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة – القاهرة ١٩٤٠ ، ص ٢٨٤ .

جامعان من نماذج كثيرة تعرب كلها عن غنى الثقافة العربية وتعلقها بما تحتويه العلوم الادبية او « الانسانيات » من خواطر وافكار وآراء حظيت في ثقافتنا العلوم الانسانية « العربية » اولاً ، ثم في نشأة العلوم الانسانية . بالمعنى الحديث ، وذلك بنتيجة التأثير الحضاري والتفاعل الثقافي الذي امتد من البلاد العربية الاسلامية الى غرب البحر الابيض المتوسط وشماله ثم الى سائر اصقاع الثقافات الاوربية فالعالمية. وهذه الثقافات(١) هي بلا ريب ينبوع المفهوم الجديد الوصفي عن الانسان وعلوم الانسان . فمن الجلي ان الدراسات الانسانية ، او « الانسانيات » كانت تمثل وحدها العلم الحقيقي ، والمعرفة الاساسية السامية الشاملة . ذلك ان الباحثين كانوا يميزون ، في العصور القديمة والوسيطة ، مراتب خاصة بضروب المعرفة؛ وكانت الدراسات النظرية الخالصة ، كالفلسفة او العلم النظري ، تشغل منزلة الأوج ، وتنحدر بعدها درجات المعرفة حتى تبلغ المعرفة بالاشياء الحسية او العملية . ولذا فقد كان التمايز القيمي يجعل بعض العلوم اشرف من بعض ، كما يجعل بعض الفنون او الصناعات اشرف من بعض . ونحن اليوم بعد ازدهار العلوم التجريبية والتقنية ، نصرف النظر عن هذا التمايز القيمي. أن لم نصرح بأن الآية قد عكست ، وان العلوم المادية هي التي تفوز بقصب

---

(١) كان لفظ « الانسانيات » يطلق في التعليم الفرنسي خاصة على الحلقة الثانية من التعليم الثانوي المعني بالدراسات الإنسانية بالدرجة الأولى . ثم أصبح يطلق بوجه عام على برامج الدراسات التي تشغل اللغات القديمة فيها (اللاتينية والاغريقية) منزلة كبرى. وقد حاول الدكتور طه حسين نقل هذا الاعتبار الى الثقافة العربية في مصر في فترة من الفترات .

السبق ، بعد ان كانت الفلسفة ام العلوم ، وكان اشرف العلوم ما يبحث في اشرف المواضيع ، كالعلوم السماوية والآثار العلوية ... غير ان « النزعة الموضوعية » تميل بالانسان الى وضع ضروب المعرفة العلميـة على قدم المساواة ، او ما يشبه هذه المساواة ، وشملت هذه النزعة المعرفة الادبية وعلومها ، أي « الانسانيات » ، وقــد اخذت ترنو ، في قسم كبير او صغير من اقسامها ، شطر « العلوم الانسانية » الحقيقية ، أي شطر هذه الدراسات الانسانية الجديدة التي تسعى الى اتخاذ النهج العلمي الدقيق سبيلها ، وقد بدأت محاولاتها الحديثة في القرن التاسع عشر ، وما زالت تحث الخطى اليوم .

●

ولعل من المفيد ان نختم هذه العجالة بالوقوف امام انموذج لمفهوم الانسان في نطاق « الانسانيات » العربية المدرسية . وقد ازدهرت العناية بابراز هذا المفهوم حتى امتدت الى بحوث « الصالونات » الادبيـة ، وانموذجها الجلي ندوة الوزير (ابي عبد الله العارض) ، وقد تحدث عنها امتع حديث (ابو حيان التوحيدي) في كتاب « الامتاع والمؤانسة » خاصة ، وحمل الينا اصداءها في سائر مؤلفاته . وانفرد ببحث جوانب حية من مفهوم الانسان بأن كان يلقي اسئلة متنوعة دقيقة وكان يلقى اجوبة (مسكويه) عنها وقد ضم ذلك كله كتاب فريد في بابه هو كتاب : « الهوامل والشوامل » وهو (للتوحيدي) و (لمسكويه) معاً .

كتب (ابو حيان) في « الامتاع والمؤانسة » : « الانسان بشر ، بنيته

متهافتة ، وطينته منتثرة . وله عادة طالبــة ، وحاجة هاتكة ، ونفس جموح ، وعين طموح ، وعقل طفيف ، ورأي ضعيف ، يهفو لأول ريح ، ويستخيل لأول بارق ، هذا اذا تخلص من قرناء السوء ، وسلم من سوارق العقل ، وكان له سلطان على نفسه ، وقهر لشهواته ، وقمع لهوائجه ، وقبول من ناصحه ، وتهيوء في سعيه ، وتبوء في معان حظه ، وائتمام بسعادته . واستبصار في طلب ما عند ربه ، واستنصاف من هواه المضلّ لعقله المرشــد ... الانسان صغير الحجم ، ضعيف الحول ، لا يستطيع ان يجمع بين شهواته وأخذ حظوظ بدنه وادراك ارادته ، وبين السعي في طلب المنزلة عند ربه باداء فرائضه ، والقيام بوظائفه ، والثبات على حدود امره ونهيه ، فإن صَفَّق وجهه وقال : نعمل تارة لهذه الدار ، وتارة لتلك الدار ، فهذا المذبذب الذي لا هو من هذه ولا من هذه ، ومن تخنّث وتليّث لم يكن رجلاً ولا امرأة ، ولا يكون اباً ولا اماً ، وهذا كما نرى »(١) .

بيد ان الانسان ، هذا الكائن المتناقض بنية وتطلعاً وسلوكاً ، صفوة ما دونه من اصناف الحيوان . يقول (ابو حيان) : « ان اخلاق اصناف الحيوان الكثيرة مؤتلفة في نوع الانسان ، وذلك ان الانسان صفوُ الجنس الذي هو الحيوان ، والحيوان كدَرَ النوع الذي هو الانسان ، والانسان صفو الشخص الذي هو واحد من النوع ، وما كان صفواً ومُصاصاً بهذا

---

(١) للتوحيدي : الامتناع والمؤانسة – نشر بتصحيح احمد أمين واحمد الزين – القاهرة ١٩٣٩ ج ١ ص ١٦ .

النظر انتظم فيه من كل ضرب من الحيوان خُلُق وخلقان واكثر ، وظهر ذلك عليه وبطن ايضاً بالاقل والاكثر ، والاغلب والاضعف ، كالكمون الذي في طباع السبع والفأرة ، والثبات الذي في طباع الذئب ، والتحرّز الذي في طباع الجاموس من بنات الليل ، والحذر الذي في طباع الخنزير ، والتقدم الذي في طباع الفيل امام قطيعه تمثّلاً بصاحب المقدّمة ... [ولذا قيل] : ينبغي للقائد العظيم ان يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان : سخاء الديك ، وتحنّن الدجاجة ، ونجـــدة الأسد ، وحمّلة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب ، وحراسة الكركي ، وحذر الغراب ، وغارة الذئب ، وسمن بعروا ، وهي دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء ... »(١) .

الانسان يسمو على الحيواتات حتى صار يسخرها لمآربه . ذلك انه لما وُهب الفطرة ، وأُعين بالفكرة ، ورُفد بالعقل ، جمع هذه الخصال وما هو اكثر منها لنفسه وفي نفسه ، وبسبب هذه المزية الظاهرة فَضَل جميع الحيوان ، حتى صار يبلغ منها مراده بالتسخير والإعمال واستخراج المنافع منها وادراك الحاجات بها . وهذه المزية التي له مستفادة بالعقل ، لان العقل ينبوع العلم ، والطبيعة ينبوع الصناعات ، والفكر بينهما مستملٍ منهما ومؤدٍ بعضها الى بعض بالفيض الإمكاني ، والتوزيع الانساني . فصواب بديهة الفكر من سلامة العقل ، وصواب روية الفكرة من صحة الطباع ، وصحة الطباع من موافقة المزاج ، وموافقة المزاج بالمدد الاتفاقي ، والاتفاق

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٤ .

الغيبي ، « اعني بهذا ان وجه الحادث المجهول عندنا اتفاق ، ووجه الحادث المعلوم عند الله عز وجل غيب ، فلو ظهر هذا الغيب لبطل الاتفاق ولو بطل الاتفاق لارتفع الغيب »(١) .

الانسان اذن كائن متناقض ومعقد ، وهو نهب موزع بين طبيعته وبين نفسه . يروي (ابو حيان) عن (ابي سليمان السجستاني المنطقي) قوله : الانسان بين طبيعته ، وهي عليه ، وبين نفسه ، وهي له ، كالمتهبّ المتوزّع فان استمد من العقل نوره وشعاعه قوي ما هو له من النفس ، وضعف ما هو عليه من الطبيعة . وإلاّ فقد قوّي ما هو عليه من الطبيعة ، وضعف ما هو له من النفس . من هنا وجب على المرء ان يعرف نفسه ، فاذا عرف الانسان نفسه فقد عرف العالم الصغير ، واذا عرّف العالَم فقد عرف الانسان الكبير ، واذا عرف العالمين عرف الاله الذي بجوده وُجد ما وُجد ، وبقدرته ثبّت ما ثبّت ، وبحكمته ترتّب ما ترتب ، وبمجموع هذا كله دام ما دام(٢) .

ثم ان الانسان ، باعتبار آخر ، حي ناطق مائت . فالحي دلالة على الحس والحركة ، والنطق دلالة على العقل والروية ، والمائت دلالة على السيلان والاستحالة(٣) . ولكن الانسان انما هو انسان بالنفس ، والنفس ما هو انسان ، والانسان له صورة بحسب قبوله من النفس ، والنفس نفس بحسب ملابستها للبدن ، وتصريفها له ، وتدبيرها فيه . فاذا قال الانسان

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٥ .
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٧ .
(٣) التوحيدي : المقابسات – تحقيق حسن السندوبي – القاهرة ١٩٢٩ ص ٣١٦.

حدثتني نفسي او حدثت نفسي ، فانما ذلك لشعوره بشرف نفسه ، بقدر ما استفاد من صورتها الخاصة به ، واستنارة العقل عليه ، هذا اذا كان الحديث مؤاتياً للحق ، آخذاً بقسطه منه ، وان تكن الاخرى دخل الفساد من ناحية المادة والخلط والمزاج والقابل ، ألا ترى انك لا تقول : حدثني عقلي بكذا وكذا ، ولا حدثت عقلي بكذا وكذا ؟ لان افق العقل اعلى ، وعالمه ارفع ، واثره ألطف وانقى ، ونسبه اشرف واسنى ، والانسان متقوم بالنفس ، حتى اذا لحظها بعينه التي له منها ساغ له ان يحدثها ويحدث عنها ويحقق بناءها وحالها ! وهي العقل بوجه آخر ، والعقل هي بوجه آخر ، ولكن العبارة عن هذه الخفيات قاصرة ، وان كانت النفس بها مستنيرة ، فعلى هذا : الانسان يحدث نفسه بما يغلب منها ، وتحدثه نفسه بما يغلب عليها منه ، وهو هي ، وهي هو ، ولكن بنوع ونوع : وحال وحال ، واسم واسم، وملخوص وملخوص ، وتقريب وتقريب(١).

يتضح اذن ان الكلام في النفس ، وبها يتقوم الانسان من حيث خاصيته ، كلام صعب ، وان للباحثين عنها في غيبها وشهادتها ، واثرها وتأثرها ، آراء شتى ، وللوهم عليهم سلطان ، « وكل قد قال ما عنده بقدر قوته ولحظه ، والرأي بعد ذلك الى العقل الناصح ، والبرهان الواضح »(٢) وفي حدود هذا المعيار العقلي يذكر (ابو حيان) اقوال الفلاسفة في النفس وعلاقتها بالبدن ، والنفس هي التي تحيي الانسان وتحركه ، وكل محرك

---

(١) المقابسات ص ١٦٢ .

(٢) الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٩٨ .

يحرّك غيره فهو حي قائم موجود ، فالنفس اذن حية قائمة موجودة . كما ينبه الى ان انحلال الرباط بين النفس والبدن لا يعني بطلان النفس والبدن معاً . فمن الظاهر ان قوام البدن ونظامه وتمامه بالنفس ولكن هذا ليس « حكم النفس في شأنها مع البدن ، لانها واصلته في الاول عند سقط النطفة ، فما زالت تربيّه وتغذيه وتحييه وتسوّيه حتى بلغ البدن الى ما ترى ، ووُجد الانسان بها ، لان النفس وحدها ليست بانسان ، والبدن وحده ليس بانسان ؛ بل الانسان بهما انسان ، فاذن الانسان نصيبه من النفس اكثر من نصيبه من البدن »(١) .

و « يفلسف » (مسكويه) هذه الحقائق عن الانسان فيتحدث مثلاً في كتاب « الفوز الاصغر » عن مراتب الوجود ويبين اتصال بعضها ببعض ويعلن ان مراتب القرود واشباهها قاربت الانسان في خلقته الانسانية ، « وليس بينها وبينه الا اليسير الذي ان تجاوزه صار انساناً » . وهذه المرتبة القريبة من مرتبة الانسان تؤلف افق البهيمة ؛ وهي أدنى آفاق الانسان ، ثم يقع التفاوت بالنفس الناطقة وما تشتمل عليه من قوى الفكر والعقل ، وهي قواها الخاصة المميزة . ان النفس ليست بجسم ولا جزءاً من جسم ، ولا حالاً من احواله بل هي شيء آخر مفارق له بجوهره واحكامه وخواصه وأفعاله . « واما شوقها الى افعالها الخاصة بها ، اعني العلوم والمعارف مع هربها من افعال الجسم الخاصة به فهو فضيلتها ، وبحسب طلب الانسان لهذه الفضيلة وحرصه عليها يكون فضله »(٢) .

---

(١) الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ٢٠٣ .

(٢) مسكويه : تهذيب الاخلاق — بيروت (١٩٦١) ص ١٢ .

ولما سأل (ابو حيان) عن سبب رغبة الانسان في العلم ، وما هي فائدة العلم وغائلة الجهل ، كان مما اجاب به (مسكويه) قوله : ... العلم كمال الانسان من حيث هو انسان ، لانه انما صار انساناً بصورته التي ميزته عن غيره ، اعني النبات والجماد والبهائم ، وهذه الصور التي ميزته ليست في تخاطيطه وشكله ولونه ، والدليـــل على ذلك انك تقول : فلان اكثر انسانية من فلان ، فلا تعني به أنه اتم صورة بدن ، ولا اكمل في الخلق التخطيطي ، ولا في اللون ، ولا في شيء آخر غير قوته الناطقة التي يميز بها بين الخير والشر في الامور ، وبين الحسن والقبح في الاعمال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات ، ولذلك قيل في حد الانسان انه حي ناطق مائت ، فميز بالنطق ، اعني بالتمييز بينه وبين غيره ، دون تخطيطه وشكله وسائر اغراضه ولواحقه(١) ..

ان اول المراتب من الافق الانساني متصل بآخر الافق الحيواني ، ثم تتزايد قوة التمييز والفهم واكتساب الفضائل واقتنائها بالارادة والسعي والاجتهاد حتى يصل الانسان الى آخر افقه فيتصل بأول افق الملائكة وهذا اعلى مرتبة الانسان . « فاذا صار الانسان انساناً كاملاً وبلغ غاية افقه اشرق نور الافق الاعلى عليه ، وصار إما حكيماً تاماً تأتيه الالهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة ، والتأييدات العلوية في التصورات العقلية ، وإما نبياً مؤيداً يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى

(١) التوحيدي ومسكويه : الهوامل والشوامل – تحقيق أحمد امين والسيد احمد صقر – القاهرة – (١٩٥١) ص ٢٢٨ .

ذكره . فيكون حينئذٍ واسطة بين الملأ الاعلى والملأ الاسفل ، وذلك بتصوره حال الموجودات كلها والحال التي ينتقل اليها من حال الانسية ، ومطالعة الآفاق التي ذكرناها ، وحينئذٍ يفهم عن الله عز وجل قوله : « فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين » ، وتصور معنى قوله (ص) : هناك ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »(١).

وصفوة القول ، ان للبشر منزلة متوسطة بين العجماوات والملائكة ، ولكن للعلماء من بين البشر منزلة متميزة بها يكتب لهم الخلود ، اوالحياة بالمعنى الصحيح . سأل (ابو حيان) : « ما معنى قول بعض القدماء : العالِم اطول عمراً من الجاهل بكثير ، وان كان اقصر عمراً منه ؟ ما هذه الاشارة الدفينة ، فان ظاهرها مناقضة ؟ فأجاب (مسكويه) : قد تبين من مباحث الفلسفة ان الحياة على نوعين : احدهما حياة بدنية ، وهي البهيمية التي تشاركنا فيها الحيوانات كلها ، وحياة نفسية ، وهي الحياة الانسانية التي تكون بتحصيل العلوم والمعارف ، وهذه الحياة الانسانية التي يجتهد الافاضل من الناس في تحصيلها فالواجب ان يُظن بالجاهل الذي يحيا حياة بدنية انه ليس بحيّ بتةً ، اعني انه ليس بانسان ، ولا حي حياته . فأما العالِم فالواجب ان يقال فيه : انه هو الحي بالحقيقة ، كما ان غيره هو الميت »(٢) .

وبذا يلتقي الواقع والمجاز ، والحادث بالقيمة ، ويبدّل التقويم الانساني معطيات الطبيعة ، ويقلب المفاهيم « الوضعية » المتصلة بها رأساً على عقب

---

(١) مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٧٥ .

(٢) الهوامل والشوامل ص ٢٨٤ .

فحياة الطبيعة ، حياة البهيمة ، ليست على الحقيقة بحياة . انها ليست الحياة حقاً . والعالِم وحده هو الحي بالحقيقة ، وغيره هو المائت ، وحياة العالِم هي حياة نفسه ، هي الحياة الانسانية التي تكون بتحصيل العلوم والمعارف ، والتي يجتهد في تحصيلها الافاضل من الناس . وهنا يجيب (مسكويه) ايضاً على سؤال آخر يطرحه (ابو حيان) بقوله : هل يجوز ان تكون الحكمة في تساوي الناس من جهة ارتفاع الشرف دون تباينهم ؟ يقول : « انما يشرف الانسان بنفسه وبما يظهر من آثار الحكمة . وما احسن قول الامام (علي) : « قيمة كل امرىء ما يحسن.. وكيف يتساوى الناس في ارتفاع الشرف ، ولو تساووا فيه لما كان شرف ولا ارتفاع ، وإلا فعلى ماذا يرتفع ويشرف ، والمنازل متساوية ؟ ولكن الناس يتساوون في الانسانية التي تعمّهم ، وفي اشياء تتبع الانسانية من الاحكام والاوضاع ، ويتفاوتون اموراً اخر يزيد بها بعضهم على بعض »(١) .

من الحيوان البهيمة ، وقد غدا هملاً في الاعتبار ، الى الحيوان الناطق الحي بالحقيقة ، بنفسه العالمة ، ومن النفس الناطقة العالمة الى الانسان الخير . ومن الانسان الى الانسانية ، بل من الانسان الى الملائكية فالربوبية ، ذاكم هو الدرب الذي يقود من معطى الطبيعة الخام الى معطى التطلع الانساني المصقول في عالم قيم يريدها الانسان مختاراً لنفسه ولابناء جنسه في الارض وفي ما وراء الارض .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

الفصل الرابع

النظرة العلمية المعاصرة

يصرح الدكتور (الكسيس كاريل) ـ صاحب « الانسان ـ ذلك المجهول »، بأنه ليس فيلسوفاً ، بل رجل علم وحسب . وقد قضى الشطر الاكبر من حياته في المخبر يدرس الكائنات الحية ـ والشطر الباقي في العالم الفسيح يراقب بني الانسان ، ويحاول فهمهم ؛ ويعلن انه لا يدّعي معالجة امور خارج نطاق الملاحظة العلمية. فقد اعتبر الانسان ملخصاً للملاحظات والتجارب في جميع الاوقات والبلدان ـ ولم يصف إلاّ ما رأى بأم عينه ، أو عرف مباشرة من اولئك الذين اتصل بهم . يقول : « لاحظت كل وجه تقريباً من اوجه النشاط البشري وعرفت الصغار والكبار ـ الاصحاء والمرضى ، العلماء والجهال ، ضعاف العقل والمجانين والمهرة والمجرمين. وقد عاشرت الفلاحين والكادحين والمستخدمين والتجار والباعة ورجال السياسة والجنود والاساتذة والمعلمين ورجـال الدين الارستقراطيين والبرجوازيين . وقد وضعتني ظروف الحياة في طريق الفلاسفة والفنانين والشعراء والعلماء ، كما ألقت بي احياناً على درب العباقرة والابطـال والقديسين . ودرست في الوقت ذاته سير الآليات الخفية التي تعمل في

اعماق الانسجة وتلافيف الدماغ ، وهي في الحق حامل الظواهر العضوية والعقلية معاً »(١) :

عاش الدكتور (كاريل) في العالم الجديد ، وفي العالم القديم ايضاً . وسلخ جلّ وقته في « معهد روكفلر للبحث الطبي » ؛ وانتهى من جهده العلمي كله الى ان الناس يملكون الآن اكداساً من المعلومات ، وانه لو شاء ان يكتب رسالة عن الانسان لاستغرقت منه عشرات المجلدات الضخمة . ولكنه حاول ايجاز هذه المعلومات منبهاً الى ضرورة تحول اهتمام البشرية من الآلات وعالم الجماد الى جسم الانسان وروحه ، الى العمليات العقليـــة والعضوية التي ابتدعت الآلات ودنيـــا (نيوتن) و (انشتين) . ذلك اننا نحتاج الى ان نعرف انفسنا معرفة افضل ، وان من المحال ان يفهم العالم الاخصائي الانسان باعتباره كلاً ، ولا نستطيع ان ندرس الانسان دراسة علمية الا اذا احدثنا اتساعاً بعيد المدى في حقول كل علم . والامر عنده لا يخلو بالرغم من ذلك من الخطورة . « مثـــال ذلك : تخصص (بكالمت) في علم الجراثيم ، واراد ان يحول دون انتشار مرض السل في الشعب الفرنسي . وكان من الطبيعي ان يصف المصل الذي اخترعه . فلو انه كان ملماً ، بالاضافة الى تخصصه في علم الجراثيم الماماً واسعاً بالصحة والطب ، لنصح مواطنيه باتخاذ اجراءات معينة فيما يتعلق بالسكن والمأكل واحوال االعمل وطريقة حياة الناس . وحينما يبدأ أحد الاطباء حيـــاته

(١) الكسيس كاريل : الانسان ذلك المجهول – باريز ١٩٣٩ ، المقدمة ص ٢ – انظر ايضاً الترجمة العربية بقلم شفيق اسعد فريد .

لعملية بالتخصص في دراسة عضو صغير في الجسم ، فان معلوماته عن بقية اجزاء الجسم تصبح أولية حتى يصبح عاجزاً عن فهم هذه الاجزاء بما فيها العضو الذي تخصص فيه ... وهـذا ما يحدث ايضاً بالنسبة للمعلمين ورجال الدين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع الذين لم يحملوا أنفسهم مشقة توسيع دائرة معلوماتهم العامة عن الانسان قبل ان يختاروا موضوعاً معيناً يتخصصون فيه . وهكذا كلما ازداد الاخصائي تعمقاً في فنـه ازدادت خطورته ... وكثيراً ما اعتقد العلماء الذين اصابوا نجاحاً بعيد المدى في فرع معين من فروع العلم وبرزوا باختراعاتهم الفذة ، ان معلوماتهم الممتازة في هذا الفرع تمتد الى باقي فروع العلم ... ان (اديسون) ، مثلاً ، لم يتردد في اذاعة آرائه في الفلسفة والدين على الجمهور الذي اصغى اليـه باحترام وتوهم ان هذه الآراء تحمل معاني جديدة في هذه المواد الجديدة مثلما حملت آراؤه في العلوم الاخرى التي برع فيها وهكذا فان العظماء حين يتكلمون في شؤون لا يلمون بها الماماً كافياً يعرقلون تقدم البشر في احد حقوله بينما يسهمون فعلاً في هذا التقدم ، ولكن في حقل آخر » .

اجل ، ان الحضارة المعاصرة تحتاج الى الاخصائيين ، وبدونهم لا يستطيع العلم ان يتقدم ، ولكن من تطبيق حصيلة جهودهم على الانسان يستلزم بصورة تمهيدية تركيب المعطيات المبعثرة في تضاعيف تحليلهم(١) .

ثم ان البشر ، في رأي (كاريل) لا يصلحون مادة للبحث العلمي ، لان الانسان لا يستطيع ان يجد بسهولة اناساً ذوي صفات مميزة خاصة .

---

(١) المصدر السابق – الفصل الثاني – الفقرة الخامسة .

كما انه يكاد ان يكون من المحال التحقق من نتائج تجربة من التجارب باحالة الموضوع الى ما يماثله . يقول : « دعنا نفترض مثلاً انا نريد ان نقارن بين طريقتين في التعليم . فلكي نقوم بهذه الدراسة فاننا نختار مجموعتين من الاطفال المتماثلين على قدر المستطاع . فاذا كان هؤلاء الاطفال ، برغم اتفاقهم في السن والجرم ، ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة واذا لم يكن طعامهم واحداً ، واذا كانوا يعيشون في اجور نفسية مختلفة ، فلن يمكن مقارنة النتائج . وكذلك الحال اذا اردنا دراسة تأثيرات طريقتين مختلفتين من الحياة على اطفال ينتمون الى اسرة واحدة . ذلك ان ثمة غالباً . بالنظر لعدم نقاوة الاجناس البشرية ، وجوه اختلاف عظيمة بين الاطفال الذين ينسلهم ابوان بذاتهما ... »(١) :

وصفوة القول ، يرى (كاريل) اننا لن نكتسب معرفة افضل بأنفسنا بمجرد اختيار حقائق ايجابية من اكداس المعلومات المتعلقة بالانسان ، واقامة جدول كامل لوجوه نشاطه ، وكذلك لن يكفي استكمال هذه المعلومات بطريق ملاحظات جديدة او تجارب جديدة وانشاء علم حقيقي للانسان . ومرد ذلك في رأيه ان البشر يحتاجون ، اكثر ما يحتاجون ، الى تراكيب يمكن استخدامها ، وان الغرض من معرفة الانسان ليس ارضاءً فضولياً ، بل اعادة بناء أنفسنا وما يحيط بنا . ولذا فان « علم الانسان سيكون مهمة المستقبل » . وان علينا ان نقنع الآن بالبداية ، سواء من الناحية التحليلية او من الناحية التركيبية المتعلقة بالصفات الخاصة بالانسان ، وهي الصفات

(١) المصدر السابق الفصل الثاني — الفقرة الخامسة .

التي برهن النقد العلمي على صحتها .

وعلى هذه الدرب التي اختطها صاحب « الانسان ذلك المجهول » وغيره من « العلماء » سار باحثون كثيرون ، وكلهم ينطق باسم العلم ، او يرتدي مسوح الوضعية والموضوعية ، ورأى الدكتور (صبحي ابو غنيمة) ان النفس هي ذاك المجهول الخالد ، ووجد علماء الحياة التطوريون ان الانسان يدرس جسداً وبيئة ، وتفاعلاً بين الحي وبين بيئته ، وتطوراً عبر الاجيال وراثة واستحالة او تغيراً مباغتاً عميقاً ، ومن المعاصرين في هذا التيار نشير الى ثلاثة هـم (جوليان هكسلي) و (جان روستان) و (لوكنت دي نوي) . اما العالم الجيولوجي الاب (تيار دي شاردان) فينطق باسم العلم وباسم الحفريات متحدثاً عن « الظاهرة الانسانية » وباسم العلم والاعلام ينطق في وقتنا الحاضر الطبيب (بيير فندريس) في كتابه « نظرية عن الانسان » .

●

ويود الدكتور (محمد صبحي ابو غنيمة) ان يبين في كتابه المسمى « نظرة في اعماق الانسان على ضوء تفكير جديد في الطب » قصة الانسان « التي كانت ولم تزل وستظل اعجب واغرب قصة في هذا الوجود » . فهو يستجيب لحكمة معبد (دلفي) القائلة : ايها الانسان ، اعرف نفسك بنفسك ويضيف قوله : ليس من المرآة ، بل من الاعماق اعرف نفسك . ويرى ان اول ما سنعرفه في اعماق هذا الانسان هو عداوته لما يجهل ؛ ولما نشر العالم الجراح (ارفين ليه ك) كتاباً بعنوان « الاعجوبة في الطب » ثارت

حوله عاصفة تتهم المؤلف بأنـــه دجال ومشعوذ ، وان الطب لا يعترف بالاعجوبة ، ولا يؤمن بالصدف ؛ ولكن الدكتور (ابا غنيمة) يدافع عن امكان الاعجوبة ، ويدعو الى مفهوم جديد عن المرض والعلاج وذلك بأن يكون المرض – كل مرض – شكلاً مـــن أشكال الدفاع ، وان تقسيم الامراض ينبغي ألا يكون على اساس الاعضاء بل على اساس الدفاع ووسائله واهدافه ؛ وان ثمة منظماً ديناميكياً ذاتياً هو الذي نراه دوماً وراء كل شفاء ، وبدون فهمه لا نستطيع تفسير عجز بعض الادوية عن اداء عملها ، ويستتبع ذلك ان العلاج لا يمكن ان يكون منفصلاً عن العلاج النفسي ، فكـــل علاج ، فيزيائياً كان او كيميائياً ، بل وذاك الذي هو جراحي ، انمـــا هو جزء من العلاج النفسي وتتمة له او وسيلة لبلوغه . واذا اهملت العناية بهذه الناحية النفسية كان ذلك يعدل بقاء المرض واستمراره في الوجود .

ينطلق الدكتور (ابو غنيمة) من سؤال : هل افلس طبنا المعاصر ؟ ويورد آراء بعض المفكرين والاطباء ، ولا سيما اعتقاد (الكسيس كاريل) بأن مشكلة المرض ما زالت بعيدة عن الحل ، واعلان) فردريك كراوس) مؤلف « انسان الاعماق » ان طبنا المعاصر قد افلس والواقع ان مشكلة الطب هي مشكلة هذه الملايين والبلايين وبلايين البلايين من الذرات التي تشكل كلها عالماً واحداً هو الانسان . وهذا الانسان يعيش في القرن العشرين عيش القلق والارق والاسبيرين . ولا يحسبن احد ان مهمة الطب هي خدمة الحياة ، بل هي خدمة الموت أيضاً ، وذلك عندما يستنفد الانسان وصيده من

الخلايا ويصبح الموت عنده حاجة بل لذة ، ويكون قد حان وقت (الموت الطبيعي) (١) .

وقد اتخذ المؤلف دراسة الامور الشاذة والعجيبة او المعجزة في الطب سبيلاً للكشف عن الحقيقة ، وتمهل في تبيان الامثلة على المعجزات العلاجية وعلى ان الشفاء يستلزم ايمان المداوي والمداوى (بالفتح) بالشفاء . ويرى (كراتشمر) ان لكل انموذج من الناس امراضه الخاصة ، كالنحيل الذي يتعرض لامراض السل والقرحة والزائدة الدودية وامراض الكلية ، والبدين الذي يتعرض لالتهاب المرارة والبانكراس ، ومرض السكر وتصلب الشرايين ؛ وسبب ذلك اختلاف الدفاع الجرثومي باختلاف النماذج ، وكذلك اختلاف ضغط الدم ، ولكن على المرء ان يذكر ان وراء كل علاج سراً . فالطب المعاصر يخطىء حين يجعل للمرض اسباباً داخلية واخرى خارجية بدون ان يعترف بهذا السر . ذلك ان النفس فقط هي التي تريد وترفض ، وتحس وتشعر ، وتقبل وتصد ، وليس النسيج والعضل ، والحامض القلوي . وقد قال الطبيب الالماني الكبير (فون كرهل) : « ان الجسم في كل ظواهر سلوكه انما يفعل ما تريده النفس ، » والنفس هي ذلك المجهول الخالد»(٢) ؛ وهذا المجهول كان ولم يزل لغزاً ، وقد بذل الباحثون القدامى والمحدثون جهدهم في مختلف مدارسهم : السلوكية ،

---

(١) محمد صبحي ابو غنيمة : نظرة في اعماق الانسان – على ضوء تفكير جديد في الطب ج ١ (١٩٥٨) ص ٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٩ .

والتحليل النفسي ، وما اليها . ولكنهم يعلنون عن عدم وصول هـذه المدارس الى اتفاق تام في الرأي ، والخروج منه بقوانين كلية شاملة. ومن هنا يأتي دور الاطباء وعلم النفس الطبي الذي يرى ان الحياة تفاعل بين العالم الخارجي والانا ، وان من الخطأ الانطلاق من وجود مرض ، بل لا بد من الانطلاق من وجود مريض ، وان مرضه هو شكل من اشكال الدفاع عن البقاء ، ولا يمثل انذار المرض في العضو ، بل في مراحل الدفاع والتنسيق ، على خلاف ما ألفنا حين يتجه همنا في جميع فحوصنا المخبرية والفيزيائية والشعاعية الى معرفة العضو الذي فيه المرض فنسميه باسمه ، ونعطي الدواء كذلك ، فنقول مرض الكبد ، وداء الكبد مثلاً ، ولكن هذه الطريقة القديمة ليست كافية ، فهناك الاثارة النفسية التي توجب على الطبيب عند تشخيص المرض ان يعرف مغزاه – باعتبار ان لكل مرض مغزى – وصار من اهم الواجبات ان نتحرى « لماذا كان المرض خصيصا هنا .. في هذا العضو او ذاك » . وما العلاج الكيميائي او الجراحي إلا مرحلة من مراحل الشفاء . وبهذا ايضاً يصح ان نقول ان كل علاج هو في النهاية علاج نفسي . اما الحياة فانها ، في جميع مظاهرها تغيير نوع واحد من الطاقة ، وهذه الطاقة هي طاقة الدفاع ، وهي طاقة توجه بحسب قبول الاثارة وهدفها ، ومعنى هذا مكان السيطرة – نظرياً على الاقل – على جميع مظاهر السلوك في الحياة ، وان الاخذ بهذا الرأي يساعد على تفهم امور ثلاثة ظلت حتى الآن سراً مغلقاً ، وهي التنويم المغناطيسي ، وساعة الرأس ، والنكتة من حيث عملها الطبي(١) . فساعة الرأس هي ان تستيقظ

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦١ .

الام مثلاً عند اقل تململ من طفلها ، وصاحب الطاحون يفيق عندما يقف حماره ذو الجرس . والطبيب يعطي في كل يوم ، والى كل مريض نصيحته بالمرح و « الفرفشة » . ولكن هذه الوصفة لا تصرف إلاّ في صيدلية الظرفاء(١) .

●

اعلمنا الدكتور (الكسيس كاريل) ان « الانسان هو ذلك المجهول » ؛ واعلمنا الدكتور (صبحي ابو غنيمة) ان « النفس هي ذلك المجهول الخالد » ، وكلا العالمين طبيب عني أولهما بالمعرفة العلمية في النصف الأول من القرن العشرين(٢) في فرنسه والولايات المتحدة الامريكية خاصة . وعني الآخر بالمعرفة ذاتها في النصف الثاني من القرن الحالي في المانيه وغيرها ، وسنرى كيف عني طبيب ثالث هو (بيير فندريس) ، بالانسان ، ولكنه رأى الانسان « معلوماً » وان العلم الذي يحيط به هو العلم المعاصر في عهد السبرنتيك والإعلام ، وقد تمخضت بحوثه عن رأيه في « نظرية الانسان » نشرها في كتاب بهذا العنوان سنة ١٩٧٣ .

ولئن كان العلماء « الاطباء » ينطلقون ، اكثر ما ينطلقون ، من علوم الحياة فانهم في الحق يرثون تقليداً قديماً عرفته البشرية في محاولتها الكشف عن حقيقة الانسان « العلمية » باعتبار اصله ونشوئه ، وقد اتضح في هذا

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧٤ .

(٢) عاش (الكسيس كاريل) بين سنتي ١٨٧٣ — ١٩٤٤ ومنح جائزة نوبل لابحاثه الطبية الفذة سنة ١٩٣٩ .

هذا التقليد تيار أول يؤمن بـ « تفرد » الانسان عن سائر الكائنـــات ، والاعتقاد ان بين الانسان « المتميز » وسائر الحيوانات هوة سحيقة لا يمكن تجاوزها ، وسداً منيعاً يتعذر اختراقه . ولكن في هذا التقليد تياراً آخر يسعى الى اقامة صلة الوصل بين الانسان وبين سائر الحيوانات والنباتات وكافة الاحياء من جهة ، ثم بين هذه الكائنات كلها وبين سائر الموجودات غير الحية من جهة اخرى ، وقد عرفت هذه المحاولات باسم جامع هو مبدأ التطور ، ونجد جذور فكرته في الثقافة الاغريقية القديمة ، ومثلاً لدى (انكسيمندر الميلي) و (انباذوقلس) ، كما نجدها في صورة اوضح واجلى في الفكر العربي لدى (مسكويه) و (اخوان الصفا) مثلاً ، ونجدها في الثقافة المسيحية بصورة استثنائية لدى (القديس اوغسطين) ؛ وقد رجحت كفة القول باللاتطور وبثبوت الانواع حقباً من الزمن حتى بزغ فجر القرن الثامن عشر فمهد (بوفون) و (الموسوعيون) الجو لقبول فكرة التطور على أسس جديدة قوامها تعمق مفهوم النوع والظاهر ان (بوفون) لم يجرأ على عرض افكاره الحقيقية حول التطور ، فكان (لامارك) وهو احد تلاميذه ، اول من صاغ نظرية التطور التفسيرية وعارضه (كوفيه) بوجه خاص ، ومضى (موبوريتوس) و (روبينه) و (ارازم دارون) ، وهذا هو جد (تشارلز دارون) في طريق البحث العلمي عن التطور حتى كان القرن التاسع عشر ووضع (دارون) مذهبه الشهير ، فخسر الانسان هالة تميزه ، وجاه انفراده ، واعتبر الانسان ، مرة اخرى ، حيواناً لا ملاكاً ، ولكن « على ضوء العلم لا على ضوء الإحساس الساذج » والنظرية المسيحية التي اعتبرت الحياة الدنيا تجربة مريرة في وداي الدموع ، ودعت

الى الزهد والتقشف ومحاربة الجسد ومتع الحياة والتطلع الى ملكوت السموات. صار الانسان، مرة اخرى، حيواناً في نظر العلماء، شأنه شأن سائر الحيوانات، و « لذلك فان آراءه في معنى الحياة الانسانية والمثل العليا الانسانية لا تستحق بالنسبة لباقي الكائنات تقديراً أكثر من اراء الدودة الشريطية »(١) والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطوري في معترك الحياة. ويرى (جوليان هكسلي)، من ثم، ان الكائنات الحية الموجودة متساوية القيمة، وان فكرة التقدم ليست الا فكرة انسانية وان من المسلم به في الوقت الحاضر ان الانسان سيد المخلوقات، « ولكن قد تحل محله النملة أو الفأر ... ولم تصغر الهوة هنا بين الانسان والحيوان نتيجة للمغالاة فيما للحيوانات من صفات الانسان، وانما نتيجة للتقليل مما للانسان من صفات الانسانية. ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد، وقد يكون سببه في الغالب مجرد زيادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمي ». غير ان (جوليان هكسلي) يحدد بدقة مركز الانسان في نظر علم الحياة المعاصر فيقول: « لقد اصبح الانسان، بعد القضاء على النظم الدينية والخلقية والسياسية القديمة، يحتاج حاجة ملحة الى نظام للقيم والمثل العليا، الامر الذي دفعه الى اعادة البحث بدقة اكثر في مركزه البيولوجي » اجل، ان الانسان لم يعد في وسعه، بعد نظرية داروين، وذيوعها الحاسم الذي يجعل العلماء يقرون باستمرار العالم الحي وصدور الانواع الحيوانية والنباتية بعضها عن

---

(١) جوليان هكسلي: الانسان في العالم الحديث – ترجمة حسن خطاب – القاهرة سلسلة الألف كتاب – ص ٢.

بعض ، لم يعد في وسعه تجنب اعتبار نفسه حيواناً ، «ولكنه بدأ يرى نفسه حيواناً غريباً جداً، وفي حالات كثيرة لا مثيل له »(١). ولا يزال تحليل تفرد الانسان من الناحية البيولوجية غير تـــام ، ذلك ان له خواصاً فذة اعظمها وضوحاً هو قدرته على التفكير التصوري، او استخدامه الكلام الواضح ، والكلمات عبارة عن أدوات تصور الآراء عن خبرة ما . وهذا ما زوده بتقاليد وعيد تهيء للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية. يقول (هكسلي) : « ان هذه السيادة البيولوجية — في الوقت الحاضر — خاصية اخرى من خواص الانسان الفذة . وفي كل عصر جيولوجي نعرفه وجدت انواع اتسمت بالسيادة البيولوجية ، وكانت تتكاثر وتقضي على الانواع المنافسة ، أو تنقص من عددها ، وتمد نفوذها ، وتتشعب في سبل جديدة للحياة . وعادة نجد في أي عصر معين نوعاً واحداً مثل ذلك النوع ، كالثدييات المشيمية في العصر الجيولوجي الرابع ، الا انه يوجد احياناً اكثر من نوع واحد ... ومع ذلك فالاتفاق تام في العصر الحاضر على ان الانسان هو النوع الوحيد الذي يستحق هذا اللقب . ومنذ العصر الجليدي الاول انتقص الانقراض العام من عدد مجموعة الثدييات المشيمية التي كانت لها السيادة من قبل . ولم يتكاثر الانسان وحسب ، بل وتطور ، ومــد نفوذه ، وزاد من تنوع سبله في الحياة » ويخلص العلاّمة الى القول : « وهكذا يصنع علم الحياة الانسان في مركز مماثل لما انعم به عليه كسيد المخلوقات ، كما تقول الاديان »(٢). وان خاصيته الجوهرية باعتباره كائناً

(١) المصدر السابق ص ٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٦ .

حياً مسيطراً هي التفكير المعنوي ، وهو يتعذر إلا في حيوان متعدد الخلايا ـ حيوان ثنائي التماثل ، له رأس وجهاز دموي ، حيوان فقري ارضي بين الفقريات ، وثديي بين الفقريات الارضية . وهو انما ينشأ في فرع من الثدييات يعيش في جماعات وينجب فرداً واحداً في الولادة الواحدة بدلاً من عدة افراد . وقد اصبح منذ عهد قريب ارضياً بعد حياة طويلة على الشجر . وهذا التفكير المعنوي الذي نشأ على هذه الارض مرتبط بنوع خاص من الجسم والمخ في الثدييات العليا : وله خاصية ينفرد بهـا بين الثدييات العليا ، وهي استعداده في اي وقت لاداء العملية الجنسية ، وليس ذلك في وسع الحيوانات . ويبدو أن هناك بعض الادلة على وجود « فصل » للعملية الجنسية بين الشعوب البدائية كالاسكيمو ، « ولكن ، حتى هناك ، فانها ليست إلا مخلفات العصور الاولى »(١) .

لم يجبل الانسان ، كما يقول (ده لا متري) بمادة أثمن من تلك التي جبل بها غيره ، ولم تستعمل الطبيعة الا عجينة واحدة غيرت فيها الخميرة فقط . واذا كان الانسان يمثل نهاية عملية التطور العضوي التي بدأت على كوكبنا من اكثر من ألف مليون سنة ، فان ظهور العقل الانساني في خلال ذلك ـ وهو آخر مرحلة في التقـدم التطوري في نظر (جوليان هكسلي) قد أتى بنظم جديدة ومستويات جديدة وأصبح في وسع الانسان ، بواسطة عقله الواعي وما انتجه من علوم ـ ان يأتي بطرق للتغيير التقدمي الناجح أقل بطأ واقل اتلافاً واقل عنفاً من طرق الانتخاب الطبيعي التي لا تستطيع

---

(١) المصدر السابق ص ١٩ .

الكائنات الدنيا ان تتبع غيرها . واصبح قادراً ، بواسطة عزمه الواعي والقيم التي وضعها ، على إحلال معايير جديدة للتغيير . وارقى من معايير مجرد البقاء والتكيف للظروف المباشرة التي تلازم التطور فيما قبل الانسان .

وبعبارة اخرى ، يمكن القول ان التقدم الذي حققه الانسان كان من نتائج التطور الثانوية النادرة المتقطعة . ولكن في وسع الانسان ان يكون هو الصورة الاساسية لتطوره المقبل ، ولتوجيه طريقه بالنسبة لهدف مقصود . غير ان عليه « ألا يخاف تفرده ، فقد يكون في هذا العالم المترامي الاطراف كائنات اخرى انعم عليها بالعقل والعزم والطموح ، الا اننا لا نعرف عنها شيئاً . وكل ما نعلم هو ان للانسان عقلاً وشخصية لا نظير لهما ، وانهما ارقى ما أنتجه التطور حتى الآن »(١) .

اراد علماء الحياة تحديد مركز الانسان علمياً، فدرسوا منزلته في العالم الحيواني ، ثم في عالم الاحياء من حيوانات ونباتات، ثم في اطار التطور الكوني، وارادوا من دراستهم العلمية اياها ان تكون نبراساً لتطوير البشر وتحويل الجنس البشري أي تحسينه بمعرفة قوانين الوراثة الحيوية، والوراثة في دنيا الانسان ؛ حتى ان علم الحياة ، في نظر امثال (جان روستان) « يفتح المجال لتطلعات تتضاءل حيالها خيالات (ولز) . وتؤكد دراسة الصبغيات في العالم الحيواني او النباتي ان بعض الانواع تختلف عن الانواع المجاورة لها بوجود مورثات او صبغيات اضافية.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨ .

وليس من المحال ان تتمكن البيولوجيا في المستقبل من ان تحسن نوعنا باضافة كمية قليلة من المادة الصبغية . ويجوز لنا ان نتساءل ، مهما تكن هذه الفكرة جارحة لكبريائنا ، عما اذا كان في صالحنا ان نضيف الى تركتنا الارثية بعض المورثات الآتية من بعض الانواع الحيوانية ؟ ان هذه الاضافة لا يمكن اجراؤها بالتهجين عن طريق التزاوج ، بل تتطلب الادخال المباشر للمورثات الغريبة في بيضة مزروعة »(١) .

وفي اطار هذا البحث البيولوجي عن تطور الانسان تكثر الاتجاهات وتتشعب ويربط بعضهـا مصير الفكر بحـادثة التطور الكوني تارة كما فعل (لوكونت دي نوي) ، وهو يوسع مفهوم التطور ويجعله نامياً يشمل تطور الارض وتطور الحيـاة فتطور الفكر ذاته ، وينزلق بذلك من « العلم » الى « فلسفة العلم » بل الى الفلسفة ، ومثلما فعل باحثون كثيرون معاصرون في مصير الانسان انطلاقاً من تطور ارقى اعضائه المميزة ، وهو الدماغ ، او كما ربط (بيير تيار ده شاردان) ظاهـرة الانسان ببحوثه العميقة في التطور الكوني منطلقاً من كفاءته الراسخة في الجيولوجيا والحفريات .

يرى (لوكونت دي نوي) ان في وسعه ادخال تعديل طفيف على مفهوم الغائية التطورية ويجعلها بذلك شاملة عدداً اكبر من الفاعليات الانسانية المميزة فضلاً عن شمولها حوادث التطور العضوي والكوني . وعنده ان هذا الافتراض واقع لا مندوحة عنه ما دام التطور يعتمد دوماً على فكرة

---

(١) جان روستان : الانسان — ترجمة عدنان التكريتي — دمشق ١٩٧٠ ص ١٣٩ .

ما يضاد الصدفة وان من المحال فهم ظهور الكائنات العضوية وظهور الانسان على نحو متعاقب وصاعد بدون افتراض تطور ما في هذه الصيرورة. وقد اعلن انه اعتنق هذا المفهوم الغائي بعد مراقبة الحوادث وامتحان النتائج خلال ما لا يقل عن سنتين من الدأب والجهد الانتقادي من قبل ان يسيغ لنفسه اذاعته على الناس(١). لقد تطور الفكر بتحرره من العبودية الفيزيائية ـ الكيميائية واتخذ التقاليد اداة يتكىء عليها في درب تطوره وتقدمه، ووصل من جراء ذلك الى مفاهيم الخير والشر، والجمال والمدنية وما تنطوي عليه من نتاج العلم والفن والدين. ولئن كان ازدياد الانتروبية يبين لنا احصائياً ان التطور يميل الى الانحطاط في المجال الطاقي كلما مضت الكائنات العضوية في درب تطورها وازدادت تعقداً يجعل من الاكثر صعوبة الاحاطة بها بالقوانين الاحصائية؛ وعلى هذا يتجه الكون في مسيرته شطر اختلاط جامد وعدم لولا ان يلقى ما يعوضه في تقدم مواكب الكون لا يقبل الوزن المادي، ألا وهو كون الفكر الذي ينبعث تكامله من رماد الكائنات اللاعضوية.

وحين يتساءل (لوكونت دي نوي) عما سيجري في أمد أقرب، وهل ان تطور الفكر سيستمر حقاً في المجال الاخلاقي والروحي او في المجال الفكري. وهل سيتم هذا التطور باتجاه العمق ام باتجاه السطح يجيب بأن الذكاء، من حيث اشتقاق الكلمة الدالة عليه: انما يجعل من الانسان الذكي تلميذاً يطلب المزيد من المعرفة باطراد. ولذا فانه يجد ذاته حيال

---

(١) لوكونت دي نوي: مستقبل الفكر - باريز ١٩٤١ ص ٢٩١.

كون في حال ادنى من حاله دوماً . ولو فرضنا ان الانسان سيعرف كل شيء ، فماذا سيفعل بعلمه؟ انه لن يعنى بالامور الفكرية التي تكون قد فقدت سرها في نظره ، ولا بالاشياء المادية الخارجية التي تؤلف موضوع العلم . بل انه قد يعود الى غرائزه البهيمية ويقع من جديد تحت نير غدده الصماء التي ستظل ترفده – على الاقل ، كما يرجو ، – بالمتع الحسية المبتذلة . وستغدو الحياة الاجتماعية محالاً : ذلك انه ما من شيء أقبح من حياة عالم كبير أو عبقري فذ لا ينطوي وجوده على غير الذكاء وحده . ان الاثرة وسائر احط الاهواء ستنمو بدون ان يردعها اي رادع . اجل ان جفاف القلب وقسوته ، وهذا ما يوفر عناء الالم المعنوي ، سيزدهران كما يقتضي ذلك المنطق ، وهو المنطق الوحيد الذي سيحظى بالاجلال . ان الانسان سيمل في عالم خال من السر وقد سلخ عنه حتى الشعور بالجمال : ذلك ان الشعور بالجمال احساس مستقل كل الاستقلال عن الذكاء ، حتى ولو تناول موضوع الشعور الجميل جمال محاكمة رياضية . وفي وسعنا ان نتصور بأن النوع البشري سيضمحل بسرعة آنذاك الا اذا انجب الرجوع الى البهيمية زيادة كبرى في النسل ؛ وهو أمر قليل الاحتمال بالنظر للتقدم المادي الساحق ولفقدان القواعد الاخلاقية او الدينية . اضف الى ذلك اننا لن نستطيع صنع نوع انساني يتصف افراده كلهم بقدر واحد من الذكاء ، كما اننا لن نصنع امة يستطيع جميع أبنائها تحقيق جميع الارقام القياسية في ضروب الرياضة كلهـا . بل سيوجد دوماً افراد اكثر من سواهم تميزاً بالذكاء ، وهؤلاء المتميزون سيقودهم ذكاؤهم بعد تحرره من أسر اي لجام اخلاقي الى استعباد الجماهير وتسخيرها لمآربهم أو انهم سيحققون نوعاً

من الحضارة يشبه ما تخيله (الدوس هكسلي) ، وتلك هي طامة الذكاء الكبرى . ولكن (دي نوي) يخلص من ذلك الى القول : « لا بد لنا من الاعتراف ، اخيراً، بأن الانسان اذا ما مضى على درب تطوره شطر الذكاء المحض، شطر نموه اللامحدود عند بعض الناس (النمو عمقاً) وشطر الى الاقصى الممكن فيزيولوجياً لدى سائر البشر (النمو سطحياً) ، فان نظريتنا في هذا الكتاب ستنهار برمتها »(١) .

لقد حسب (دي نوي) ان نظرته الى « مستقبل الفكر » رحلة في البعد الرابع كما يقول . واشار الى تطور الذكاء الى الحد الاقصى الممكن فيزيولوجياً بدون ان يتمنى بلوغ البشر ذلك الحد القصي خشية انهيـــار نظريته في تطور الانسان « علمياً » اولاً ، و « علمياً حضارياً » ثانياً . وقد عني العلماء المعاصرون بهذا الموضوع العلمي « الشائك والمتشعب » وتساءلوا ، بوجه خاص ، عن مستقبل المخ ومصير الانسان ، وقصدوا الاشارة الى ان البحث في هذا المجال يميز المخ الطبيعي او البيولوجي الذي يخضع للتطور عن المخ الانساني الذي يريد العلماء اخضاعه لسيطرتهم في المستقبل القريب . « صحيح ان المخ البشري الحـــالي ، او امخاخ اجدادنا الذين عاشوا قبلنا في الماضي ، هي التي كانت تتحكم فيهم ، ولا زالت تتحكم فينا ، وتوجهنا وجهات شتى ، لكن البحوث المثيرة ، والتجارب العميقة التي يجريها العلماء الآن على امخاخ الانسان والحيوان سوف تحدث انقلاباً خطيراً في حياتنا العلمية والنفسية والاجتماعية والعاطفية وكأنما المخ

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٤ .

الذي جاء من قديم الزمان ليتحكم فينا وفي المخلوقات الاخرى الاقل منا وعياً وادراكاً قد بدأنا نتحكم فيه ، وتوجهه بطرق مثيرة وغريبة على عقولنا وزماننا ، فـــاذا اراد انسان المستقبل القريب لذة او متعـــة او سروراً او استرخاء وهدوءاً أو اية انفعالات اخرى، يهواها أو لا يهواها ، فما عليه إلاّ ان يدير مفتاحاً صغيراً ، او ان يضغط على « زرار » دقيق ، فاذا به يحصل على ما يريد » .

ان امخاخنا الحالية ، وهي موئل تميزنا وتفردنا في الارض ، ليست غاية ما نتمنى ، او ما يتمناه لنا العلمـــاء التطوريون ، بل الفلاسفة المؤمنون بأن التطور صيغة من صيغ التغير او الصيرورة ، وانه بالاصل تغير تدريجي وبطيء يحدث على مر الايام والسنين ويتّم احياناً على نحو لا يدرك مباشرة . وتقابل الفلسفات الجدلية هذه الصيغة بصيغة او طراز التغير الثوري ، وترى ان الثورة طراز تغير مباغت ضروري فوري يستعيض بالتغير الكيفي عن التغير الكمي . ذلك ان التغير الكيفي (ثورة) هو ذاته حصيلة تغيرات كمية متراكمة (تطور) . ومهما يمكن من فوارق بين التطور والثورة، فان نظرية الصيرورة تصح في المجتمع كما تصح في مجال للطبيعة لدى انصار المذاهب الملمع اليها جميعاً . ولكن واقع التطور وحتميـــة الثورة يرجعان الى فعل الطبيعة بطبعها، او المجتمع بطبعه . وكلاهمـــا يختلف عما يعنيه الباحثون المعاصرون، احياناً ، حينما ينشدون صنـــع طبيعة انسانية بحسب مشيئتهم ، وعلى صورتهم ، او تبع ارادتهم واغراضهم . « وهذا ما نعنيه بمستقبل المخ الذي ستعيش فيه الاجيال القادمة ، وعليه

سوف تتسلط اجهزة ارسال خاصة تنبعث منها نبضات كهربية . او موجات كهرومغناطيسية لتؤثر في مراكز المخ المختلفة ، وتثيرها أو تستثيرها لتعطي الانفعال المطلوب . ولقــد نجح الانسان في ذلك ، ولكن في حدود . والمستقبل كفيل بازالة هذه الحدود لتتطور البحوث الى ما هو اعمــق واكفأ ... »(١) .

لقد دخل عالم فيزيولوجيا المخ (جوزيه ديلجادو) حلقة مصارعة الثيران، ولم يكن يحمل بين يديه إلا جهازاً صغيراً ، ثم دخل الى الحلقة نفسها ثور هائج تنطق كل عضلة فيه بالضراوة والافتراس ، ولم يجد الثور امامه إلاّ العالم، فانطلق اليه — بعد اثارته بالطرق التقليدية — كسهم مارق، ووضع الشهود ايديهم على قلوبهم خشية ان يحدث ما لا تحمد عقباه، إلا ان المفاجأة غير المتوقعة قد حدثت عندما توقف الثور الهائج فجأة على مسافة اقدام قليلة من العالم ، وكأنما هناك قوة خفية قد احالت هياج الثور الى هدوء ؛ وافتراسه الى مسالمة وتعجب الناس وهللوا ، وبدهشة تساءلوا : ترى ... ماذا حدث للثور ؟ لقد اطلق العالم في الوقت المناسب من جهازه الصغير — الذي كان يمسكه بين يديه — موجات كهرومغناطيسية تجري بسرعة الضوء ، فاستقبلتها مراكز خاصة في مخ الثور واستجابت لها بسرعة هائلة ؛ وكأنما هذه الموجات الغريبة قد وجهت هذه المراكز العصبية من حالتها الافتراسية التي اثارت الثور ، الى حالة من الهدوء والاستسلام ... وفي

---

(١) عبد المحسن صالح : مستقبل المخ .. ومصير الانسان — مجلة عالم الفكر — المجلد ٤ العدد ١ نيسان — حزيران ١٩٧٣ ص ٧٦ وما بعد .

مستشفى بوسطن بالولايات المتحدة دخل احد المرضى المصابين بمرض عصبي خطير وكانت تنتابه حالات عصبية تجعله كالثور الهائج فيتعدى على كل من يقترب منـــه بالضرب واللكمات ، وكأنما قد تخلى عن صفاته الانسانية لتحل محلها حالات من الافتراس والوحشية ... وشخص الاطباء حالته على انها واحدة من حالات الصرع الخطيرة التي لم تنفع فيها العقاقير التقليدية . وهنا قـــام جراح الاعصاب : (فيرنون مارك) مع (فرانك ارفين) اخصائي علم النفس في المستشفى بتهدئة المريض بنفس الطريقة التي استخدمها (ديلجادو) مع الثور الهائج دون ما حاجة الى حلقة مصارعة ، هذه المـــرة !

الدماغ أو المخ هو الشيء الوحيد الذي اولته الحياة مزيداً من السمو والصقل والتحوير والتطوير ، واساسه هو ذلك الجهاز العصبي الذي ظهر في قنديل بحراً ودودة وسمكة وضفدعة وفأر وقط وكلب وقرد وشمبانزي ، وقد يكون النوع البشري الحالي من الانواع المنقرضة ، بعد ان يظهر على انقاضنا انسان جديد في المستقبل البعيد ، وطبيعي انه سيجدنا اقل منه مرتبة في الوعي والادراك والاستنباط ، وقد يقضي علينا أو يتركنا وشأننا حتى ننقرض تلقائياً وننزوي كما ينزوي الآن مثلاً اهالي استراليا البدائيون وقد يصقل التطور ، بعد مئات الالوف او ملايين السنين ، العقل الحالي على نحو يجعله يستوعب اكواناً بأبعاد اربعة ، وحياة بأبعاد اربعة ، وعندما يصل الى هذه المرحلة ، ليدرك بها اكثر مما ندرك ، ويرى ما لا نرى ، عندئذ سيجد امامه حدوداً جديدة ، وعوائق غريبة لتحجب عنه المرحلة

التي تليها ، نعني مرحلة الكون الذي تحكمه أبعاد خمسة ، حتى اذا وصل الى استيعاب معنى كون بأبعاد خمسة ، وسيكون اكثر غرابة واعظم تجلياً من كون الابعاد الأربعة ، فلا بد له ايضاً من حدود ، فلا يرى ماوراء هذه الحدود ، لانه سيصطدم بحجب جديدة تتمثل في كون آخر تحكمه ابعاد ستة ... وسبعة ... وثمانية .. وهكذا تستمر عمليات التطور في الامخاخ ، وكلما ظهر مخلوق أرقى ، انقرض ما قبله ليفسح له الطريق ...

●

وقد عني الاب (تيار دي شاردان) ، فيما عني به ، بـ« ظاهرة الانسان » ومغزى وجوده وقيمته ورأى ان الظاهرات الكونية كلها تبدو معزولة لا تتحرك في الزمان ، ولكن العكس هو الصحيح ، لانها ليست معزولة ابداً ، بل هي عمليات تطور وتقدم ، كاملة او جزئية . ولذا فان فروع العلم كلها تتوحد وتبرهن على ان الكون بأسره يؤلف عملية تقدم واحدة عظمى ، عملية صيرورة تبغي تحقيق مستويات جديدة لوجود وتنظيم تسمى تكويناً او تطوراً .

هناك نطاق حيوي ، او كرة حيوية ، يقابله لدى الاب (تيـار) نطاق عقلي او كرة الفكر (١) ، وهذه الكرة اداة التحويل العامل على رقي الانسان ، وتحقيقه افضل امكاناته الكامنة ، حتى تأتي ، بطريق الانسنة (٢) ، المرحلة القادمة التي يستدل بها على تسامي الانسان على ذاته ويصبح جديراً بتسمية جديدة في مرحلة الانسنة القصوى ..

---

(١) Noosphère
(٢) Hominisation

يصرح (تيار دي شاردان) ، وهو الاب والعالم ، ان آراءه «شخصية واختبارية الى حد بعيد ، ولكنها تعطي فكرة ، بواسطة مثال واحد ، عن الطريقة التي تقدم بها مشكلة الانسانية ذاتها في العلم اليوم ... فالإنسان ، عندما يدرسه علماء الانسان والفقهاء ، بذاته وبشكل ضيق ، هو مخلوق صغير وضئيل . وفرديته التي نصرح بها كثيراً تخفي عن عيوننا الكل الذي يعود اليه » ولذا يخطىء العلماء حين لا يرون في الانسان موضوعاً ذا قيمة علمية إلا من خلال جسده . والواقع ان الانسان ليس سوى محور للتطور في الكون ، وفرع قائد له . وهذا شيء اظرف بكثير (١) .

وقد بحث الاب (تيار) ، بوصفه عالماً بالجيولوجيا وبالحفريات ، مادة الكون اولاً ، ثم ما يسميه باطن الوجود وقوانين النمو الكيفية ، وانتقل الى دراسة الارض في مراحلها الاولى والى بزوغ الحياة وتوسعها وطرقها من قبل ان يفصح عن آرائه في ولادة الفكر وانتشار نطاق العقل وانسنة الفرد والانواع . وعنده ان التفكير هو الظاهرة المركزية التي تجعل الانسان يتخذ ذاته كموضوع للمعرفة العلمية ، باعتبار انه لا يعرف الانسان فقط ، بل انه يعرف نفسه ويعرف بأنه يعرف . وبهذه الفردية في اعماق ذاته «تشكل العنصر الحي الذي انتشر فيما مضى وانقسم الى دائرة منبثة للادراكات والنشاطات ، لأول مرة ، كمركز في شكل نقطة تحيك الانطباعات والتجارب كلها ذاتها معاً ، وتنصهر في وحدة تعي تنظيمها الخاص »(٢) .

---

(١) تيار دي شاردان : ظاهرة الانسان – مع مقدمة بقلم جوليان هكسلي – ترجمة ندرة اليازجي . دمشق ١٩٧١ ص ٢٩ .
(٢) المصدر السابق ص ١٥٧ .

وينتج عن قوة انطواء الانسان على ذاته انه يصبح قادراً على ان يتطور الى نطاق جديد . وعلى هذا يولد عالم جديد : وليس التجريد والمنطق والاختيار المعقول والاختراعات والرياضيات والفن وحساب الزمـــان والمكان والاشواق واحلام الحب سوى ضروب من نشاط الحياة الداخلية ، بل هي ليست اكثر من فوران المركز الحديث عندما يتفجر على ذاته وفي اعماقها . فبالفكر : بل بالوعي . يتقدم الانسان على الحيوانات ولو كان في وسع الحيوانات ان تعرف ، وان تعرف بأنها تعرف لكثرت اختراعاتها ولانشأت بنيات داخلية ، ولذا فان ثمة هوة تفصل الانسان عنها بصورة قاطعة ، وهي هوه او عتبة لا يمكن للحيوانات اجتيازها ، وهذا التباين ليس فارق درجة . بل هو تبدل في الجوهر ، والحياة هي صعود الوعي ، ولذا فانها لم تستطع ان تستمر في التقدم على خط سوي بلا نهاية دون ان تحوّل ذاتها في العمق . وقد وجب على الحياة ، شأن ما يجب على كل طاقة نامية في العالم ، ان تصبح مختلفة حتى تظل ذاتها ؛ « وبالحصول على قدرة التفكير ينبثق شكل تحول حاسم وخاص تمت فيه هذه الولادة الجديدة او الابداع الفوقي من أجلها »(١) .

بهذه الانسنة يصبح الانسان شخصاً حين تدأب الذات على وجودها بأن تصبح ذاتها اكثر فأكثر ، ويؤدي التمايز بالوعي الى عدد من الوحدات النفسية ــ الاجتماعية المتضعة بثقافات متداخلة التفكير : هي الجماعات الانسانية التي لا تنفصل انفصالاً شديداً بعضها عن بعض ؛ كما يحدث في

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٨ .

الانواع البيولوجية . بل ان مرور الزمان يؤدي الى وحدة الانواع الانسانية كلها في جماعة متداخلة التفكير ، تعتمد على هيكل تفكير فريد ينمي ذاته بطريق مزيد من التعقيد ناجم عن صهر هذه الزيادة في الاعداد البشرية المتحدة مع تحسن العلاقات الانسانية . » وعلى هـذا الاساس ستحقق الانسانية تضامناً اكثر ، وتعقيداً اكثر . ونشاطاً عقلياً اكثر تكاملاً ، لتسير بالنوع صعوداً نحو طريق التقدم . ونحو مستويات اعلى للانسنة »(١) .

يقول (تيار دي شاردان) : « ان نتاج العالم ، وبوابات المستقبل ، والدخول الى الانسانية العليا . لا تنفتح لقلة من المختارين ، ولا لشعب مختار ، على حساب اقصاء الشعوب الاخرى . انها تنفتح لصالح الكل معاً ، وفي اتجاه يقدر ان يتحد فيها الكل معاً ، ويجد اكتمال التجدد الروحي للارض ، تجدد يجب ان نأخذ درجة حقيقته المادية بعين الاعتبار ، ويجب ان نوضح رسمه اكثر »(٢) . غير ان الاب (تيار) يعترف بصعوبة هذا التوضيح وذاك الاعتبار ، لاتصالهما بحادثة خيالية ولكنها متممة للبحث ، وهي حادثة تقترب بمرور كل يوم : اي نهاية الحياة كلها على الارض ، وموت الكواكب ، والحقبة النهائية لظاهرة الانسان . وهو يعترف بان احداً لا يجرؤ على تصور ماذا سيكون عليه نطاق العقل او كرة الفكر بزيه الاخير . « ان نهاية العالم تتحدى الخيال » . ولكنه يعرب عن رأيه « ببرودة ومنطق ، وبشكل الحامي (رؤيا) ، ليس من اجل تأكيد اي شيء بقدر ما هو من اجل ان يقدم طعاماً للفكر »(٣) .

---

(١) المصدر السابق – المقدمة ص ٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٦٥ .

ويحكي العالم (تيار) تكهنات يجب تنحيتها عندما نتصور ، علمياً ، نهاية العالم فيقول : « عندما تذكر نهاية العالم فان الفكرة التي تقفز الى عقولنا هي فكرة الفاجعة . وبشكل عام نفكر بانقلاب كوكبي . فهناك نجوم عديدة تندفع بعنف وتمر بسرعة حولنا ، وهنـــاك عوالم متفجرة على الافق . وهكذا ، وفق قوانين الصدفة العنيدة ، فان دورنا سيأتي عاجلاً او آجلاً ، وسوف نُضرب ونُقتل ، او على الاقل سنواجه موتاً بطيئاً في سجننا . ومنذ ان اكتشفت الفيزياء ان الطاقة كلها تنسكب ، نشعر أن العالَم يحصل على ظل يزداد قشعريرة كل يوم . فقد عُوض عن ذلك الابتراد الذي حكمنا به جزئياً اكتشاف آخر هو المادة المشعة التي تدخلت بكل غبطة لتعوض عن الابتراد المحدق ولتؤخره . ويسمح مركز علماء الفلك في الوقت الحاضر ان يؤكدوا ان امامنا عدة ملايين من السنين اذا سار كل شيء على ما يرام . وهكذا نقدر ان نتنفّس الصعداء مرة اخرى . ومع ذلك فان الظل ينمو ويصبح اطول ، مع ان الاتفاقية قد أُجلت »(١) .

ترى هل ستكون الانسانية هناك لتشهد هبوط المساء ؟ يرى (تيار) ان في وسعه القول ، بدون تخطي حدود الاحتمال العلمي ، ان امام الحياة فترات طويلة من الزمان الجيولوجي تتطور فيها . ولا تزال الحياة ، في شكلها المفكر ، تظهر كل علامة لطاقة في توسع كامل . فمن جهة تعتبر الانسانية فتية حتى انه يمكن ان نسميها حديثة الولادة اذا قورنت بالطبقات الحيوانية التي سبقتها والتي تكون ديمومتها الوسطية ضمن حدود ثمانين

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٥ .

مليون سنة على الاقل . ومن جهة ثانية ، لكي نحكم على تطورات الفكر السريعة في الفترة القصيرة لعدة عشرات من القرون ، يحمل هذا الشباب ضمنه علامات ووعود دورة بيولوجية جديدة كلياً . وهكذا ، بكل احتمال ، تمتد فترة زمنية طويلة ، بين ارضنا الحديثة ، وبين الارض النهائية : لا تتصف بالبطء ، بل بالتسارع وبالازدهار المحدد لقوى التطور على طول خط الفرع الانساني .... ولعل الدماغ قد وصل الى حدوده العضوية في طاقاته ونفاذاته الفردية . لكن الحركة لا تتوقف هناك . فمن الشرق الى الغرب ، ينشغل التطور في مكان آخر في حقل معقد اكثر واغنى ، وهو يبني ، مع كل العقول وهي متحدة معاً ، العقل . وقد بدأت المسألة المحتمة لاخذ الانسانية ككل ، الى ما وراء الامم والاجناس اجل، ان سوقاً تجارية تصل الى درجة الاشباع ويأتي يوم نستنفد فيه مناجمنا وآبار الزيت على الرغم من وجود بديل لها . ولكن الرغبة في المعرفة شيء آخر . ان شيئاً ما لن يشبع ، على ما يبدو ، رغبتنا للمعرفة او يستنزف قدرتنا على الاختراع . وستكون الحقبة التي نسير نحوها حقبة علم انساني . وسيدرك الانسان اخيراً ، وهو الفكر العارف ، ان الانسان ، وهو موضوع المعرفة ، هو مفتاح علم الطبيعة كله . وهنا نجد الاب (تيار دي شاردان) يرد على (كاريل) بقوله : « قد اشار (كاريل) الى الانسان بأنه « المجهول » . لكن الانسان ، يجب ان نضيف قائلين ، هو حل لكل شيء يقدر ان يعرفه . وقد كان العلم ، حتى الآن ، إما عن خوف او بنتيجة تفكير مسبق ، كان متمهلاً لا يجرؤ على النظر الى الانسان مجابهة ولكنه احاط بالموضوع الانساني على الدوام دون ان يجسر على امساكه . فمن

الناحية المادية ، تبدو اجسامنا قليلة الاهمية ، وعرضية ، وانتقالية ، وقابلة للانكسار ، فلماذا نقلق بشأنها ؟ ومن الناحية النفسية . تكون ارواحنا معقدة وحازمة لدرجة لا تصدق . فكيف نجعلها تناسب عالم القوانين والقواعد ؟ وكلما جربنا وثابرنا على اجتناب الانسان في نظرياتنا ضاقت الدوائر التي نضعها حوله ، ويكون قد امسك بنا في دوّاره . لن تكون الفيزياء ، في نهاية تحليلها ، متأكدة من ان كل ما تُرك بين يديها طاقة صافية او ، على العكس ، فكراً . وفي نهاية بنيات البيولوجيا ذاتها تجد نفسها ، لو انها تأخذ اكتشافاتها لنهايتها المطلقة ، مضطرة للاعتراف بأن تجمع الكائنات المفكرة هو الشكل النهائي للتطور . وعلى هذا النحو نجد الانسان في الاسفل ، ونجده في الاعلى ، ونجده في الوسط ايضاً . الانسان الذي يحيا ويجاهد بيأس ، فينا ، ومن حولنا »(١) .

ان تحسين النسل وهو يطبق على الافراد يؤدي الى تحسين النسل وهو يطبق على المجتمع . فنحن ضد سراب الغريزة التي تسمى عصمة الطبيعة . وان المادة الفكرية تتطلب معاملة فكرية . «واذا كان هناك مستقبل للانسانية ، فاننا نتخيله فقط في نطاق مصالحة متناسقة لما هو حر مع ما يوضع على مستوى واحد ويصبح كلاً . وتكون النقاط المضمونة : توزيع موارد الكرة ؛ ضبط الهجرة نحو مناطق غير آهلة بالسكان ؛ الاستفادة القصوى من القوى التي حررتها الآلية ؛ فيزيولوجيا الامم والاجناس ؛ الاقتصاد الجغرافي ، السياسة الجغرافية . والديموغرافيا الجغرافية ؛ تنظيم البحث الذي

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٢ .

يتطور الى تنظيم معقول للارض . ان احببنا هذا اوكرهناه ، فان العلائم كلها وحاجاتنا كلها تلتقي في الاتجاه ذاته . اننا نحتاج الى الابداع ونُقاد اليه طواعية ، الى ابداع علم طاقات انسانية بواسطته ، بل الى ما وراء كل فيزياء وكل بيولوجيا وعلم نفس »(١) .

●

ومثلما انفق الاب (تيار دي شاردان) حياته باحثاً منقّباً ، بذل الدكتور (بيير فندريس) جهوداً موصولة من التفكير والتجريب باحثاً منقباً عن القوانين العامة لمسيرة الانسان الفيزيولوجية والنفسية معاً ، واودع ثمار جهوده في كتاب جعل عنوانه « نحو نظرية عن الانسان » . وذهب الى ان من الواجب ان تحتل مثل هذه النظرية منزلة الصدارة في تاريخ الفكر الاوربي . وعنده ان نوعاً من صورة عن النظرية العلمية بوجه عام قد ذاع منذ (ارخميدس) حتّى (انشتين) وهذه الصورة تم عن انموذج النظرية الفيزيائية التي لم تكتف بالذيوع والاجلال خلال قرون عدة بل كانت الوحيدة التي بلغت درجة النضج : انها انموذج النظرية الميكانيكية على اختلاف اشكالها : الميكانيك العقلي ، الميكانيك السماوي ، مذهب الكهرطيسية ، نظرية حقول القوة . وغنّي عن البيان ان الصيغة الرياضية تمثل السمة الاساسية في النظرية الفيزيائية العلمية ، وقد ظل اكابر العلماء في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر يضعون نظريات رياضية ويستخدمونها لاضفاء الصيغة الرياضية على علم الحركة .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٤ .

بيد أن هنالك سمة اخرى تسم هذا التصور العلمي ، ألا وهو سمة الحتمية أو التقيد . ويذكر (فندريس) المثل البسيط الآتي . يقول : في وسعنا أن نعرف مسبقاً ، وقبل قرون عدة ، الوضع الدقيق الذي ستكون عليه سيارة من سيارات المنظومة الشمسية في لحظة معينة . وسيكون لهذه السيارة وضع ، ووضع وحيد يمكننا ، من جراء طبيعة هذه الاشياء ذاتها ، ان نتنبأ به منذ الآن . وقد بلغ من نجاح هذا التصور عن العلم مبلغاً جعله انموذج كل معرفة نظرية ، واصبح الايمان بالتقيد او الحتمية ايماناً بأمر كلي شامل .

وهذا التصور الرائع للعلم كان مشوباً ، مع الاسف . بعيب رئيسي . ذلك انه لم يكن يطابق الانسان ذاته . وقد كان من غير الممكن ان يشمل على علم الانسان ، وكان الانسان عاجزاً عن ان يدخل هو نفسه في اطار علمه ذاته . ونجم عن ذلك ضيق فكري مطّرد اذ لم يكن في وسع الانسان ان يعترف بأنه حر وقد ساقته مراعاة المبادىء الطرائقية الى ان ينكر حريته الخاصة التي لم تكن لتجد مجالاً لها في اطار الحتمية الشاملة ، والتقيد الكلي .

ويبين (فندريس) ان هذه المشكلة الخطيرة التي ادخلت الاضطراب في صلب الحضارة الاوروبية لم تفز بحل آخر سوى حل نفي هذه النظريات الفيزيائية المنتصرة ذاتها . ويرى المؤلف ان الحل الحقيقي لم يصبح ممكناً الا بتصعيد معرفة الانسان نفسه الى رتبة النظرية ، أي باقامة نظرية عن الانسان ، وهي بوجه الدقة ، ما يعرضه كتابه بالذات .

والحق ان الطبيب (فندريس) يريد ان يقوم صرح نظريته عن الانسان

فوق دعامتين : الاولى فكرة الاستقلال الذاتي ، والثانية مفهوم العلاقة الاتفاقية(١). وقد انطلق من دراسة الاستقلال الذاتي الفيزيولوجي ووجد أن من المتعذر فهم الانسان على اساس التقيد والحتمية ، بل لا بد من اعتناق مفهوم العلاقة الاتفاقية او الاحتمالية . ان في وسعنا ان نتنبأ ، قبل قرون عدة ، اين سيوجد مثلاً كوكب عطارد ضمن المنظومة الشمسية. ولكننا نعجز عن معرفة ايان سيكون بعد عشر دقائق سائق سيارة عامة داخل مدينة مثل مدينة (باريز). ذلك ان بين الحالتين فرقاً اساسياً من حيث الطبيعة . السائق ذو استقلال ذاتي بالنسبة لمنظومة انتمائه ، ولكن السيارة الكونية ليس لها مثل ذلك الاستقلال .

ومن هنا يرى (فندريس) ان للانسان ، من الناحية الفكرية ، استقلالاً ذاتياً ، ويسمي البراهين التي يستند اليها براهين علمية ، أي تجريبية ونظرية . وينتج عن ذلك تحرير الانسان من التقيد الحتمي الشامل فيجد نفسه متفقاً مع ذاته ، ويتسع عندئذٍ المجال لفهم عدد كبير من المشكلات والمسائل التي كان يتعذر النظر اليها باتجاه العمق ، ويصبح من الممكن جلاء نواحي شتى في سلوكه ، ويخلص (فندريس) الى ان ارجاع الانسان الى منزلته العلمية يوجب اعادة اعتباره الموضوع المتميز للمعرفة العلمية كلها ، ويكون ذلك عامل توازن اساسي في الحضارة الحديثة .

ويؤكد (فندريس) أن العلم ، كل علم ، يصبح نظرياً في نهاية المطاف ، وبذلك يبلغ سن الرشد ويحقق هدفه الماثل في رسم صورة فكرية

---
(١) Aléatoire

عن الطبيعة . ولا ينال هذا الهدف إلاّ عندما يحدد العلم منطوق مفاهيم ويقيم بينها علاقات ويطمح الى ان يكون مداها شاملاً كلياً . فعلى العلم اذن ان يرضخ لواجب تقديم صورة امينة لمعطيات التجربة ، ولا مندوحة له عن اصلاح امر هذه الصورة لتبقى امينة باطراد للمعطيات التجريبية . وربما استغرق نضج العلم عدداً من القرون من قبل ان يبلغ رشده وقد يبلغ حال الرشد والنضج بتغيرات مفاجئة . ومن الخطأ ان نظن ان العلوم تنمو نمواً متراكباً وربما يسرّ نمو بعضها ازدهار بعضها الآخر ، وقد يدخل على نموه الاضطراب .

اجل، ان الفيزياء هي اول العلوم التي حققت نضجها بتغيرها المفاجيء النظري . وقد بدأ ذلك في القرن السابع عشر عندما اضفيت الصيغة الرياضية على الميكانيك ، وما فتيء نمو الفيزياء يطرد حتى اضفيت هذه الصيغة الرياضية على الكهرطيسية . وقد اقترح العلماء الفيزيائيون ، بل فرضوا ، صورة ما عن النظرية العلمية . ولكن من الواجب الحذر عند احتذاء سائر العلوم حذو هذا الانموذج لان على كل علم ان يوجه بذاته مسيرة تطوره الخاص .

وبديهي ان التغير المفاجيء النظري في معرفة الانسان نفسه يمثل مغامرة فكرية عظمى لان عليها الا تكتفي بالنظر الى الانسان بوصفه كائناً حياً وحسب ، بل باعتباره ايضاً كائناً مفكراً . ومن هنا تنشأ مشكلة واسعة تزداد صعابها بازدياد وتنوع المسائل الناجمة عنها . وان حل تلك المشكلة يستلزم جهداً تركيبياً بينما لا يقدر على حل المسائل الخاصة المنبثقة عنها الا علماء وباحثون اخصائيون .

ان في وسع العلم الذي يبلغ مرحلته النظرية ان يقدم مفاهيمه الرئيسية في صياغة شديدة الايجاز والتكثيف . ومن الجائز في نظر (فندريس) صياغة الحوادث الفكرية التي تترك اعمق التأثير في التاريخ الانساني ضمن جمل مقتضبة تعرب عنها كلمات معدودات . ان الميكانيك المدرسية تنطلق صيغة ذات رموز قليلة كالتي تعبر عن علاقة القوة بالمقاومة وبنقطة او محـــور الارتكاز ومن الجائز استنباط نتائج خاصة غير محددة من معطيات هـــذه الصيغة الاساسية . وانما يبدو واجب العالم النظري في اقامـــة هذه الصيغ وتبريرها وتحقيقها تجريبياً واعادة النظر فيها بصورة دائبة .

وفي ضوء ما تقدم يعلن (فندريس) الصيغة النظرية التالية عن الانسان: « ان الانسان اذ يحظى باستقلاله الذاتي بالنسبة للوسط الخارجي يكتسب في الوقت ذاته امكان اقامة علاقات اتفاقية معه » . وهو يصرح بأن بحوثه طوال ما ينيف عن خمس وثلاثين عاماً قد أيدت ما ذهب اليه من فهـــم الانسان ، بلغة الاحتمالات ، لمعنى الاستقلال الذاتي (١) . فالعلاقة الاتفاقية تتصل بالحتمية وباللاحتمية ، وتفترق عنهما ، معاً . الحتمية علاقة تدل على ان حادثة واحدة هي التي تحدث ، وان حدوثها يكون على نحو واحد . واما اللاحتمية فانها تشير الى كثرة الاحوال التي يمكن وقوعها بآن واحد . اما العلاقة الاتفاقية فتدل على ان العلاقة بين منظومتين تتحقق في الزمان على هيأة نحو اتفاقي . اجل ينبغي ان تزول كلمة الصدفة من اللغة العلمية . ولكن العلاقة الاتفاقية لا تفهم في نظر (فندريس) الا بتمييز مرحلتين متعاقبتين :

---

(١) بيير فندريس : نحو نظرية عن الانسان – باريز ١٩٧٣ ص ١٨ .

الاولى مرحلة تسبق تحقق التجربة الاتفاقية ، انها مرحلة لاحتمية هي مرحلة كثرة الاحوال الممكنة بآن واحد ، الاحوال الجائزة . والثانية هي مرحلة تحقق العلاقة الاتفاقية حين يتحقق احد هــذه الاحوال الممكنة من دون سائرها ، وتظل بقية الاحوال بمجرد احتمال او جواز . واذ ذاك يظهر مفهوم هو مفهوم عدم توافق الاحوال الممكنة بعضها بالاضافة الى بعض .

ان التنبوء ممكن في نطــاق الحتمية . وهو متعذر في اللاحتمية . ومن هنا نجد ان المرحلة الاولى من العلاقة الاتفاقية مرحلة يتعذر التنبوء فيهـــا . ولكن ينجم عن ان الاحوال الممكنة غير متوافقة انها احوال لا تقبل القلب ، وذلك لان تحقق احدها يحجب الامكان عن تحقق سائرها . وعندما يتحقق هذا الحال الوحيد يصبح من المحال الرجوع الى الشروط اللاحتمية السابقة لتحققه . ويخلص (فندريس) من استخدام طرائق الاحصاء وحساب الاحتمالات الى القول بأن العلاقة بين منظومتين تكون علاقة حتمية عندما ترتبط هاتان المنظومتان احداهما بالاخرى . وتكون اتفاقية عندما تستقل احداهما عن الاخرى . ان العلاقات الحركية بين الارض والقمر مثلاً هي علاقات تقييد حتمي لان هذين الجسمين يرتبطان من حيث حقول جاذبيتهما . ولكن خلط اوراق اللعب ، ولكل ورقة منها استقلالها ، يؤلف مثلاً بسيطاً عن العلاقة الاتفاقية ، اذ تكون هي العلاقة بين كل ورقة وبين مـــا يجاورها من الاوراق عند خلط بعضها ببعض . وبقول آخر ، ان الجملة المنتظمة بحسب معيار قد تبقى في حال اللاانتظام بالنسبة لجملة اخرى عندما تستقل المعايير بعضها عن بعض(١) .

(١) المصدر السابق ص ٣١ .

ويتحدث (فندريس) عن التجارب التي اجراها ، خاصة ، بين سنتي ١٩٥٠ — ١٩٥٣ مع صديقه (ر . مالتر) للتحقق من هذا المبدأ . فقد كررا مثلاً بصدد طيران الذبابة التحليل التجريبي الذي اجراه العالم (ج . بران) على الحركة البراونية . كررا ، بمعدل ثلاث مرات في الثانية ، وعلى فواصل زمنية متساوية ، الاوضاع المتعددة والمتعاقبة لذبابة تطير طيراناً حراً حول « مصباح معلق في سقف » ورسما بآلة تصوير سينمائي متجهة نحو الاعلى طيران الذبابة وتحققا بعد اجراء الرسوم البيانية من انطباق الحركة البراونية على طيران هذه الذبابة .

وكما تنطبق الحركة البراونية على طراز الذبابة تنطبق على خلية الكرية البيضاء وعلى سلوك الانسان في بعض الظروف ، ومثلاً سلوك الطفل عندما يبدأ السير على قدميه . وقد راقب (فندريس) مسيرة ابنته حين كانت في الشهر الثالث عشر من عمرها ولاحظ تعاقب دفعات سيرها بكل حرية في فراغ الغرفة . وكذلك نجد المتسكع في انحاء مدينة من المدن ، فعل بعض الادباء الذين اختاروا ، كيفما اتفق ، بلدة من البلدان وقصدوها ليتسكعوا في شوارعها ، وكذلك تنقلات سيارة عامة في مدينة مثل (باريز) اذ يتعاقب على طلب تنقلها في هذا الاتجاه او ذاك عدد من المسافرين المختلفي الاهداف . وقد قبل احد سائقي السيارات العامة ان يسجل كل نصف ساعة موقعه داخل مدينة (باريز) خلال عدد من الايام . واظهر تحليل تنقلاته الطبيعة البراونية لحركته بالنسبة لخارطة المدينة(١) .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٠ .

ويوضح (فندريس) رأيه في نظرية الاستقلال الذاتي الفيزيولوجي مبيّناً ان الكائن المستقل ذاتياً هو ذاك الذي يملك امكان التصرف بحسب قوانينه الخاصة ، وان الاستقلال الذاتي يحدد بالنسبة الى صورة خارجية ، وانه بلا ريب الفكرة الاساسية في الفيزيولوجيا ، ويبرز الباحث اتصاف هذا الاستقلال الذاتي بأنه حصيلة اكتساب ، وان الانسان يفوز باستقلاله الذاتي بالنسبة للوسط الخارجي منطلقاً من نفسه وهذا الاكتساب ينجم عن جملة من الوظائف يضمها عادة اسم وظائف التغذية : الهضم والتنفس والدوران والتنقية الكلاوية والتنظيمات الغددية الداخلية والوظائف العصبية — النباتية .. ويدل على استعمال هذا الاستقلال الذاتي الفيزيولوجي بجملة من الوظائف اسم خاص هو وظائف الاتصال ، وهي تمثل بوجه عام جملة فيزيولوجيا العظام المفصلية والجمل العصبية — المحركة .

ويخلص (فندريس) من دراسة نظرية اكتساب الاستقلال الذاتي الفيزيولوجي الانساني الى ان الكائن الحي يملك القدرة على اقامة علاقات حركية اتفاقية مع الوسط الخارجي ، وان نظرية الاكتساب الملمع اليها تدل دلالة جلية على ان استخدام الكائن الحي هذا الاستقلال الذاتي يتم بعلاقات حركية اتفاقية مع الوسط الذي يعيش فيه(١) . وهذه النتيجة تتيح للمؤلف ، من ثم ، ان ينصرف الى دراسة نظرية الاستقلال الذاتي الفكري ، يرى انها تمثل فرضية رئيسية تمكّن الانسان من معرفة نفسه بنفسه وتأييد هذه المعرفة بدراسة الفكر بوصفه متجسداً في سلوك خارجي ، ومثلاً في وظيفة

(١) المصدر السابق ص ١٠٩ .

اللغة الهادفة الى نقل رسالة من انسان الى انسان آخر بتوسط وسيلة فيزيائية لا يمكن الاستغناء عنها ، وكذلك يمكن دراسة النشاط الفكري الانساني باعتباره متجسداً في الوظيفة الاعلامية التي جعلت الانسان المعاصر يستطيع ان يعهد الى آلات من صنعه بمهمة اجراء عمليات فكرية .

من الجلي ان في وسع الانسان ان يستخدم ، قبل الكلام ، المنظومة اللغوية الذائعة وان ينطق بعدد لا محدود من الجمل الجائزة بآن واحد . ولكن في اللحظة التي ينطق فيها بجملة معينة ، فانما ينطق بجملة واحدة ، وينفي سائر امكانات الجمل الاخرى. وعلى هذا فان المتكلم يتصرف بعدد لانهائي من الجمل التي يمكن ان يشتمل عليها الفكر ، ولكنه لا يستطيع الاعراب عن هذه الجمل كلها في اللحظة المعينة . ولذا فان الفعل اللغوي يعمل بحسب انموذج النمو الاتفاقي (١) .

ان دراسة الفكر او الذكاء الانساني بوصفه متجسداً في سلوك خارجي يمثل الناحية الاولى من معرفة الانسان نفسه بنفسه في نطاق نظرية الاستقلال الذاتي الفكري . واما الناحية الاخرى من هذه المعرفة فانها تتصل بدراسة الذكاء بذاته ، وهي دراسة حافلة بالصعاب ، ولكن أهميتها تعدل بذل جهود كبيرة من اجل تعمقها ما دام الانسان يتميز بالذكاء عن سائر العجماوات . ويرى (فندريس) ان الفعل الفكري الاساسي في كل نشاط ذهني ، وهو ذاته الفكر الاولي في المنطق ، وفي الرياضيات ، وفي كل علم نظري ، وفي كل ممارسة للتفكير ، انما هو فعل تصور افكار عامة . وعنده

---

(١) المصدر السابق ص ١١٤ .

ان تاريخ الفكر الغربي كله يبرهن على قيمة الفكرة العامة ، وان الناس ، مذ كانوا بشراً، أي منذ ان اخذوا بالتفكير ، لم يستطيعوا ان يفكروا إلا بالافكار العامة . ومن المعلوم ان كل فكرة عامة هي بآن واحد ، مشتركة بين عدة أمثلة من جهة ، ومستقلة عن الخصائص الجزئية لكل منهـا ، من جهة اخرى . ومن شأن الاستقلال الذاتي لتصور الافكار العامة بالنسبة لمعرفة الحوادث الجزئية انه يشهد على الاستقلال الذاتي الوظيفي للنشاط الفكري الذي يتصورها . فمن اجل اقامة فكرة عامة يجب توافر فعلين ذهنيين متكاملين : التجريد والتعميم . فبالتجريد يخلق الفكر انفصالا في معرفة السمات الخاصة بكل موضوع من المواضيع المدركة اذ يسلخ عنها السمات المشتركة التي تشترك فيها هذه المواضيع ويضمنها داخل معرفة عامة واحدة . وما الفكرة العامة في الواقع سوى امر مشترك بين عدة أمثلة خاصة ، هي كلها جائزة معاً . وهذه هي مرحلة اللاحتمية لان الفكرة العامة تتميز بامكان مواءمتها بآن واحد لكثرة من المواضيع الفردية . وعندمـا نعرض في مرحلة ثانية مثلاً خاصاً عن فكرة عامة نقدم موضوعاً خاصاً بجميع سماته الخاصة ، ولكننا نكون مضطرين لاختياره ترجيحاً له عن جميع ما سواه ، ما دام لكل موضوع من هذه المواضيع سماته الخاصة ، وبذا تكون هذه الامثلة غير متوافقة بعضها مع بعض. وعلى هذا فان اختيار موضوع خاص ، باعتباره مثلاً عن فكرة عامة ، يجعلنا نحدد المرحلة الثانية الاتفاقية .

وبقول وجيز : ان الفعل العقلي الاولي ، فعل التفكير بالفكرة العامة ،

يجري تبع مرحلتي الاسلوب الاتفاقي . وان الفاعلية الفكرية هي التي تهيء، لدى الانسان ، وبالافكار العامة ، تهيء الاجابات من المنبهات الخارجية . وانما يستطيع الانسان ، بفضل استقلال نشاطه الفكري استقلالاً ذاتياً ، ان يعقد صلات مع الوسط الذي يعيش فيه ، وان يبدع مستقبله ويحدّد مصيره على انحاء شتى . وعلى هذا النحو تلغي نظرية الانسان ما يوحّدها بنتيجة المفاهيم التي تجعل من الممكن فهم الاستقلال الذاتي الفيزيولوجي والاستقلال الذاتي الفكري ، وكلاهما وجها نظرية واحدة ، وهذه النظرية وحدها تقدر على رسم الصورة الذهنية « العلمية » عن الانسان(١) .

ويمضي (فندريس) فتطبق نظريته على التاريخ الانساني وعلى نشاط الانسان المبدع في مختلف المجالات ويرى ان هدف المدنية ، آخر المطاف انما هو الانسان . الانسان ذو الاستقلال الذاتي : والناشط ضمن انسانية مستقلة ذاتياً .

لقد وضع (افلاطون) معرفة الانسان نفسه موضع الصـدارة في مذهبه ، وأضفى على البحث عن حل هذه المشكلة صبغة عقلية رفيعة . فلا غرو أن يعلن الطبيب (بيير فندريس) انتماء نظريته العلميـة عن الانسان الى جده الفكري الاول ، صاحب الافلاطونية .

●

وعلى هذا النحو نجد طائفة من « العلمـاء » يبذلون ، مشكورين ، قصارى جهدهم لتحديد حقيقة الانسان علمياً . ولكنهم في الحق يرجعون

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٣ .

الى احضان النظرة الفلسفية منذ ان يجاوزوا معطيات العلم التجريبي : الدكتور (الكسيس كاريل) يطالب بمعرفة الانسان نفسه ، لان الانسان هو ذلك المجهول . والدكتور (محمد صبحي ابو غنيمـــة) يلحف على الطلب ذاته ما دامت النفس هي ذاك المجهول الخالد . ويرى علماء الحياة التطوريون رسم واقع الصيرورة الكونية فالانسانية ، ولكن (جوليان هكسلي) يبرز الحاجة الملحة في العالم الحديث الى اقامة نظام للقيم والمثل العليا ، لان الانسان حيوان متفرد له السيادة على الكون . ويؤكد (جان روستان) ان علم الحياة يفتح المجال لتطلعات تتضاءل حيالها خيـــالات (ولز) ، وان ليس من المحال ان يتمكن علم الحيـــاة في المستقبل من تحسين نوعنا باضافة كمية قليلة من المادة الصبغية. ولكن (لوكونت دي نوي) يعتقد ان مستقبل الانسانية يوجب ادخال تعديل طفيف على مفهوم الغائية التطورية لتشمل عدداً اكبر من الفاعليات الانسانية المميزة فضلاً عـــن شمولها حوادث التطور العضوي والكوني. وهو يحذر من نمو الذكـــاء الانساني وحده بصرف النظر عن النمو الاخلاقي والجمالي . اما عالم التطور والحفريات المعاصر الاب (تيار دي شاردان) فقد عني بظاهرة الانسان . وافسح المجالات الرحاب امام تطوره الفكري بوجه خاص . ولكنه رأى الا مندوحة لنطاق الفكر من ان يلتقي بالمبادىء المسيحية وبأغراضهـــا الفلسفية والاجتماعية ، وهكذا نجد الدكتور (بيير فندريس) يفخر ، اخيراً ، بالرغم من جهوده الموصولة لاثبات نظرته عن الانسان بوصفه ذا استقلال ذاتي فيزيولوجي وفكري ، يفخر بالرجوع الى « رعاية » جد (افلاطون) ، صاحب « الجمهورية » و « النواميس » .



فهرست

منشورات عويدات ١٩٧٧/١٠/٤٨٥

للمؤلف

بحوث مؤلفة

L'Esprit Critique des Frères de la Pureté

منتخبات اسماعيلية تنشر لأول مرة (تحقيق)

المذاهب الأخلاقية (جزءان)

القيمة الأخلاقية

الوجـــدان

التجربة الفلسفية (جزءان)

الكلام والفلسفة

معالم الكرامة في الفكر العربي

من الشرف الى الكرامة

الاخـــلاق

المعتزلة والفكر الحر (بالاشتراك مع الاستاذ عبد الهادي هاشم) قيد الطباعة بوزارة التربية بدمشق .

الانسان ذلك المعلوم (منشورات عويدات)

بحوث مترجمة

المدنية سرابها ويقينها — جورج باستيد

بنية الفكر الديني في الاسلام — للمستشرق جبب

الفكر والتاريخ — بيير — هنري سيمون

الفن والحياة الاجتماعية — شارل لالو

الفن والاخلاق ـ شارل لالو
مدرسة الالهات ـ اتيين جلسون
العقل والمعايير ـ اندره لالاند
فلسفة القيم ـ ريمون رويه
عالم القيم ـ » »
لفكر العلمي الجديد ـ غاستون باشلار
جورج لوكاتش ـ هنري ارفون
السرنتيك وأصل الاعلام ـ ريمون رويه
السعادة والحضارة ـ جان كزنوف
نهج السعادة ـ كارل ياسبرس
عظمة الفلسفة ـ » » (عويدات)
فلاسفة انسانيون ـ » »
القيمة والحرية ـ يوسف كومبز
الفلسفة والتقنيات ـ جان ماري اوزياس (عويدات)
عسر الحضارة ـ سيغموند فرويد
معنى المدينة ـ فرانسواز شواي ورفاقها (قيد الطباعة بوزارة الثقافة بدمشق)
الفكر الفرنسي المعاصر ـ ادوار موروسير (عويدات)
حوار الحضارات ـ روجه غارودي (عويدات)

زدني علماً

١ ـ حوار الحضارات.
٢ ـ الميتولوجيا اليونانية.
٣ ـ مبادىء في العلاقات العامة.
٤ ـ الخلدونية.
٥ ـ سوسيولوجيا الأدب
٦ ـ الأسواق الزراعية.
٧ ـ الجمالية الفوضوية
٨ ـ تاريخ الفنون العسكرية
٩ ـ الفكر الفرنسي المعاصر
١٠ ـ الأدب المقارن
١١ ـ الإسلام
١٢ ـ برغسون
١٣ ـ سيكولوجيا الفن
١٤ ـ تأملات ميتافيزيقية
١٥ ـ في الدكتاتورية
١٦ ـ العقد النفسية.
١٧ ـ دستويفسكي.
١٨ ـ نظرية العفو.
١٩ ـ الإنسان ذلك المعلوم.
٢٠ ـ سوسيولوجيا الفن.
٢١ ـ السيمياء.
٢٢ ـ التخلف المدرسي.
٢٣ ـ علم الأديان الفكر الإسلامي
٢٤ ـ مدخل إلى علم السياسة.
٢٥ ـ نقد المجتمع المعاصر.
٢٦ ـ روسو.
٢٧ ـ الأدب الرمزي.
٢٨ ـ طريقة الروائز في التربية.
٢٩ ـ مصير لبنان في مشاريع.
٣٠ ـ من ديكارت إلى سارتر.
٣١ ـ الانطباعية.
٣٢ ـ تاريخ قرطاج.
٣٣ ـ باسكال.

٣٤ - المؤسسات العامة.

٣٥ - المسألة الفلسفية.

٣٦ - تاريخ السوسيولوجيا.

٣٧ - الفدرالية.

٣٨ - أمراض الذاكرة.

٣٩ - المذاهب الأخلاقية الكبرى

٤٠ - نقد الأيديولوجيات الكبرى

٤١ - الفلسفات الكبرى.

٤٢ - العواطف والحياة الأخلاقية.

٤٣ - المكتبات العامة.

٤٤ - منظمة الأمم المتحدة.

٤٥ - الدستور واليمين الدستورية.

٤٦ - هذه هي الحرب.

٤٧ - الممارسة الأيديولوجية.

٤٨ - المواطن والدولة.

٤٩ - فلسفة العمل.

٥٠ - مونتاني.

٥١ - علم الجمال.

٥٢ - تدريب الموظف.

٥٣ - فلسفة التربية.

٥٤ - السوق النقدية.

٥٥ - الإنسان المتمرد.

٥٦ - تيار دو شاردان.

٥٧ - التربية الحديثة.

٥٨ - كيركيغارد.

٥٩ - تقنية المسرح.

٦٠ - المذاهب الأدبية الكبرى.

٦١ - النقد الجمالي.

٦٢ - الحضارات الإفريقية.

٦٣ - ديكارت والعقلانية.

٦٤ - العلاقات الثقافية الدولية.

٦٥ - البيبليوغرافيا.

٦٦ - علم السياسة.

٦٧ - الاعلامياء.

٦٨ - سوسيولوجيا السياسة.

٦٩ - الأدب الطبيعي.

٧٠ - الجمالية عبر العصور.

٧١ - فن تخطيط المدن.

٧٢ - علم النفس التجريبي.

٧٣ ـ أصول التوثيق.
٧٤ ـ دينامية الجماعات.
٧٥ ـ تاريخ العرقية.
٧٦ ـ قيمة التاريخ.
٧٧ ـ سوسيولوجيا الصناعة.
٧٨ ـ الماركسية بعد ماركس.
٧٩ ـ معرفة الذات.
٨٠ ـ تاريخ الطيران.
٨١ ـ التعليم المبرمج.
٨٢ ـ السلطة السياسية.
٨٣ ـ سوسيولوجيا الحقوق.
٨٤ ـ الخطوط... لفلسفة ملموسة.
٨٥ ـ مدخل إلى التربية.
٨٦ ـ معرفة الغير.
٨٧ ـ القيمة.
٨٨ ـ عظمة الفلسفة.
٨٩ ـ الإنسان الأول.
٩٠ ـ اللحظة العدمية المتعالية.
٩١ ـ الجمالية الماركسية.
٩٢ ـ تاريخ بابل.
٩٣ ـ الفلسفة والتقنيات.
٩٤ ـ جغرافية العالم الصناعية.
٩٥ ـ فلاسفة إنسانيون.
٩٦ ـ الحرب الأهلية.
٩٧ ـ أصل الموحدين الدروز.
٩٨ ـ من الرأي إلى الإيمان.
٩٩ ـ التسويق.
١٠٠ ـ دفاعاً عن الأدب.
١٠١ ـ الذين يحضرون غيابهم.
١٠٢ ـ الجماعات الضاغطة.
١٠٣ ـ الأسطورة.
١٠٤ ـ القوى العاملة في الامارات
١٠٥ ـ الإحصاء.
١٠٦ ـ الوظيفة العامة.
١٠٧ ـ الكلام.
١٠٨ ـ النظام السياسي والإداري في بريطانيا.
١٠٩ ـ الثقافة الفردية وثقافة الجمهور.
١١٠ ـ توظيف الأموال.

١١١ ـ الأدب الألماني.
١١٢ ـ المحاسبة التحليلية.
١١٣ ـ النظام السياسي والإداري في فرنسا.
١١٤ ـ الأمومة والبيولوجيا.
١١٥ ـ الحريات العامة.
١١٦ ـ قانون الفضاء.
١١٧ ـ تلوث المياه.
١١٨ ـ النقد الأدبي.
١١٩ ـ النظام السياسي... في الاتحاد السوفياتي.
١٢٠ ـ التلوث الجوي.
١٢١ ـ النسبية.
١٢٢ ـ السوريالية.
١٢٣ ـ حلول فلسفية.
١٢٤ ـ التلفزيون الملون.
١٢٥ ـ مدخل إلى الاقتصاد.
١٢٦ ـ الأخلاق والحياة الاقتصادية.
١٢٧ ـ مناهج علم الاجتماع.
١٢٨ ـ استطلاع الرأي العام.
١٢٩ ـ وحدة الوجود العقلية.
١٣٠ ـ الأدب الإيطالي.
١٣١ ـ المذاهب الاقتصادية.
١٣٢ ـ الفن التكعيبي.
١٣٣ ـ التربية الجنسية عند الولد.
١٣٤ ـ فلسفة القانون.
١٣٥ ـ الطفولة الجانحة.
١٣٦ ـ الرواية البوليسية.
١٣٧ ـ التحليل البنيوي للحكاية.
١٣٨ ـ تاريخ الجزائر المعاصر.
١٣٩ ـ الكوميديا.
١٤٠ ـ تاريخ علم الآثار.
١٤١ ـ السيكولوجيا الصناعية.
١٤٢ ـ الدولة.
١٤٣ ـ البحث العلمي.
١٤٤ ـ المجتمع الصناعي.
١٤٥ ـ التوجيه التربوي.





«ان هذا الكتاب يهدف الى دراسة الانسان والعلوم الانسانية ... وقد اخترنا الثقافة العربية ، بل العربية الاسلامية منهلاً نمتح من معينه أمثلتنا على دور «الانسانيات» في سائر الثقافات باعتبارها مراحلة مخاض سبقت بزوغ الفكر العلمي الوضعي في ميدان الانسان».

وبعدها

«في اثر هذه الجولة السريعة ... قفزنا الى الثقافة الغربية او العالمية الراهنة . فتحدثنا عن النظرة العلمية المعاصرة . وبدأنا بالاشارة الى رأي الدكتور الكسيس كاريل . واتبعنا بتأكيد الدكتور صبحي ابو غنيمة على ان النفس هي ذلك المجهول الخالد ... ثم اشرنا الى ذاك التيار من البحث العلمي «التطوري» في الانسان . وا...
آراء جوليان هكسلي وجان روستان ولوكونت دي شاردان واخيراً بحوث الدكتور بيار فندريس ...»